الطبعة الثالثة

رواية

نور عبد المجيد

لاسكالا

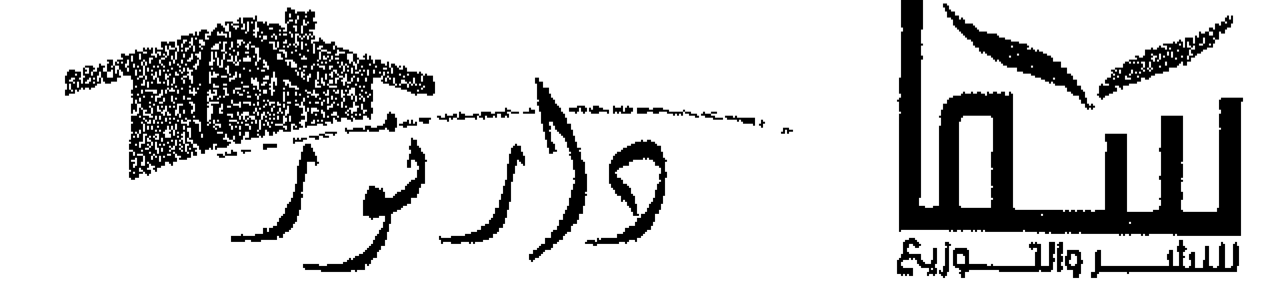
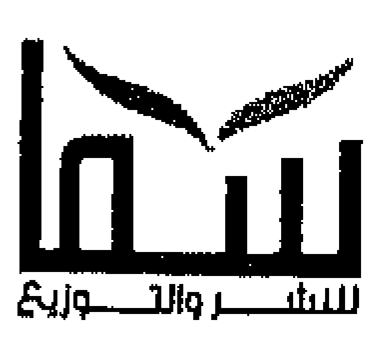


دار نور

نور عبد المجيد

لاسكالا

رواية



لاسكالا

نور عبد المجيد

الطبعة الأولى: ينايــــر
1437هـ 2016م

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية
دار الكتب المصرية
عبد المجيد، نور
لاسكالا: رواية/
نور عبد المجيد - القاهرة: دار نور للنشر والتوزيع،
دار سما للنشر والتوزيع 2016
472 ص؛ 19,5×13,7سم - (لاسكالا)
تدمك 978-977-781-045-6
1 - القصص العربية.
أ. العنوان
رقم الإيداع: 2015/25624
تدمك 978-977-781-045-6



دار سما للنشر والتوزيع
جمهورية مصر العربية
15 ش يوسف الجندي متفرع من شارع البستان - باب اللوق - القاهرة
تليفون: 24517300 202+ - 01271919100 2+
email: samanasher@yahoo.com
Web-site: publishing@sama-publishing.com

دار نور للنشر والتوزيع
جمهورية مصر العربية
الشيخ زايد
تليفون: 01001406227 2+
email: nooradulmajeed.darnoor@gmail.com
Web-site: www.noorabdulmajeed.com

التنفيذ الفني



ali@daraj-eg.com

تصوير وتصميم الغلاف: يارا مجدي

لاسكالا

إهداء

إلى «الألم» الذي أدَّبني وأظُنّه أحسن تأديبي!!

بسم الله العزيز المنتقم

السيد الغندور:

أعوام طويلة أنتظر عنك أخبارًا سعيدة، أعوام طويلة وعيونٌ حولك تواليني بأخبارك، لكن دون خبر سعيد واحد..

أصلي كل يوم وأدعو الله كثيرًا، وأسأله كيف رغم خشوع صلاتي وحرقة تضرعي لا أسمع عنك ما يرضيني..

بالأمس أخبروني عنك الخبر السعيد!!

أخبروني أنك سقطت، وأن سرّ أسفارك الكثيرة في الشهور القليلة الماضية ما عاد سرًّا..

أخبروني أن المرض ينهش جسدك، وأنك تموت..

لم أكتب لك لحظتها فقط؛ لأني كنت طوال يومي ساجدة لله أشكره وأسبح بحمده..

تأخر النبأ كثيرًا، لكن لا بدّ وأن لتأخره حكمة..

نتعجل الخير لكن وحده الله يرسل الهدايا في وقت معلوم!!

تأخر النبأ ليصلني، والكره عملاق اشتدَّ عُودُه ليقضي على آخر نسائم الرحمة في صدري..

تأخر النبأ لترتوي أوصالي به قطعة تلو الأخرى..

هل تراه السرطان كان يستجمع قواه كل هذه الأعوام ليعرف كيف يهاجم رجلاً مثلك ويقضي عليه؟!

أدعوه ألا يفعلها في ضربة واحدة، أناشده أن يغزوك قطعة قطعة، ويجرِّعك كؤوس الألمْ رشفة رشفة..

أخبروني أنك أجريت جراحة كبيرة، تم فيها استئصال جزء كبير من الأمعاء..

أصابني الذعر، وأنا حول نفسي أدور وأسأل: هل تموت؟!

هدأتُ، وأنا أستعيد أسماء وقصص قتلة ومرتزقة التاريخ..

هم يا سيدي يحيون طويلاً ويتعذبون كثيرًا، أما قال ربك في كتابه:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[1].

اليوم أكتب إليك بعد كل هذه الأعوام التي ظننتني غبتُ فيها عن خارطة الأرض..

أنا هنا حية أرزق، هنا أرقبك تتألم، وأنتظر موتك لأرتدي أشهى ثيابي، وأضع زخات من أغلى عطوري..

يوم تموت؛ أكتب أحلى قطعة موسيقية وأسميها «موت الغندور»!!

لم أنسك يومًا، وما أظنك نسيتني!!

(1) سورة آل عمران الآية 178.

رسائلي ستتوالى إليك، وأعلم أنك ستفتحها وتقرأها، وأنك أبدًا لن تجيب عليها..

تألم، تألم كثيرًا وطويلاً..

ثم تألم أكثر وأكثر، علّني أشفق عليك، وأخبرك عن الدواء...

دعنا الآن فقط نحتفل، وننتشي كلٌّ بطريقته..

أنت بأملك في الشفاء، وأنا بألمك في الموت والانتظار..

هل عرفت من أنا؟!

* * *

كان الضجيج عاليًا والمدرجات تهتز بهدير الحضور، تعلم أنه ليس كثيرون منهم يعنيهم أمرها في شيء لكن ما يعنيها كثيرًا أن تختتم أسبوع البطولة هذا العام بالحصول على كأس الجمهورية.

أربع ميداليات من الذهب في الأسبوع الماضي تجعلها مؤهلة للحصول عليه إن اجتازت اليوم بنجاح.

ساعات التدريب الطويلة، والتنقل من نادٍ إلى نادٍ، ومن حمام سباحة إلى الآخر.

رائحة الكلور التي أصبحت في أنفاسها وطيات ثيابها، صرخات مدربها التي تركت صوته مبحوحًا في نهاية أسبوع البطولة.

كل هذا يجعلها تصارع المياه، وتتقدم لتحصل على كأس الجمهورية للسباحة..

«ثلاثين ثانية» تريد أن تحطم هذا الرقم، تريد أن تحطمه بعد ثلاثة أعوام لم يستطع أحد فيها أن يحطمه، هو عام مختلف، وعدها والدها ألا يركضا في نوادي الجمهورية العام القادم.

يريدها أن تتفرغ للاستذكار أكثر وهذا يكفيها.

كل من يلهثون معها وخلفها في الماء الآن يريد أن يسبقها؛ لأنه يحب السباحة، يحب الفوز، يحب النجاح، وحدها فقط تتقطع أنفاسها؛ لأنها تحب العرض الذي قدمه لها..

«احصلي على كأس الجمهورية، ونكتفي بالتمارين الأسبوعية حتى حصولك على الثانوية العامة»!!

زاد ضربها في الماء، تريد أن تتفرغ أكثر ليس للاستذكار، بل لتمارين الباليه في مدرستها..

تعبت من الركض بين تمارين السباحة في الفجر والمساء، وبين الموت على خشبة قاعة التدريبات في مدرستها وفي معهد الباليه، لكن يبقى دومًا هناك شيء نريده حتى نرى الموت ذاته حياة في السعي إليه وشيء آخر نرى الحياة معه موتًا، وإن كان في الموت فيه نجاتنا!!

نجاتها اليوم أن تحصل على كأس الجمهورية..

بأعوام عمرها الستة عشر، بقوتها، بصوت الموسيقى الذي يسكن أذنيها، بصورة «التوتوز» في قدميها، بكل شوقها إلى خطوات «البولكا»، ورقصات النمسا التي أدتها في حفل المدرسة السنوي كانت تضرب المياه..

يخبرها مدربها أن تمارين الباليه جعلتها أكثر تميزًا وتقدمًا في السباحة، وتمنت لو تخبره أن ما جعلها كذلك هو رغبتها في التفرغ للباليه.

تريد أن ترضي والدها حتى الذروة ليمنحها وقتًا أطول مع الباليه خلال العام القادم.

اقتربت من خط النهاية، وأصبح صياح كل من في المدرجات باسمها.

رفعت رأسها لثانية صغيرة لا تصدق أن كل هؤلاء أصبحوا يهتفون باسمها، رأت وجه والدها ووجه مدربها ينثني على ركبتيه يردد «عاش، عاش، عاش»، بل تموت إن خذلتهم..

زاد لطمها في الماء حتى وصلت، ولمست بكفها خط النهاية.

كان الصياح عاليًا، والهدير يصل أطراف السماء، واستدارت بسرعة تنظر إلى الـ «أوميجا»، حطمت الرقم القياسي، عبرت الخمسين «حُرة» في سبع وعشرين ثانية.

رأت مدربها يركض نحوها حاملاً في يده الروب، وهو يبكي.

كانت تلهث كقط مذعور، وحين ارتمت بين ذراعي والدها، وعاودت النظر إلى ساعة الأوميجا علمت أنها حصلت على كأس أفضل سبّاحة في الجمهورية.

بعينيها جابت مدرجات الحضور.

كيف يصفقون لها بهذا الجنون رغم أن منهم آباء وآمهات لمنافسين لها، في نصرها هزيمتهم وفي نجاحها تأخرهم.

صاح مدربها يقول: «اللعبة الحلوة تنسينا انتماءاتنا وتحيزنا، في لحظة لا نملك إلا أن ننحني للمعجزة وإن كانت عدونا!! أنت المعجزة، حطمتِ الرقم القياسي».

بعد دقائق أعلنوا نهاية البطولة وتوزيع الكؤوس.

صاح رئيس اتحاد السباحة يعلن فوز يُسر الغندور بكأس الجمهورية، وتقدمت ترفع يدها بالكأس عاليًا، واستدارت تنظر إلى والدها الذي كان يرقبها في زهو كبير.

حققت له ما أراد، ستخرج من هنا، وتضع هذا الكأس بين يديه قربانًا من قرابين كثيرة تقدمها له..

تُرى لو كانت «أوليجا» هنا، هل كانت تقف وتصفق وتطفق الدمعات من عينيها.

«أوليجا باريشينكوف» ليتها هنا!!

لماذا كلما ذكرتها تشعر بسكين تعتصر قلبها دون رحمة.

لماذا كلما ذكرتها تمنت لو تلقي بكل شيء من يدها، وتسقط على الأرض، وتبكي كما لم يبكِ إنسان.

لأنها أمها!! لأنها تحبها!!

أم لأنها تخلت عنها وتركتها؟!

كيف يتساوى الحب والألم؟!

متى يتساوى الشوق والغضب؟!

ما زال وجهها الجميل يسكن ضوء عينيها، ما زالت كلماتها تلك الليلة تطن في أذنيها في كل لحظة..

«كوني صادقة، كوني صادقة لا مع الآخرين، بل مع نفسك!! الصدق مع النفس وحده طريق القوة والنجاة»!!

ثمانية أعوام لم تر أمها، ثمانية أعوام، والكلمات ترن في أذنيها، وتجلجل في جنبات روحها، ورغم هذا تشعر أنها ما زالت لا تفهم..

جذبها مدربها من ذراعها ليعيدها إلى جمهور بطولة السباحة، وسار بها بعيدًا..

انقضى الموسم، وانتهى كل شيء.

ستخرج وتتناول لوحًا كبيرًا من «الشيكولاتة» التي كانت محرمة عليها طوال أسبوع البطولة.

ستعود إلى منزلها في الدقي ويضعها والدها في فراشها، ويخرج كما يفعل كل مساء لتبقى وحدها في ظلام غرفتها، ترقب ظلام الليل، وتحلم لو تدخل عليها أمها كما فعلت تلك الليلة رغم ثقتها أنها أبدًا لن تفعل.

ماتت أوليجا كما أخبروها؟!

لا لم تمت!! هي التي تشتعل موتًا وألمًا..

تجهل كل شيء، ومحرم عليها حتى ذكر اسمها على شفتيها.

اسمها؟!

ماذا كان اسم أمها؟!

أوليجا أم ناتاشا؟!

* * *

حين وضع «الغندور» نفسه في سيارته، وأمر سائقه بالتوجه إلى شقة وسط البلد التي اعتاد أن يأخذه إليها كان وجهه متوردًا ضاحكًا على عكس عادته، ما إن انطلق السائق العجوز في طريقه حتى أخرج له سيده ورقة مالية كبيرة منحها له قائلاً:

ـ أصبحت يسر بطلة الجمهورية في السباحة.

التقطها الرجل في صمت بعد كلمة «مبروك» صغيرة خفيضة لا لون لها ولا نغمة.

الغندور يعلم أن سائقه لا يحبه، لكن ما عسى هذا الحب في شيء أن يعنيه.

«عم غريب» سائقه من «دمرو» منذ ستة عشر عامًا، يأتمنه على كل خطوة يخطوها هو أو ابنته، أجمل ما فيه أن لسانه مقطوع، مرات كثيرة فكر في طرده من العمل، بل هي مرة واحدة.

نعم مرة واحدة!

ذاك اليوم الوحشي يوم اختفاء «أوليجا».

يشك كثيرًا أنها معه ذهبت، حاول كثيرًا أن يخرج منه باعتراف، كان يريد القبض عليها، أخذت كل ماله الذي كان يحتفظ به في خزنة غرفته، ما زال يثق في علمه بوجهتها.

كان غريب يحبها كثيرًا كما يحب ابنتها الآن، وكما لا يهوى أحدهما الآخر.

هدده بالطرد، أعلن له أنه سيبلغ عنه الشرطة، ويتهمه بالسرقة.

لم تهتز شعرة في رأس غريب البيضاء.

أحنى رأسه في هدوء يخبره أنه سينتظره في السيارة؛ ليأخذه إلى قسم الشرطة.

كاد الغندور أن يجن يومها، لكنه ما فعل شيئًا، وكيف يفعل، وهاتفه دق بعد لحظات.

حادثه أخوه، وقال في هدوء:

«أنا في طريقي إليك، غريب لم يسرقك، لا تخلط بين امتنانه لها وولائه لنا، لا نأتمن سواه على ابنتنا، لن يترك العمل لديك، فلتذهب أوليجا وما سرقت إلى الجحيم، ومنذ اللحظة سأعلن وتعلن أنت للجميع وفاتها، هل تفهم؟!»

اختنق صوته بالدمع لحظتها، وقال، كأنه يرجوه أنه فقط يريد أن يعلم أين ذهبت؟!

أغلق الغندور الكبير الخط بعد أن قال: «وهل يمثل لنا فارقًا في أي تربة يغفو من مات»؟!

من خلف ظهره، وعلى مقعده الخلفي، نظر إليه عصمت في غيظ، ما زال يتمنى لو يسأله عنها، لكن يعلم أنه لو ذبحه، أو ذبح نفسه على قدمي سائقه، ما قال كلمة.

ليس هذا وقت الذكريات، هو يوم النصر..

أثبتت ابنته اليوم أن دماءها من تلك الدماء الملوثة تغتسل.

رغم أنها ما زالت ترقص الباليه، رغم أنها ما زالت كلما فتح عليها باب غرفتها وجدها تقف كالبلهاء على رأس أصابعها، إلا أنها بحصولها على بطولة الجمهورية أثبتت أن دماءها قابلة للتطهر!!

لم يكن يصدق أبدًا أنها ستحصل على البطولة، يريد أن يراها سبّاحة لا راقصة، يكره أن يرى عضلات ساقيها تنموان، لكن فعلتها!!

حصلت على البطولة، وتنتظر أن يحافظ على عهده..

لن يفعل!!

سيترك لها شهورًا، ويعود إليها بقصة جديدة.

أوقف غريب السيارة في ذات المكان، وقال في صوت لا يخلو من الاشمئزاز رغم انخفاضه:

ـ سيد عصمت، نحن هنا.

هبط السيد من السيارة، وتوجه نحو المحل القريب، ربما لا يكره سائقه كثيرًا، في الحقيقة هو يحترمه، والاحترام لا يتنافى مع الكره أبدًا، بل أحيانًا هما في اطراد كبير.

حين بدأ في شرب الخمر، حين بدأ في ابتياع القناني، وأخذها إلى شقة طلعت حرب أمره يومًا بشراء ما أراد.

غاب غريب لحظات، وعاد بيدين خاويتين، سأله لحظتها لما عاد؟!

«هل رفعوا السعر؟! هل نسيت ما قلت؟! أتريدني أن أكتب لك الأسماء في ورقة؟»..

بقي ينظر إليه لحظات، ثم قال ما لم ينسَه حتى الآن، قال، ورأسه مرفوع:

«سيد عصمت، قبل أن أعمل سائقًا لديكم كنت مؤذنًا كما تعلم، لا أحمل الخمر، وإن كان لك، أفعل أشياء كثيرة، أنتظرك أسفل بيتٍ، أعلم ما يدور فيه، لكن إلا أن أحمل الخمر».

بقي مشدوهًا لحظات يفكر، وينظر إلى كفه الممدود نحوه بالنقود ومفاتيح السيارة، لا يريد أن ينفعل ويغضب ويطرده، فهذا يفتح عليه أبوابًا كثيرة هو لا يريد مجابهتها.

شعر لحظتها أنه يحترم الغريب كما يدعونه، أرخى عينيه، ثم فتح باب السيارة؛ ليلتقط منه النقود ويمضي نحو محل الخمور قائلاً:

«ادخل سيارتك يا مسكين!! ليست الخمر أعظم الذنوب، ولا النساء في هذا الزمن يا رجل!!».

منذ ذاك اليوم، وغريب يقف في سكون في ذات المكان؛ ليهبط السيد، ويعود حاملاً قناني خمره، ويتحاشى كلاهما النظر في عيني الآخر عندها، حتى لا يذكر أحدهما لحظات لا تُنسى!!

حين عاد الغندور، ودخل إلى السيارة واضعًا قنانيه إلى جواره، ابتسم في مرارة، ليس غريب وحده الأحمق المجنون.

من يبيعون الخمر دومًا يضعونه في أكياس سوداء رغم كون محلاتهم في الشارع مفتوحة والأضواء على أبوابها تخطف الأبصار.

يضعون قناني الخمر في أكياس سوداء لئلا يراها أحد، بينما يمشون في الأرض برؤوسهم الأكثر سوادًا وظلمة دون خجل أو خوف.

حين وصلت السيارة إلى شارع «طلعت حرب» في منطقة وسط القاهرة، وحين غادر سيارته أمام باب إحدى العمارات القديمة، نظر بطرف عينيه إلى سائقه الذي هز رأسه في هدوء كأنه يخبره أنه يعلم ماذا يريد.

في طريقه إلى باب البناية كان يهمس في هاتفه الصغير قائلاً:

ـ أحضرت الخمر معي والمزات يا إلهام، أديري الموسيقى وأشعلي الشموع ولنحتفل!!

* * *

ليست كل الليالي سواء..

قد تشترك الليالي في ظلمتها، في بردها، أو دفئها لكن هناك شيئًا كبيرًا إن حضر أصبحت الليالي شيئًا آخر.

شيء غاب عن قلبها الصغير منذ أعوام، شيء ما بقي منه شيء إلا هذه الأشلاء الصغيرة التي تخبئها في حذاء «البونتييه» ومايوه «اليوبار» وكولون التمرين..

شيء ترى منه ظلالاً غائمة في عيون شاهيناز مدربة الباليه في مدرسة «مصر للغات» وتحلم أن تراه في عيون عميدة معهد الباليه.

ما زال أمام يسر الكثير لتضمها إحدى الماجدتين!!

«ماجدة عز الدين»، أو «ماجدة موسى» رائدة مصر للغات.

ما زال أمامها حفلات كثيرة تؤديها، ومسابقات كثيرة تدخلها؛ لترى إحداهما إلى صدرها تضمها..

فلتنسَ عناقهما هذه الليلة، ولتكتفِ بهذا الشيء الذي أطل على ظلمة ليلتها..

الفرح!!

هل يسكنها الفرح حقًّا، أم حملته أمها معها في حقائبها يوم رحلت؟!

حصلت على بطولة السباحة، تحررت من رائحة «الكلور» التي ملأت أنفها وأنفاسها، واندست بين أنسجة جلدها، هل حقًّا هي بهذا النجاح فرحة؟!

بطرف عينيها الواسعة، نظرتْ يُسْر إلى الساعة الموضوعة على جدار غرفتها.

يجب أنْ تنام!!

نامت ليالي كثيرة طويلة في موعدها، تريد أن تبقى مستيقظة قليلاً.

تريد أن تحتفل بانتصارها وتحررها.

نهضت عن فراشها الصغير، ورفعت بيديها الصغيرتين مرتبة سريرها، وأدخلت ذراعها إلى منتصف السرير؛ لتسحب كيسًا بلاستيكيًّا، أخرجت منه كيسًا صغيرًا ورديًّا من الحرير الخالص المنقوش.

في عينيها تترقرق دمعة قاومتها بقوة.

لن تبكي هذه الليلة، هذه الليلة فقط لا تريد أن تبكي، وهي تضمه إلى صدرها.

لكن يبقى الدمع أكبر خائن تحتضنه بقوتك كلها في عينيك، ليغادرك وقت ترجوه البقاء!!

من خلف الدمعة التي سقطت على وجنتيها معلنة خيانتها لعينيها، فتحت كيس الحرير الصغير، وأخرجت قطعة الذهب الصغيرة التي تخبئها بداخلها منذ أعوام.

وضعتها في كفها، ونظرت إليها في لهفة، وشهقت شهقة بكاء كبيرة، جيوش من الدمع أعلنت عليها العصيان.

عادت تحاول أن تنظر من خلف سيوف الغادرين ورماحهم، هو قرط من الذهب كل قطعة من قطعتيه من الذهب الخالص المصبوب على هيئة حذاء «الباليرينا» تخرج منه شريطتان صغيرتان من الذهب على كل شريطة منهما حجران من الألماس الصغير، لم ترهما يفارقان أذني «أوليجا» يومًا حتى كانت تلك الليلة.

الليلة التي تغيرت بعدها كل الليالي.

كانت هنا على هذا الفراش تنام، طفلة في الثامنة من عمرها، أيقظتها أمها في الثلث الأخير من الليل، وبعد أن فتحت عينيها في ذهول، وضعت الأم كفها على فمها الصغير، وهمست في ذاك الظلام الدامس تخبرها أنها تحبها كثيرًا..

لم تفهم أبدًا، حاولت أن تحرر شفتيها من كف أمها لكنها لم تستطع، عادت تخبرها أنها سترفع كفها عن فمها فقط إن وعدتها بعدم الحديث..

أرخت جفنيها، كأنها تعدها بالصمت، في تلك اللحظة رفعته عن شفتيها، وحملتها بقوة من كلتا ذراعيها لتجلسها على حافة فراشها..

بدأ الذعر يسكنها حين رأت أمها تبكي للمرة الأولى في أعوام عمرها الثمانية آنذاك..

نظرت إليها، وأمسكت بوجهها بين كفيها الباردين، وهمست تقول:

ـ أحبك كثيرًا، بحجم ما أحببت الباليه، بحجم ما أحب وطني وأشتاق إليه، لا شيء عندي أمنحك إياه سوى وعد بأن أعود، سأعود يومًا، وأحكي لك قصتي كاملة.

لم تفتح فمها بكلمة، وكيف تفعل؟ وقد وعدت أمها بالصمت..

كانت تستمع إلى همسات أمها، وتشعر أن دخانًا كثيفًا يخرج من حروفها..

رأتها تمد أصابعها إلى أذنيها، وتخلع هذا القرط الذي ما فارق أذنيها يومًا، وضعته في كفها الصغير، وعادت تهمس:

ـ هو هدية أمي، احتفظي به، عديني أن تحتفظي به، وعديني أن تكوني صادقة مع نفسك، وحده الصدق مع النفس فيه القوة والنجاة، هل تعدينني؟!

عندما هزت رأسها بالإيجاب، ضمتها إلى صدرها، وهمست تقول: «قولي أعدك يا أمي، قوليها»!!

حين رددت كلمات عهدها لها، نهضت الأم عن فراشها، ثم عادت إليها تقول:

ـ اسمي ليس أوليجا، أنا ناتاشا بافلوف، بريئة من كل الذنوب عدا ذنب الغباء، احفظي عهدك، وسأجدك، وستعلمين الحقيقة يومًا، كما وعدتني أعدك، عودي إلى فراشك، ولا تغادري غرفتك الآن أبدًا، هل تفهمين؟!

لم تكن تفهم لكنها هزت رأسها في خوف، وانزلقت على فراشها لتُحْكِم أمها حولها الغطاء.

حين وضعت قبلة على رأسها، شعرت بدمعها يبلل جبهتها، همست عندها تقول «أحبك كثيرًا».

كان عناقها في تلك اللحظة أقوى من كل عناق أعوامهما معًا، وهمست تردد عليها:

«اسمي ناتاشا بافلوف وسأعود، في الغد القريب أعود!!».

غابت أمها في الظلام، ولم يبق منها سوى آثار دمعاتها على جبهة يُسْر، وهذا الكيس الوردي الصغير.

غابت هي أيضًا في النوم بعدها بقليل.

غابت، وعندما عادت في الصباح، علمت أن أمها ليست في المنزل، ساعدها والدها في ارتداء ملابسها، حين سألته عنها لم يجب، وعندما أعادت السؤال أخبرها أنها ستجدها عند عودتها من المدرسة..

ظنت أن هذا ما كانت تعنيه أمها عندما قالت في الغد أعود.

غد أوليجا بعيد، أبعد مما كانت تظن!!

ثمانية أعوام مرت وانقضت، وغد أمها الذي أخبرتها عنه في الظلام لم يأتِ بعد.

عند عودتها من المدرسة، كان في البيت ريح مسمومة لم تفهمها.

عنـد عودتهـا مـع أحد جيرانهـم، وجـدت غريب يجلس فـي صالة البيت، وأيضًا عمها بهجت يجلس ورأسه مُنكَّس على الأرض.

كان واضحًـا أنه غاضب وحزين، كأنهم بفأس اجتثوا رأسـه ليتدلى فوق كتفيه.

ألقت بحقيبة مدرستها، وصاحت تبحث عن أمها.

حيـن فعلـت رفع ثلاثتهـم رؤوسـهم معًا ينظـرون نحوهـا، لا أحد أجابها سوى عمها الذي قال في هدوء:

ـ ماتت أمك، وتم دفنها، وأنت في المدرسة!!

كأن الفـأس ضربـت رأسـها هـي هذه المـرة، دون وعي، أو شـعور صاحـت وركضت نحو غرفتهـا، أحضرت كيس الحريـر، وعادت إليه تبكي بكاءً مريرًا لتخرج قرط الذهب..

أمها لم تمت، كانت في غرفتها، منحتها القرط الذي لم يغادر أذنيها لحظة، ضمتها وأخبرتها أنها ستعود..

نظرت إلى عمها، وهي تنتحب قائلة:

ـ لم تمت، أنت تكذب!!

حيـن قالت تلك الكلمة، رفع كفه، وهوى به على وجهها في قسـوة لتسقط على الأرض، ويسقط قرط أمها، ويتبعثر..

ظنت والدها سيهبّ ويلطم وجه أخيه، ظنّته حتى يلومه، لكن لا أحد فعل شيئًا، وحده غريب تقدم نحوها؛ لينهض بها، وحين حاول التقاط قرط الماس، صاح العم يقول:

ـ لا تفعل، وحدها تأتي به.

استدار نحوها يأمرها أن تلتقطه من تحت حذائه.

حين تجمدت مكانها، نهض عن مقعده، وأمسك برأسها بين أصابعه، وقال في صوت هادر:

ـ سرقت أمك كل ما لديكم، وهربت مع رجل آخر، نقول إنها ماتت إكرامًا لكِ ولنا، لن يسمعك مخلوق تتحدثين عنها بعد اليوم، التقطي قرطها الملوث من الأرض، وامنحيه لغريب بيدك ليذهب الآن ويبيعه.

كانت تنظر إليه في ذهول، وهي تتلوى من ألم شعرها بين كفيه، ورغم الألم، بكت تقول:

ـ وعدتها أن أحتفظ به، إن ضاع لن أجدها، ولن تجدني..

عاد بجبروت الأرض، وبقسوة سكانها، يلوي شعرها بين ذراعيه قائلاً:

ـ تلتقطينه وتمنحينه لغريب، وتقولين «أمي ماتت».

صاحت تستغيث بوالدها قائلة:

ـ لم تمت..

شعرت بكفه يلطمها من جديد، وأشار إلى باب بيتهم قائلاً:

ـ اخرجي خلفها، ولا تعودي إذن.. لا أحد هنا يريدك!!

صدمهـا والدها حين استغاثت بـه، أخبرها أن الكلمـة لأخيه، وأن كبيرنا إن قال؛ نطيع، وإن لـم نطع؛ الموت في الانتظار!!

كان غريـب يبكـي فـي صمـت، وكان العم يكـرر عليهـا قوله، وهو يقول:

ـ الآن تختارين، الآن!!

أيـن تذهب، هي حتى لا تعرف كيف تصـل منزل مدربة الباليه، وإن وصلت هل حقًّا تحتفظ بها؟!

سـكنها خوف كبير، وكسـر بهجت بلطماته وصيحاته تلك بداخلها ما بقي من كبريائها، انحنت تلتقط القرط، ومنحته لغريب، وصاح عمها يسألها أين أمك؟!

في سكون قالت:

ـ أمي ماتت..

سقطت غائبة عن الوعي حين سمعته يطلب من غريب بيعه، والعودة بثمنه إليه!!

***

من يحب الإنسان؟! من يحب حقًّا؟!

إن وجد من يطابقه في كل صفاته أصابه الملل، وإن صادف من يضاده في كل شيء قتله الضجر!!

حين ولد عصمت، كان هو في العاشرة من العمر، كره أخاه منذ اللحظة الأولى..

في البداية كره هذا المخلوق الصغير الذي لا يكف عن الصراخ، ولا يكف والداه عن الاهتمام به وحمله وإطعامه، وحين اشتد عوده كرهه؛ لأنهما دائمًا يقفان في صفه إن بكى، ويطربان إن ضحك..

لم يأت أخوه مشابهًا له في شيء، هو على صغر سنه كان يعشق الزراعة، والركض في جمع المحاصيل..

لم يشعر يومًا أن الشمس تأكل جبهته، أو أن الجلباب الذي يرتديه كما يفعل والده ينتقص من وسامته أو هيبته، بل ما نظر إلى المرآة، أو سأل عن الوسامة يومًا!!

حين اشتد عود عصمت أصبح لصيقًا بأمه، لا يبارح ذراعيها، يردد ما يراه على شاشة التليفزيون، ويشير بأصابعه إلى شوارع القاهرة، وبيوتها ويبكي معلنًا رغبته في الحياة على أرضها..

لـم يره بهجت يرتدي الجلباب يومًا، لم يـره يحمل الفأس كما كان يفعل، مرة واحدة في طفولته ذهب إلى إحدى أراضيهم الزراعية، وكاد الجرار الزراعي أن يقتله بالخطأ..

أصابته هيسـتريا حادة من البكاء، وأقسمت أمه ألا يدخل حقلاً، ولا يحمل فأسًا بعد أن كاد يموت..

ليته مات صغيرًا قبل أن يحمل إليهم عار زواجه من الروسية البلهاء التي بكى كالأطفال مهددًا بقتل نفسه إن لم يتركوه يتزوجها..

هـل يظنه رضخ لرغبته إرضاء له؟ فعلها بهجت الغندور زهدًا فيه لا حبًّا..

حيـن فكر في الأمر، رأى أن زواجه من أجنبية قد يكون أفضل كثيرًا من مصرية تنجب له عشـرة أطفال، ثم تسـتدير لتسـكب في أذنيه حممًا عن نصيبه في أرض أبيهما وثروته..

بعـد تفكيـر، رأى أن تفكير واهتمامات الروسـية قد يكـون مختلفًا، امـرأة مـن بـلاد بعيدة لـن ترضى أبـدًا أيًّا كان فقرهـا أن تحيـا في «كفر الشيخ»!!

لكـن يبـدو أن كل النسـاء حين تقتـرب القصة من الملاييـن تتطابق صفاتهن..

حيـن أخبره أخوه بالقصة في لحظة ضعف أيضًا، وجدها في صالح عائلة الغندور لا ضدها..

امـرأة هاربة وراقصة، هـي امرأة ضعيفة لن تقف أبدًا، وتطالب بمال أو ثـروة، وإن فعلت يكفي التلويح لها من بعيد؛ لتعود كالفأر إلى جحر أطماعها، وتغلق بابه عليها في سكون..

لـم يحـب أوليجا أبـدًا حين رآهـا، ظنها تكـون أكثر انكسـارًا، كان رأسـها دومًـا مرفوعًا في كبرياء، حتى سـرقت وهربت لـم ير في عينيها دمعة واحدة..

ذاك اليـوم الذي جاءت وحدها إليه تشـكو من زوجهـا، وكيف أنها عرفت أنه لا يعمل كان يومًا فاصلاً بينه وبينها..

أخبرها في قسـوة أنه لا يصدق أنها ليسـت بالذكاء الذي توقعه فيها، لا يصدق أنها أحبت وتزوجت وعاشرت رجلاً لها منه ابنة عمرها أربعة أعوام، ولـم تكن تعلم أنه لا يعمل ولا يريد أن يعمل..

لم يكن يتصور أبدًا أن ترفع رأسها إليه وتخبره أنها تطلب منه تجهيز منزل لها هي وزوجها في قريتهم، وأنها مع عصمت سيتوليان أمر نصيبه في الأرض..

أخبرته أنها «مزارعة» وتعلم في شئون الزراعة الكثير..

جن جنونه، وفقد وعيه، وصاح في صوت مبحوح يسألها هل تعرف الزراعـة كمـا تعـرف الرقص؟! هـل تريد أن تحيـا في «دمرو» لتسـاعد زوجهـا في العمـل؟ أم تراها تخشـى افتضاح أمرها وأمـر جريمتها في المدينة الكبيرة..

في تلك اللحظة فقط، رأى في عينيها أطياف دمعة، في تلك اللحظة وحدها رأى فيهما أطياف هزيمة، ظنها خوفًا، لكن أوليجا بعد لحظات من ذهولها، انحنت تحمل حقيبتها الصغيرة، وقبل أن تغادر بيته نظرت إلى عينيه في قوة، وقالت كذئب جريح «الخطأ الوحيد أني ظننته رجلاً»..

لم تدخل بيته يومًا بعدها، ولم يقو عصمت حتى على عتابه، لكن كان واضحًا أنها أخبرته..

نقيضه في كل شيء هو أخوه، لا يقوى على مواجهة، ولا يحتمل عبء شيء، حتى الحب الذي بكى من أجله يومًا حين أصبح بيتًا ومسئولية، مات بين يديه..

هربت منه الروسية بعد أعوام، سرقت نقوده، وهربت تاركة هذه النسخة الصغيرة منها، والتي تنتسب إلى الغندور..

عصمت لا يعنيه في شيء، ولا يخيفه وجوده قيد أنملة، ما زال في جيبه نقود، وعلى بابه سيارة، هو لا يريد من الحياة شيئًا آخر..

ما أصبح يعنيه هو ابنته، ستكبر، وتتزوج، وتأتي برجل ليس كأمها، لا جريمة هو هارب منها ولا عار يكسر عنقه، ستأتيه يومًا برجل قد يكون كل ما يدفعه للزواج بها علمه بثروة أبيها، قد يجعل من نفسه بطلاً بمطالبته بثروتها وثروة أبيها، وإن لم يفعل في حياتهما، قد يقيم الدنيا ولا يقعدها على رأس فريد وحيده..

يعلـم أن ولده مثله قوي بصيـر، لكن هو لا يريد الدخول في ترهات وقصص سوداء حوله وحول اسم الغندور..

حين تبلغ الفتاة الثامنة عشر يزوجها فريد..

بهجـت أنشـأ صغيره رجلاً لا شـيء في رأسـه سـوى الحفاظ على أرضهم وعرضهم..

حين حصل على شهادة الثانوية العامة، أخبره في حسم أن لا جامعة ولا ذهاب إلى الإسكندرية..

الجامعة هنـا في دمرو، الجامعة في أراضيهم ومزارعهم السـمكية، لم يقل فريد «لا» أبدًا..

وحدها أمه قالتها..

تشبهه «قدرية» في كل شيء إلا فقرها..

اختار أن يتزوجها فقيرة معدمة لتتبعه كشـاة ضعيفة، لكن الفقر ليس كافيًا لخلق الضعفاء..

قدرية أخت لرجلين؛ أحدهما مات في محاولة للهجرة غير الشرعية على شواطئ إيطاليا، وبقيت هي الصغرى لـ»هادي» أخيها الأكبر الذي تذوب فيه حبًّا وعشقًا..

منذ تزوجها بهجت وعيناها لا تغفل لحظة، حين أخبرها أنه لا يريد سوى طفل واحد، وإن كل شيء في الحياة إن كان له شريك فسد، هزت رأسها بالموافقة، ولم تنجب سوى فريد..

حين أجرى له عصمت توكيل الإدارة والبيع والشراء وجدها تعلم..

حين أحضر غريب وجدها تعلم أنه لن يتركه؛ لأن ولده سيلتحق بطب القاهرة، يقظة دومًا وعيناها مفتوحة، لا يعيبها سوى جنونها بأخيها، عَلَّمت فريد عشق ابنته..

علمته أن يحلم بالزواج منها، ويعلم أنها تريد لأخيها الثراء، وتراه بنصيب عصمت منه أولى..

حين وقف بهجت، وأخبرهم أن فريد لن يتزوج سوى يُسْر رضخ ولده، بينما أرخت زوجته رأسها لكنه يعلم أنها لن ترضخ للأمر بسهولة..

ما زالت تجمع فريد بخديجة، ما زال يراها تشتري لها أشياء كأنها ابنتها التي تعدها للزواج..

يعلم أنه سينتصر، وأن يُسْر ستتزوج ولده، لكنه يعلم أيضًا أن الأمر لن يكون سهلاً..

لن يكون سهلاً أبدًا حتى يموت، بل يصبح أصعب بعد أن تصبح يُسْر زوجة ولدها..

المرأة التي تطابقه في صفاته تخيفه، والأخ الذي يناقضه يشقيه!!

بهجت الغندور يحمل بين أصابعه خيوطًا كثيرة، إن لم يحركها بحساب وبصيرة سقط اسم الغندور، وهو حدث إن حدث جلل وعظيم!!

فليبقَ عصمت وحده في القاهرة يعربد مع نسائه، وقناني الخمر حتى النهاية..

أخبره أنه سيزوج ابنته لوحيده عند حصولها على الثانوية العامة، ويعود بها إلى قريتهم..

تقول قدرية إن الفتاة لن تقبل، حتى إن وافق عصمت، لكن ثروة الغنادرة ستبقى لهم، وها هو يصنع من ولده غندور كبيرًا جديدًا..

غندور ليس فيه من ملامح أخيه شيء، أما الصغيرة، فهو يثق أنها منذ تلك اللحظة التي لطمها فيها على وجهها وعت الدرس جيدًا..

***

في هدوء رفعت شاهيناز مدربة الباليه كفها تشير إلى الفريق شارة انتهاء التمرين، وأمرتهم بالعودة إلى فصولهم الدراسية بعد تبديل ملابسهم..

يستعدون لإقامة الحفل السنوي، ويجب أن تخبرهم من ستختار للرقص المنفرد..

حلم كل فتاة أن يتم اختيارها لرقصة «الصولو»..

أكثر من فتاة تستحق أن تؤدي رقصة منفردة ووحدها هي تعلم أن أكثرهن استحقاقًا هي «يُسر الغندور»..

ليس أبدًا لكفاءتها فحسب، ولكن أيضًا؛ لأنها تلمس في قلبها وترًا لا يكف عن النبض كلما لمحتها عيناها حتى خارج غرفة التدريب..

منذ وفاة أمها المفاجئة من ثمانية أعوام وشيء في عيون هذه الفتاة تكسر..

ما زالت تذكر ذاك اليوم الذي غابت فيه وحادثهم والدها على هاتف المدرسة يبلغهم أنه سيأخذها إلى «كفر الشيخ» ثلاثة أيام للعزاء..

تحبها شاهيناز، تحب والدتها التي كانت تحرص على متابعة أدائها في الباليه، بل كثيرًا ما ساعدتهم في التمرين..

كانـت تخرج معها للتسـوق لبنـات الفريق، وفي إحـدى الحفلات السـنوية كانت معها في كل التمارين حتى فازت المدرسة في ذاك العام بتكريم من معهد الباليه..

عادت الصغيرة بعد الأيام الثلاثة إلى المدرسـة، وعندما ضمتها إلى صدرها، همسـت في أذنيها أنها ستكون لها أمًّا لكن الصغيرة من خلف دمعة رقصت في عينيها أخبرتها أن أوليجا ما زالت أمها وستبقى..

علمت أن والدها حارب اسـتمرارها في تمارين الباليه لكنها ذهبت إلـى بيتـه ورجته طويـلاً أن يتـرك الصغيرة تفعـل الشـيء الوحيد الذي بقي لها، تعهدت له أنه أبدًا لن يشـعر بشـيء، لن ترسل تطلب منه شراء ملابس أو أحذية..

لن تكون هناك تمارين خارج مواعيد المدرسـة، طلبت منه أيضًا ألا يخبر الصغيرة بلقائهما..

لا تريدهـا أن تشـعر أنها مميزة أو أنها تسـتثنيها عن سـواها لكن في أعماقها تفعل..

تحبها كما أحبت أمها، هي فقط تشعر أن الصغيرة لا تعرف موهبتها الحقيقية..

يُسْر باليرينا جيدة لكن موهبتها الكبيرة في صوتها، سمعتها مرة تغني أغنيـة علمتها إياها أمهـا، كانت الأغنية باللغة الروسـية، لكنها ما زالت تذكر كيف تزلزلت روحها، وهي تسمع صوتها..

ذاك اليـوم كانـت الصغيـرة تجلس وحدها فـي قاعة تدريـب الباليه تنتظر وباقي الفريق..

لم تشعر بها حين دخلت، كانت تغني تلك الأغنية..

لن تنسـى أبدًا أنها تذكـرت ما يقال عن «مزاميـر داوود»، وارتباطها بالصوت البالغ الحسن..

حاولت كثيرًا مع أوليجا، ومع يُسْر نفسها أن تضمها إلى فريق الغناء، لكن كلتيهما رفضت..

كلتاهمـا بالباليه مجنونـة، الأم لأنها يومًا كانت تمارسـه والصغيرة؛ لأنها تشعر أنها تحقق حلم أمها الحاضرة يوم كانت والغائبة يوم ماتت..

اعتدلت من جلسـتها وصاحت تناديها، حيـن رأتها تعبر الباب نحو فصلها بعد أن بدلت ملابسها وحين عادت تقف أمامها اعتدلت قائلة:

ـ سترقصين «صولو» في حفل هذا العام، لكن أتمنى عليك لو تغنين أغنية واحدة فقط في الحفل هل توافقين؟!

كانت الفتاة تنظر إليها في ذهول، وقد تجمدت كل أوصالها وكانت معلمتها ترقبها في ذهول أكبر..

لا تصـدق أنهـا أعلنت لها القرار، بـل لا تصدق أنهـا أخذته، كانت تنتظـر ردها على طلبهـا لها بالغناء، وعادت تنظر إلـى وجهها الجميل، إلى عينيها الرمادية، وشـعرِها الأحمر الطويل الذي يقف على منتصف ظهرها، وأنفِها الدقيقِ وشفتيها الصغيرتين..

كل شيء في وجهها يبدو كأنه تجمد..

لا تصـدق أبدًا أنها من سـترقص الرقصة المنفـردة، حفل هذا العام كبير، ويتم نقله على شاشة التليفزيون ضمن عروض الأوبرا..

لا تصدق أنها تخلصت من عبء السباحة، وأيضًا نالت حلم عمرها بالرقص منفردة في حفل كهذا..

نظرت إلى مدربتها، ودمعة ترقص في مآقيها، وقالت:

ـ أغني.. بل أغني ألف أغنية إن شئتِ!!

***

نهضت إلهام عن صدره العاري، تُطلق إحدى ضحكاتها الصاخبة، واعتدل في فراشه يرقبها تضع جسدها العاري في روب لكثرة نقوشه لا تتبين لونه الحقيقي..

استدارت وهي ما زالت عارية تخبره أنها ستقوم بإعداد وجبة العشاء، بينما يأخذ حمامه ويرتدي ملابسه، إلا أنه قال ضاحكًا:

ـ احضري الطعام هنا في الفراش، ما زال لدينا حديث نكمله قبل الاستحمام..

ضحكة أخرى ماجنة أطلقتها، وهي تغادر الغرفة، لماذا يصر على أن يأخذها أكثر من مرة مستعينًا بالمنشطات الجنسية..

ما زالت بعد خمسة أعوام لا تفهم عصمت أبدًا، لكن من قال أنها تريد أن تفهمه..

هو يمنحها ما يكفيها، ويأخذ منها ما يكفيه، وهذا وحده يكفي..

باتت حقًّا تخشى عليه من إفراطه في تدخين الحشيش ومنشطات الجنس، إلا إنه لا يسمح لها أبدًا بنقاشه..

حين غابت عن عينيه، مد ذراعه، وأخرج لفائف حشيشه، ووضع إحداها داخل فمه مبتسمًا في مرارة..

بدأ الملل يسكن أوصاله من إلهام، يريد أن يستبدلها لكنه يخجل منها، لا تدخر جهدًا من أجل إسعاده وإرضائه، بل إن أجمل ما فيها أنها المرأة الوحيدة التي بقيت معه خمسة أعوام دون سؤال واحد..

لن ينفيها، سيخبرها فقط أن تأتيه أيام الآحاد بينما يجعل الثلاثاء لأخرى سواها..

النساء كالعصير، إن كان عليك أن تشرب عصيرًا ما ومللته فلتخلطه بنكهة أخرى لتطيق ابتلاعه ما دمت لا تملك الانقطاع عنه..

لا امرأة اكتفى بها وكان يراها الأرض والسماء إلا أوليجا!!

لماذا لا تأتي ذكراها على رأسه لحظة إلا وشعر بدمعة ترقص في عينيه..

امرأة تكلفك كثيرًا، هي امرأة تحيا في قلبك طويلاً!!

لا امرأة قدم فيها ما يملك، وما لا يملك سواها، لكن أيضًا امرأة تقدم لها كل شيء وحدها تصبح في عينيها لا شيء!!

ما زال يذكر كيف التقاها في ذاك المقهى في أول عام بعد تخرجه في الجامعة وانتهاء فترة تجنيده في الخدمة العسكرية..

كانت تجلس على المقعد المجاور لمقعده تحتسي كوبًا من القهوة الساخنة، وكان يجلس وحيدًا يفكر كيف يخبر بهجت بعد انقضاء الخدمة العسكرية أنه لن يعود إلى القرية، وأنه إن خرج بعيدًا عن زحام القاهرة يموت..

رآها تُخرج من جيب معطفها نقودًا لساقي المكان، وعلا صوتها في إنجليزية ركيكة تصيح أنه يجب عليه أن يمنحها باقي نقودها..

نهض عن مقعده، وذهب إليها، وفي أدب جم تدخل لفض الموضوع..

الساقي كان يسرقها، أخذ منها ورقة مالية من فئة الخمسين جنيهًا، ومنحها ورقة من فئة عشرة جنيهات نظير فنجان القهوة..

حين أخبرها أنه سيصل بالقصة إلى صاحب المقهى، نظرت إلى الساقي في إشفاق، طلبت منه ألا يفعل، وأنها ستكتفي بقبول اعتذاره وعرضه بأن يدفع ثمن مشروبها، وإعادة ورقتها المالية كاملة لها..

في طريقها إلى الخروج، سألها لماذا صفحت عنه؟!

ابتسمت ابتسامة صغيرة جدًّا تقول إنها فعلت لأنها ليست أفضل منه..

«الجميع يا صديقي أصبحوا لصوصًا»!!

حين رآها تخطو خارج المقهى شعر أن شيئًا منه غادره ليتبعها، شيئًا يريد استعادته..

ذهب خلفها ليستعيد جزءًا منه، فمنحها كل أجزائه الباقية، وحتى اللحظة ما استعاد شيئًا..

أخبرته أنها جاءت مع إحدى فرق الباليه لتقديم عروض على مسرح الأوبرا ومعهد الباليه المصري، علم أنها فقيرة وحيدة لا تملك سوى حبها لخشبة المسرح، وعشقها لمصر وسكانها..

لم تكن زيارتها الأولى لكنها كانت الأخيرة..

وقعا في العشق الأحمق الذي يجعلك تظن أن الحياة كلها في بقاء من تحب معك..

ذهب إلى عروض الباليه، شاهدها وهي ترقص كالفراشة على المسرح، رأى كيف يحملها زميلها على أحد كتفيه، وكيف تقف عليه بساق واحدة على أطراف أصابعها، بينما ترفع ساقها الأخرى في الهواء عاليًا، ثم تهبط عن كتفيه لتكمل رقصتها في ثبات..

رأى كيف يصفق لها الجمهور، وكيف تنحني، ثم تستدير على أطراف أصابع قدميها، وتغيب مع أعضاء الفريق خلف الكواليس، ورغم هذا تبقى محفورة في جفنيه كأنها من شرايين عينيه خُلقت.

حين قارب الشهر على الانتهاء، وحانت عودتها إلى بلادها، وفي ليلة سفرها اصطحبها إلى العشاء في أحد المطاعم الهادئة في منطقة مصر الجديدة..

سألها متى تعود؟!

أخبرته في تردد أنها لا تعلم، هي أفقر من أن تتمكن من العودة وحدها وعلى حسابها الشخصي.

رفعت عينيها كأنها تستغيث به وترجوه أن يطلب منها البقاء، أو كأنها تود قول شيء كبير لكنها آثرت ابتلاعه في جوفها..

أرخى عينيه في ألم، يتمنى لو يكورها بأكملها ويضعها في جيب معطفه حتى تغادر طائرة الفرقة الحدود المصرية، لكنه خائف.

ما زال بداخله يكره تقلبها بين أذرع الراقصين..

ما زال بعقله يرفض ثياب رقصها التي تكشف عن كل قطعة في جسدها..

ما زال في أعماقه صوت ضخم يزلزل أوصاله يخبره أن بهجت الغندور يقتله ويقتلها إن أخبره بوجودها في خارطة أيامه..

وضع في فمها قطعة صغيرة من اللحم، وقال هامسًا:

ـ لا أريدك أن تتركيني..

شعر بها تمضغ ما منحها مخلوطًا بدمعها، وأشاحت بوجهها بعيدًا، وهي تسأله:

ـ كيف نحب؟ ومتى نحب؟ ولماذا؟!

عاد الغندور الصغير يبتسم..

حمقاء أوليجا، أحمق هو كل من ظن أن لهذه الأسئلة إجابات، وأن الحب يبقى حبًّا إن استطعنا الإجابة عليها..

التقط كفها في تلك اللحظة، ونهض بها عن الطاولة تاركين طعامًا لم يكملاه، وخرج بها إلى هذا المكان..

كان مكتب المحاماة هذا سكنه..

جاء بها إليه للمرة الأولى، كانت أضعف من أن تقول لا أو ربما ظن أن الروسيات لا يقلن «لا» أبدًا..

في صالة هذا البيت أخبرها أنه يريدها أن تتنفس كثيرًا ليجد أنفاسها بعد رحيلها حوله..

وقفت تنظر حولها في سكون وسقطت دمعات صغيرة من عينيها، كان شعرها مجموعًا كعادته فوق رأسها وللمرة الأولى وجد نفسه يسأل عن طوله وملمسه..

شهر التقيا فيه كثيرًا لم يلمس شيئًا منها سوى كفيها بأصابعه أو شفتيه..

رآها تقترب منه في هدوء لتلقي رأسها على صدره وتدفن فيه عينيها وشفتيها، بالكاد كان يفهم كلماتها الإنجليزية المتقطعة..

رغم قلة الجمل التي قالتها إلا أنه كان يشتم فيها حرائق صدق وشوق، عندما نحب تصبح أكاذيب من نحبهم وحيًا منزلاً لا نشك في حرف من حروفه..

عندما نحب، نراهم ملائكة أرسلتهم السماء إلى أرض أيامنا ليعلمونا كيف تهبط الجنة على الأرض!!

عندما نفيق ويغيب الحب، نتذكر ذات الجمل، ونضحك خجلاً من أنفسنا، كل الكلمات إن غاب شيطان الحب نراها كانت أكاذيب وفقاعات..

عندما نحب!!

المعجزة الحقيقة أن نحب، المعجزة الكبرى أن نصبح عشاقًا!! ماذا كانت كلماتها في تلك الليلة، قالت من بين دمعاتها:

ـ أسافر مع الفرقة كثيرًا، تجولت في معظم عواصم الأرض، تعلمت أن للغريب الزائر رائحة مختلفة تلتف حولها الأنوف، ويكثر معها فحيح الوعود، وصوت الأيمَان لكن بعد شهور، بعد أعوام يعود الزائر غريبًا، وتنفض من حوله الوجوه وتعود إلى سكان أرضها مشيحة عنها بوجهها..

تألمتُ كثيرًا لكن معك، معك وحدك أشعر أني لست زائرة، وأنك أبدًا لست صيادًا، كأني على هذه الأرض ولدت، وبين هاتين الذراعين أريد الموت!!

ضمها في قوة حين أتت باسم الموت على شفتيها..

في الحب موت الحبيب أو رحيله هو موتك ومن ذا منا يريد أن يموت!!

أخبرها أن كثيرات مررن في حياته، وعلى جسده وقلبه، أخبرها في صدق أنه لا يعلم كيف سكنته وكيف لا يريدها أن تغادر سكناها..

كانت تستمع إلى كلماته، وتحاول أن تفهم كل حرف ينطق به، شعر بها تحبس أنفاسها وتكتم خلجاتها لتسمعه..

أبعدها في رفق عن صدره، وفك مشابك شعرها ليسقط للمرة الأولى على كتفيها، ناعم غزير كشعر يُسر اليوم، في حنان وضع أصابعه يمشط خصلاته..

أخبرها أنه ليس مفتونًا برقصها ولا جسدها، ليس أبدًا مسكونًا برائحة بلادها البعيدة أو خضرة عينيها..

هـو فقـط يراها منـه خرجت يومًـا، وإليه عـادت فكيـف إذن يتركها تسافر وتغيب؟!

وحدهـا ألقـت برأسـها علـى كتفيه من جديـد، ووحـده أبعدها عن صدره مرة أخرى ليقبلها قبلة طويلة لا يعلم كم طالت، أفاق منها، وهي عارية على هذا الفراش على صدره تنام..

أفاق مذهولاً كالمجنون حين وجدها عذراء..

لا يصـدق أن راقصة أجنبية جابت الأرض ما زالت عذراء، وتختاره هو ليلة رحيلها ليكون رجلها الأول..

في لحظة اسـتيقظ الفلاح في عروقه، في لحظة تجسد والده بعباءته أمام عينيه..

أخبرهـا أنه لن يتخلى عنها، وضحكت ضحكة صغيرة حزينة تخبره أنها سعيدة؛ لأنها حفظت نفسها ليكون هو رجلها الأول..

وأعقب يقول «بل الأخير»..

في لحظة، دفنت أوليجا وجهها في صدره العاري، وأخبرته الحقيقة كاملـة، أخبرته أنها معدمة، نشـأت في أحد ملاجئ منطقة «أوبلاسـت» الفقيرة..

أخبروهـا أنها لقيطـة، وجدوها، وفي أذنيها قـرط من ذهب وماس، قامت إحدى النساء بتبنيها بعد زمن، وإلحاقها بمدرسة لتعلم الباليه..

اكتفت السيدة بالإنفاق عليها، واستقبالها في الإجازات الرسمية في بيتها..

حين أنهت تعليمها الثانوي، أصبحت راقصة في إحدى الفرق الصغيرة للباليه، وأصبحت السيدة عجوزًا تحتاج إلى رعاية..

تركها ولدها، وهاجر بعيدًا عن البلاد، وبقيت هي واقفة على أطراف أصابعها في عروض الباليه وفي خدمة السيدة..

لن ينسى أبدًا كيف نظرت أوليجا إلى شارة عذريتها لحظة، ثم نظرت إليه لتقول «منحتك جسدي فكيف لا أمنحك الحقيقة».

عندما أكملت حديثها أخبرته أنها اضطرت للغياب عن البيت أيامًا، عادت بعدها لتجد المرأة، وقد تدهورت حالتها كثيرًا..

كانت أوليجا مجهدة متعبة من السفر والعروض، وكانت السيدة دومًا تشعرها أن خدمتها لها ليست حنانًا أو طيبة، بل هي واجب وسداد دين كبير..

في إحدى تلك الليالي خرجت أوليجا وتركتها، أخبرته أنها شعرت برغبة كبيرة في الهرب، ما عادت تحتمل صياح المرأة، وأوامرها التي لا تنتهي..

هامت على وجهها ساعات، وحادثت بعدها مدير فرقة الباليه التي تعمل فيها، أخبرها أنه يبحث عنها؛ لأنه سيحضر إلى مصر لتقديم عرض كبير ويريدها معهم..

بعد أن منحته كلمتها عادت إلى البيت، عادت وقد حزمت أمرها على جمع كل متعلقاتها، ستخبر المرأة أنها ستغادرها وإلى الأبد، ليست جاحدة لكنها تثق أن خدمتها لها طيلة هذه الأعوام كفيلة بسداد فاتورة ديونها..

شيء في صدرها كان خجلاً منها، ومن قرارها، لكن شيئًا أكبر في رأسها، وعروقها يطالبها بالنجاة بنفسها.

حين وصلت البيت وجدتها نائمة أو هكذا ظنت عندما وجدت غرفتها مغلقة، وفي الظلام غارقة..

أخبرته أنها وجدتها فرصة من السماء لتحزم أمتعتها دون صراخ أو سباب، أخبرته أنه في اللحظة التي غادرت فيها الغرفة الصغيرة التي منحتها إياها تسحب في يدها حقيبة ملابسها فوجئت بالسيدة تترنح في صالة البيت الضيقة ورأسها غارق في الدماء..

ألقت المرأة بجسدها على جسد أوليجا، وسقطت ميتة كأنها انتظرتها لتموت على كتفيها!! أخبرته أنها كانت تصيح في هلع لا تعلم ولا تفهم شيئًا..

كانت تخشى أن يكون القاتل في غرفة نومها وكانت تخشى أن تتركها..

حين أزاحت عنها جسدها علمت أن المرأة ماتت..

بطرف عينيها تسللت بالنظر إلى غرفة نومها التي كان بابها مفتوحًا على مصراعيه وضوئها مشتعل..

بكت تخبره أنها لا تعلم أبدًا لِمَ فتحت خزانة ملابس السيدة حيث تعلم أنها تضع نقودها، ربما أرادت أن تقنع نفسها أن من قتلها قام بسرقتها..

نكست رأسها في ألم، وهي تعترف أنها وجدت بعضًا من النقود في مكانها، أخبرته أنها وضعت النقود في جيب معطفها، رغم علمها أن ما كان لدى السيدة أكثر بكثير، ولكن يبدو أن السارق ترك تلك الوريقات لإنفاء غرض السرقة.. عادت إلى صالة البيت تحاول التأكد أن كانت السيدة ما زالت على قيد الحياة لتطلب لها المساعدة.

«عيناها المفتوحة، ونبضها الغائب، وجسدها البارد أكدوا لي أنها ماتت، انطلقت كالمذعورة خارج البيت تاركة خلفي حقيبة ملابسي والباب مفتوحًا، ظننت أني أفعل يا عصمت لأحضر الشرطة، أو أعلم الجيران، لكن كان الذعر يدب في أوصالي، ووجدتني دون وعي أو تفسير أذهب إلى مدير فرقة الباليه».

بعينيها المغسولة بالدم والدمع أخبرته أنها سقطت على بابه، وحين فتح لها وأخبرته القصة أخبرها أن الشكوك ستدور حولها، حين تذكرت النقود التي في جيبها، زاد خوفها وحين جاء الصباح، علموا من وسائل الإعلام أنها متهمة بقتل المرأة، وجار البحث عنها..

أخذ مدير الفرقة كل النقود التي في جيبها، واستخرج لها جواز سفر مزور باسم «أوليجا باريشينكوف» وجاءت إلى مصر..

أخبرته في ضحكة مريرة أنه اشترط عليها أن ترقص في الحفلات التي قدمت عروضها..

هاربة بجواز سفر مزور، ومتهمة بالقتل هي حقيقتها!!

حين سألها، وكيف تنوي السفر في الغد، أخبرته أنها ليست مسافرة..

دبر لها مدير الفرقة سكن صغير في مدينة الإسكندرية، لكنها لا تريد أن تتركه، أخبرته أنها لا تريد منه شيئًا، هي فقط أسقطت عن صدرها سرها الأسود بالبوح له..

كانت تبكي في صدق، وكان يصدقها في جنون، شَعر أنه عنها مسئول، أخبرها أنها لن تبرح البيت، وأنه في الصباح يتزوجها..

«ليس إشفاقًا أوليجا، بل هو حب وإيمان بكِ»!!

تلك الكلمات جعلتها تبكي من جديد، وكان ذاك بكاءها الأخير، لم يرها تبكي بعدها مرة واحدة!!

في الصباح تزوجها، قبل أن توقع العقد أخبرته أن من يتزوجها على الورق ليست هي وأخبرها أنها هي من يتزوجها أمام الله، وحده الله والضمير والنوايا أهم من الورق!!

أسبوع بعد زواجهما لم يفارقا باب هذا المكان..

أسبوع منحته ومنحها فيه ما لم يُقَدّر لرجل أو امرأة على الأرض أن يعلما بوجوده..

كان يـذوب في عروقها كل صباح، وكانت تتلاشـى في أنفاسـه كل ليلة.

فـي كل دقيقة من دقائق ذاك الأسـبوع، كان يـزداد إيمانًا بها، وبقرار زواجه منها..

أخبرته أنها تشـعر أن كل شـيء دبرته السـماء حتى موت المرأة بين ذراعيها فقط لتلتقيه وتشعر أنه يستحق ما دفعت فيه من ألـم وخوف.

أفاق بعد نهاية الأسـبوع على نفاد نقـوده، وعلـم أنه يجب أن يذهب ليفاتح أخاه في القصة، ويتسلـم راتبه الشهري منه..

كان يعلـم أن كل خطب الأرض وقصائدها لن تجعل الغندور الكبير يهتز له جفن أو يغير له رأيًا لكنه حسم أمره..

أعد مرافعة كبيرة ارتكز فيها على وصية أمه به لأخيه، أدرج بها وعودًا كبيرة عن اعتزالها الرقص وارتدائها الحجاب واعتناقها الإسلام..

استشـهد فيهـا بآيـات وأحاديـث عـن فضـل الـزواج، وسـتر أنثى، وتحويـل مسـار حياتهـا إلـى بيـت وزوج وعائلـة عوضًـا عـن مسـرح وموسيقى ورقص..

مـا زال يذكر مفردات خطبتـه جميعها إلا أنه حيـن جلس أمام أخيه وأكواب الشـاي السـوداء بعد طعام الغداء لم يجد حرفًا يقول، هو حقًّا محام فاشل!!

بكى بكاء حادًّا حارًّا كالأطفال حتى ارتجفت أوصاله..

بكى وحين حاول أن يلتقط أنفاسه، ويبحث عن سر بكائه سمع الغندور الكبير يقول في هدوء:

ـ ظننتك جئت تعلن عودتك إلى أرضك بعد انتهاء التجنيد، أو تطلب من قدرية أن تجد لك عروسًا من عائلة طيبة فماذا لديك؟!

لم يحاول أن يهدئه، لم يحاول حتى أن يرسم القلق على وجهه، لكن متى كان الغندور يقلق أو يحنو..

بعد لحظات صمت طويلة، وبعد محاولات عقيمة لاستعادة جملة أو حرف من خطبته الطويلة، لم يجد ما يقول سوى أنه عاشق ويريد مباركته..

أخبره عن فقرها وجنسيتها وضعفها، أخبره عنها كل شيء حتى جريمتها وهربها وختم حديثه بالاعتراف الأكبر، تزوج هو أوليجا وانقضى الأمر، بل أردف كاذبًا أنها حامل، وما عاد الرجوع أمرًا يسيرًا!!

بعد أن أطرق أخوه برأسه لحظات عاد يرفع رأسه في قوة يخبره أنه يعلم أنه ما عاد صغيرًا، وأن بإمكانه أن يفعل ما يريد، ثم قال في حسم:

ـ نحن لا نُشفي المجانين، ولا نهدي الضالين، بل نتركهم حتى يثوبوا إلى رشدهم وحدهم، افعل ما شئت لكن لن أتركك تعبث بأرض أبيك وأمك ما حييت..

فغر عصمت فاه من الدهشة لحظتها..

كان الأمر أسهل مما يتوقع، الأرض وحدها ما يخشى عليه والأرض وحدها آخر ما يفكر هو في أمره..

في الصباح التالي نفذ ما طلبه أخوه، توكيل رسمي عام بالبيع والتصرف لنفسه وللغير

فليفعل بالأرض ما شاء، يثق أن أخاه يبيع روحه قبل بيع شبر واحد من أرضهم..

في الصباح التالي وبعد التوكيل الذي وضعه في يد أخيه طار إلى زوجته وحملها بين ذراعيه قائلاً:

«فلننجب طفلاً له ملامحك»!!

* * *

تأخرت إلهام في إعداد الطعام، نزف الذكريات أكبر من لفائف الحشيش هذه الليلة..

تململ الغندور الصغير في فراشه، ونهض عنه ليضع جسده العاري في روب أسود كان ملقى على حافة الفراش، وخرج إلى المطبخ يتعجلها..

وجدها تجلس في صالة البيت الواسعة على ذات المقعد الذي كانت أوليجا تحب الجلوس عليه قبل انتقالهم إلى شقة الدقي..

ابتسم في مرارة، وصاح يسألها عن الطعام، واستدارت إليه تخبره أن ما زال أمامه نصف ساعة ثم أردفت في دلال:

ـ لم أرد الدخول إليك، وملابسي تعج برائحة الطبخ..

هو أيضًا لا يريد أن يشم رائحة الطبخ..

كان لطعام زوجته رائحة أخرى، اشتاق إلى رائحة خبز «الجودار» اشتاق إلى وجبة «أوخا» و«بليني» التي كانت تعدهم مساء كل جمعة..

مر من جوار إلهام، وخرج إلى شرفة الصالة الكبيرة، ألقى بجسده على مقعد البامبو القديم، وأخذ يطل على ميدان طلعت حرب..

كان شيطان الحب مهيمنًا على رأسيهما..

كأن الأرض اشتعلت بقناديل من نور ونار في لحظة..

أخذها إلى الإسكندرية في شقة العائلة المطلة على بحر المنتزه بعد استئذان أخيه..

سبع ليال قضياها هناك كأنها أسطورة من أساطير الإغريق القديمة..

في طريق عودتهم إلى القاهرة عرج بها إلى «دمرو» كفر الشيخ، أخبرها أن تضع شيئًا تغطي به رأسها، وفعلت دونما اهتمام..

في بيت الغندور الكبير، انحنى أمامها يقبل يد أخيه الذي لم ينهض عن مقعده لمصافحة العروس..

انحنت أوليجا تقبل رأسه هي الأخرى ودججها بنظرة غاضبة مستنكرة.

أطلت قدرية وولدها وشعرت ألا أحد يحبها، واقتربت من زوجها تلتصق به كأنها قطة خائفة.

كان يظن أنهم يبيتون ليلتهم هناك لكن كان واضحًا أن كل سكان المنزل يتعجلون رحيلهم.

وضع الغندور الكبير في يده مظروفًا به نقود، وأخبره أنه سيرسل له سائق ليكون في خدمة زوجته متكفلاً هو براتبه وسكنه.

«لك عندي مبلغ شهري يكفيكما، فأنا أعلم أنك ما زلت دون قضايا ودون عمل»!!

هي أيضًا شعر بها تختنق وتتعجل الرحيل.

في طريق العودة، أخبرها بقصة السائق، والمبلغ الشهري، امتعض وجهها قليلاً، لكنه أمسك بكفها يضع عليه قبلة، ويخبرها أن أخاه لا يتصدق عليه، هو ماله وإرثه الكبير..

كل شيء في حياته معها يؤكد صحة قرارهما..

تلك السعادة، ذاك الوهج، مولد يُسْر.

متى بدأ يخبو كل شيء؟ متى اكتفى شيطان الحب منهما، ومن التجول في عروقهما؟! متى أصبحت تعيسة؟!

حين زاد التصاقها بابنتها، حين أصبحت أكثر صمتًا ووجومًا، حين بدأت تسأله متى يعمل؟ ومتى حقًّا يصبح محاميًا؟!

لا مشكلة في النقود، لا مشكلة في شيء أبدًا، سيارة جديدة و«غريب» كالعبد الأخرس يعمل دون ملل، طفلة جميلة رقيقة.

أتقنت اللغة العربية، ورغم هذا عَلّمت صغيرتها كثيرًا من مفردات الروسية.

ما زال حقًّا لا يذكر متى بدأت النهاية.

حين تصمت الزوجة، حين تهجر فراشها، وتغفو إلى جوار ابنتها، حين يزداد نفور المرأة من زوجها يزداد التصاقها بأبنائها.

لم يفهم لكنه بدأ يرى في عينيها دمعة متحجرة، بدأ يطل من عينيها شعاع احتقار كبير له..

كثيرًا ما كان يعود ليجدها في غرفتها ترتدي ثياب الباليه القديمة وترقص مع ابنتها.

لم يكن في البداية يعترض لكنه مع الوقت، ومع العام الرابع من عمر ابنته، بدأ يصيح ويأمرها ألا تزرع في رأس ابنته قصة ماضيها القديمة.

بدأ الاثنان يتنازعان الصغيرة، هو يأخذها إلى تمارين السباحة وأوليجا ترقص بها في البيت، وفي معهد الباليه والمدرسة، أصبحت هناك حرب شرسة غير معلنة بينهما حتى جاء اليوم الذي وجدها تنتظره فيه في فراشه لتعلن أنها تريد العودة إلى الباليه.

ظنها تمزح لكنها لم تكن.

صرخ ورفض، هدد وتوعد.

ذهبت المجنونة دون أن يعلم إلى «دمرو»، ذهبت إلى الغندور الكبير تخبره أنها ما عادت تطيق الحياة مع رجل لا يعمل، أخبرته أنها لم تعد تستطيع أبدًا أن تقاوم رغبتها في العودة إلى عملها..

جن الغندور الكبير.

كان قاسيًا عليها، أخبرها أنها تزوجت أخاه، وهي تعلم أنه لا يعمل، ويعتمد على ثروة والده وقيام أخيه عليها، أخبرها أنها إن عادت إلى عملها كراقصة فوحده من ينتقم منها ويمزقها ويحرمها ابنتها.

لم ينس أبدًا أن يسألها كيف ترقص وهي هاربة من جريمة، لم ينس أبدًا أن يتهكم متسائلاً إن كان حكم بالبراءة صدر، أم أنها نسيت أن زوجها الذي جاءت تشكوه وحده من الإعدام أو السجن أنقذها..

حين عادت في تلك الليلة، وبعد أن قصت عليه كل ما دار بينها وبين الغندور الكبير يذكر جيدًا أنها اختتمت حديثها قائلة:

ـ هي السقطة الثانية عصمت، الأولى كانت حين ارتضيت أن تحيا بلا عمل، وسقطت اليوم حين علمت أنك لم تحتفظ في صدرك بسرّ لم أخبر به سواك، سقطة أخرى وتموت رغم أني أراك في أنفاسك الأخيرة.

لم يهتم بما قالت، وإن شعر بشيء من الغضب مما فعله أخوه، لم يصدقها، أين تذهب؟! هي كما أخبرته يومًا وحيدة هاربة ضالة..

كان يعلم أنها تتألم، لكنه كان يراها وحدها من تبحث عن الألم، ماذا يضيرها إن كان لا يعمل ما دام يوفر لها بيتًا وسائقًا ونقودًا، ماذا يدفعها للمغامرة والعودة إلى الرقص، وهي التي تنام كيف شاءت وتصحو متى أرادت..

كان يرى حزنها تمردًا، ونظراتها جحودًا كبيرًا، ونكران جميل!!

ضاع الحب حقًّا حين صدق هو أنه كان إحسانًا وصنيعًا عليها أن تشكره عليه!!

امتنعت عنه تمامًا، وفي إحدى تلك المرات التي حاول الوصول إلى جسدها دفعت كفه بعيدًا عنها وقالت في ألم:

ـ احتاج استعادة احترامي لك أكثر من استعادة حبي وتوهجي.

جرحته الكلمة، بل ضربته في مقتل..

بعد مناقشات، اشترى له الغندور الكبير شقة الدقي، وانتقلا إليها ليتحول هذا المكان إلى مكتب..

أخبرها أنه سيمارس المحاماة، أخبرها في مرارة أنه يفعل؛ لأنه يريد احترامها، ويفتقد غرامها وتوهجها..

النساء مجنونات حقًّا..

في لحظة، وبعد انتقالهم وخروجه إلى المكتب، عادت رائحة خبز الجودار تملأ البيت، وعادت تنتظره في الليل وتحتضنه إلى صدرها، وتسقيه من جسدها..

لكن شيئًا ما تغير بداخله، كان يشعر أنه حب مشروط مدفوع الأجر..

هي تفعل؛ لأنه وعدها بالعمل، ولم يستطع أبدًا أن يعمل.

العمل ملل كبير، محاكم في الصباح وعملاء كاذبون ومجرمون في المساء..

عصمت لا يريد هذا الألم ولا يحتاجه، بل شعر أنه ما عاد يريد منها احترامًا ولا يحتاج حنانًا..

خداع زوجة هو أعظم وأصعب من خداع أمة بأكملها، بدأ يعربد مع النساء ويوهمها أنه يعمل..

كان حريصًا إلى أبعد الحدود لكن شعر أنها تعلم..

وحدها تركت غرفتها، وعـادت إلى فراش ابنتها من جديد، وحدها عزفـت عـن خبز الجودار، ولمـس العطور حتى كانت تلـك الليلة التي عاد فيها من إحدى سهراته ليجدها في انتظاره.

كانت تجلس على مقعد في غرفة نومهما التي خلت منها.

حين دخل وأشعل الضوء نظرت إليه وقالت:

ـ أنت تكذب وهي السقطة الثالثة والأخيرة!!

غريب هو شأنك مع زوجتك..

تزهدهـا، تخونها، لكـن تكره تمامًا أن تطلـب الرحيل، أو تواجهك بمعرفتها بالحقيقة..

حاول الإنكار لكنه اعترف، حاول اتهامها بأنها السـبب لكنه رجاها أن تصفح..

في طريقها إلى غرفة ابنتها أخبرته ألا عودة..

كأن السماء وحدها تكفلت بغزل الفصل الأخير..

في الصباح التالي لتلك الليلة الدامية سـقط وحيد غريب في حادث الجامعـة، ورأى امـرأة أخـرى غيـر باكية الأمـس، أخرى غير الفراشـة الراقصة التي عاشرها زمنًا..

رأى أوليجا جديدة تركض مع غريب إلى المستشـفيات، وتتابع مع يُسـر دروسـها، وتمارين الباليه وتمضي السـاعات تتحدث في الهاتف عن إشعال حرائق في قضية عبدالرحمن..

حـاول كثيرًا أن ينهرها لكنها حتى لم تعـره إنصاتًا أو اهتمامًا، بقيت عنيدة صامدة حتى موت عبدالرحمن وفي لحظة أخرى انطفأ كل شيء.

حيـن أغلقـوا القضيـة، وقلبـوا الأوراق، وأعـادوا توزيـع التهـم والمسـئوليات، وحيـن تحـول كالعـادة غريـب وولده مـن ضحايا إلى متهمين، قال لها متهكمًا:

«أخبرتك أن تبتعدي، هذه هي مصر يا أوليجا».

لـن ينسـى أبدًا تلك الجملة التـي قذفتها في قلبه قبـل أن تختفي من حياته وحياة ابنته..

نظرت إليه أوليجا بعد جملته تلك وقالت:

«ظننت مصر عنك تختلف»!!

هَمَّ تلك اللحظة بلطمها، لكنه تراجع فعلى وجهها كان يأس أسود أكثر قوة وشراسة من كلماته وكلماتها، وكانت تلك آخر كلمات سمعها منها..

في الصباح، علم أنها هربت، وتركت كل شيء حتى ابنتها..

كان يعلم منذ البداية أنها يومًا لن تهرب بها، وهي الهاربة التي تحمل اسمًا غير اسمها..

سرقته، وغابت، وبقيت الذكرى تشعل في ضلوعه حريقًا كل ليلة..

اسـتعاد توازنه بعد أيام من رحيلها ليصبح رجلين في جسـد واحد، يأتي هنا ويقيم سـهراته وجلسـات القمار والخمر والنسـاء، ويغادر في الرابعـة أو الخامسـة صباحًـا ليأخذ ابنته إلـى تمارين السـباحة، ثم إلى

المدرســة، ويعود لينام حتى موعد عودتهــا، ويتناولان معًا طعام الغداء مع كلمات قليلة..

يُسْر هي الأخرى قطعة من تلك الجبارة الصامتة، يأخذها عصرًا إلى مزيد من التمارين على أن يعود بها إلى البيت قبل الثامنة لتنهي فروضها المدرسية وتنام..

لم يضحكا يومًا معا!!

لا هو يعـرف كيف خارج هذا المكان يضحك؟ ولا ابنته بعد رحيل أمها يومًا رآها تفعل..

الأخطاء الصغيرة دومًا تنجب خطايا بحجم الروح والقلب، سقوطه في حب أوليجا كان خطأ صغيرًا، لكن تمسـكه بها وإنجابه منها خطيئة قتلت فيه الروح والقلب..

استعاد عصمت نفســه على صوت أبواق السيارات ونظر إلى تمثال طلعت حرب..

ما زال يذكر كيف كانت ترقص حوله عند عودتهما في المســاء على أطراف أصابعها في حركات سريعة..

كان كل شــيء تفعلـه يسـعد قلبـه، ويرسـم علـى روحـه ضحكـة، وأصبحـت نفس أفعالها تثير في رأسـه غضبًا واشـمئزازًا، هو الحب إن غاب وإن حضر..

كل امرأة بعدها ليست مثلها، وكل ليلة تأتي كليلة ذهبت، ما عاد هو نفسه أبدًا..

رجل يستعين بالنساء على المخدرات، وبالمخدرات على النساء.
هو رجل كان يومًا، وما أصبح كما كان!!

في ألم ومرارة، نهض عن مقعده، وفي طريقه إلى الداخل، وجد إلهام تعد المائدة، وقال في ألم:

ـ لا شهية عندي لشيء، سأرتدي ملابسي وأمضي!!

بطرف عينيها نظرت إليه، ودون سؤال عادت بالصحن الذي في يدها إلى طريق المطبخ من جديد..

حسنًا فعل الغندور، ستأخذ كل ما طهته إلى بيتها وتقتسمه مع أمها وابنتها!!

بعد لحظات رأته يغادر البيت، وحين سألته إن كان يريدها في الغد لتعوض له عشاء الليلة ابتسم في حزن، ثم ضمها إلى صدره قائلاً:

ـ لا أنتِ ولا الحشيش عاد لكما نفس القوة، فلنأخذ وقتًا علك وعلّه تستعيدان قوتكما..

تركها وشهقتها الكبيرة وحدها، وعلى سلالم البيت، كان يسأل نفسه كيف لسارقة هاربة ظن أنه زهدها ونسيها حضور أقوى من امرأة تداعب أعضاءه، وحشيش يتغلغل في خلايا رأسه وجسده!!

لا الحضور أعزَّه، ولا الغياب هزمها!!

كم بات يكرهها عندما أيقن أنه ما زال حقًّا يحبها!!

***

فـي الطريـق إلى البيـت كان عصمـت ما زال يسـتعيد ما بعـد الليلة الأخيرة..

حين وجد خزانة ملابسها خاوية، وخزنة نقوده مثلها، علم أنها تركته إلى الأبد..

أرسـل ابنته إلى المدرسـة في هدوء، وحين خرجـت من المنزل لم يجد ما يفعله سوى أن حادث أخاه، وبكى يخبره بما فعلت..

ثمانيـة أعـوام على رحيلهـا، ثمانية أعوام على يد أخيـه التي لطمت وجه ابنته، وبعد أن هدأ الغضب ونامت الثورات، علم أنه ما زال يحبها وأنه يشتاقها حتى الجنون..

قليل من البعد يكشف كثيرًا من الأسرار والحقائق!!

لـم تعد أو تتصل حتى تحاول الاطمئنان علـى ابنتها، وهكذا أصبح عصمت رجلين..

أبًا قاسيًا متجهمًا يعلم أنه وأخاه ألقيا في قلب الصغيرة رعبًا لا ينتهي إلا أنه يثق أنه بهذا يحميها ويمنعها عن ذكرى اللصة التي تدعى أمها..

بعيدًا عن يُسْـر هو مع إلهام وشـبيهاتها، يدخن الحشـيش ويمارس الجنس، ويعود مع خطوط الفجر الأولى إلى بيته..

ينتظر قدوم الصباح ليأخذ صغيرته إلى تمارين هي كل ما يفعله لها أو يصنع لها ساندويتش المدرسة، ويضع يدها في يد غريب، ثم يلقي بجسده على فراشه، ويبكي شوقًا إلى أوليجا وندمًا على غبائه حين أغلق أذنيه عن صمتها وأغلق عينيه عن انكسارها..

أصبح رجلاً ممزقًا بين رجل يتمنى لو تعود ويصفح عنها، ورجل يكره أن يتذكرها، ويتمرغ بين أجساد النساء علّه ينسى ملمسها ورائحتها..

لفائف الحشيش تجعله يبتسم لكن ليس أبدًا كابتساماته، وهي بين ذراعيه حتى في أيام تحوُّلها وجمودها..

منشطات الجنس التي يتعاطاها تجعله يظن واهمًا أنه كما كان وهي بين ذراعيه..

لكن لا لفافة ولا قرص أيًا كان اسمه ولونه لهما عليه تأثيرها..

دمعة أخرى رقصت في عينيه، وهو يرقب الشوارع التي كانا يمشيان فيها معًا!!

رقصت يومًا أوليجا حوله فيها، وهو ينظر إليها في حب وفخر، كيف تحول كل ذاك إلى عار وحرب؟!

انتفض جسده عندما أفاق على نفسه يفتح باب بيته، عليه أن يضع قناع الأب الوقور الحاسم..

لا شيء يحرك فيه شيئًا، أخذت أوليجا كل الأشياء معها وغابت..

علم وتعلم وبقي رصيده رغم كل العلم صفرًا..

حين دخل إلى بيته رأى يُسْر بقميص نومها في صالة البيت..

حين وقف أمامها دججته بنظرة كتلك التي كانت ترميه بها أمها، وقال في سكون:

ـ ارتدي ملابسك، غريب في انتظارك..

كبرت الصغيرة، ويظنها تعلم ما يفعله أبوها، لفائف الحشيش، وأقراص الجنس كلها مغشوشة حتى طفلة مثلها باتت تكشف أمرها، وإن كانت بلا تأثير..

* * *

أخبرتـه أنـه ما زال أمامهـا أكثر من نصف سـاعة حتـى ينتهي درس الفيزيـاء، وتهبط إليه وأجابها أنه سـينتظرها أسـفل البنايـة بعد أن ينتهي من غسل السيارة..

تجـاوز عمـره الستين، لـم يعـد حتى يقـوى علـى الانحناء لغسـل عجـلات السـيارة، حمـل وعاء المـاء المتسـخ، وصاح مناديًـا حارس العقار الذي أخذه منه ليرده إليه..

حيـن طوى بعض الجنيهات، ومنحهاٰ إياه ضحك الحارس الشـاب قائلاً:

ـ هـل صدقت أنك مالك السـيارة؟! أنـت مثلي أيهـا العجوز، ضع قروشـك فـي جيبـك، نحن لا نمـد أيدينـا لمن يتصببـون عرقًـا مثلنا!، نعرفهم ونشتم رائحتهم «لأنهم مثلنا».

جفف غريب العرق المتصبب من جبهته، ونكس رأسه راميًا بجسده على مقعد القيادة..

لم يعد يريد العمل أكثر من هذا.

كيف يترك يُسْر؟! لمن يتركها؟!

لهذا السكير العربيد يذبحها كما ذبح أمها، متى تأتي لتحرره من عهده لها؟!

يوم تعود يرحل ليعود إلى بلده ويبقى ساجدًا يستغفر ربه عن كل قناني الخمر التي يأخذه لشرائها، يستغفر ربه عن انتظاره تحت مكتبه، وهو يعلم أنه يضاجع العاهرات، أو يلعب القمار مع أصدقائه..

كلاهما خسيس!!

الغندور الصغير يهبط إليه بنجاسته ورائحة الخمر تفوح من ثنايا ملابسه ليدخل السيارة لاعبًا دور السيد الوقور، وهو يفتح له بابها لاعبًا دور السائق الأمين الأحمق..

لم يكن يعترض حين حضر ليعمل لديه، بل لم يكن لديه الوقت ليعترض أو يقر، كان كل رأسه وروحه بوحيده معلقة..

سيف ألم يشق صدره، وهو يتذكر «عبد الرحمن» ولده حين بلغ الثامنة عشرة من العمر..

كالبدر كان عندما حصل على الثانوية العامة بتفوق كبير، تم قبوله في طب القاهرة..

«طب الإسكندرية أقرب لنا يا ولدي»!!

لكن أخبره ولده أن طب القاهرة أفضل، هو حلم أن يتخرج من القصر العيني..

بكت جليلة رافضة أن تترك وحيدها في المحروسة يسكن وحده..

من يرعاه؟ من يغسل ثيابه، من يطهو ويعد له أكواب الشاي بالنعناع التي يحبها حتى يستذكر وينجح ويصبح الدكتور عبدالرحمن غريب..

كان وقتها سائقًا لإحدى سيارات بهجت الغندور التي تنقل محاصيله الزراعية إلى المخازن أو منها إلى التجار..

أخبر سيده يومًا عن قصة ولده، وصاح بهجت يخبره بأن السماء تحبه وتحب ولده كثيرًا..

أخبره أن أخاه الصغير تزوج وبحاجة إلى سائق، أخبره أنه سيقوم بتأجير سكن صغير له هو وزوجته وأيضًا ولده..

سيبقى غريب سائقهم حتى تنتهي السبع سنوات ويتخرج ولده..

بكت جليلة حين علمت وطار ولده من الفرح..

كان يعلم أنه يقدم تقريرًا شهريًّا للغندور الكبير عن أخيه وزوجته..

لم يكن أبدًا يبالي بأحدهم، كل ما كان يعنيه هو ذاك السَكن الصَغير الذي تم تأجيره في منطقة «إمبابة» الشعبية..

كانت أقرب مَكان إلى طلعت حرب حيث بقي الغندور الصغير مع زوجته قبل أن ينتقلا إلى منطقة الدقي بعد أعوام!!

أيضًا المكان قريب إلى جامعة القاهرة حيث يدرس الطبيب المنتظر..

لم يفهم أبدًا حين رأى أوليجا للمرة الأولى لماذا يتزوجها شاب كالغندور..

نحيلة ضئيلة نادرًا ما تبتسم..

رغم عجزه التام عن التواصل معها لجهلها باللغة العربية، وجهله هو بأي لغة أخرى إلا أنها فرضت عليه احترامها، ربما أكثر من زوجها نفسه..

بعد عام ولده الأول في الجامعة، كانت أوليجا أمًّا تحمل يُسْر على ذراعها ومفرداتها في اللغة العربية بدأت تتكون، كانت سعادته بنجاح ولده وتفوقه تكبر عامًا بعد آخر، وسعادة أوليجا تخبو شيئًا فشيئًا..

في العام الثالث، أخبره ولده أن درجاته لن تجعله طبيبًا فحسب، بل سيصبح مدرسًا في كلية الطب، أخبره أنه أصبح أكثر الطلبة شهرة رغم أنه ليس من أبناء العاملين في الجامعة..

أصبح غريب كالمجنون لا حديث له سوى نجاح ولده وتقدمه وتفوقه، أصبحت جليلة لا هم لها سوى أن تغسل معطفه الأبيض كل ليلة، وتضعه على حبل نافذتهم ليراه كل الجيران، ثم تقضي ساعة في فرده بالمكواة ليأخذه على ذراعه، ويخرج به في الصباح..

في ذاك العام، بدأ الغندور يتغير كثيرًا، أصبح قليل الخروج مع زوجته، وقليل الحديث إليها إن حدث وخرجا معًا..

بل أصبح يجلس إلى جواره في المقعد الأمامي ويتركها تحتضن ابنتها وتجلس في المقعد الخلفي..

أصبحت تخرج بطفلتها كل صباح إلى معهد الباليه، ثم إلى الأسواق لتشتري لها كل ما تحتاجه من أشياء تعلّم هو أسماءها وألوانها حين

كانـت الصغيرة تخرجهم من أكياس التسـوق أو تصر على الخروج بها من المعهد..

كان زوجها يخرج كل مسـاء إلى شـقة وسـط المدينـة حيث فتحها مـن جديـد مدعيًا أنه يمارس فيها المحاماة بينما كان غريب يعلم أن من يلتقيهم ليسوا عملاء..

ليس أبلهًا أو ساذجًا، لكن ما كان الأمر يعنيه في شيء، بدأ فقط يتألـم قليلاً عندما تهبط إليه أوليجا في الصباح تمسك بكف ابنتها الصغير بين أصابعها، لا شيء أكثر أو أقل!!

ربما ألـم آخر، وعيناه ترتطم بعينيها تدمعان في المرآة من وقت لآخر لكن لا شيء يعنيه..

ربمـا ألـم آخـر أعمق كلما رأى أعين الرجـال تطاردها وتصدهم في حسم وقوة..

كان يؤلمه أن الرجل الذي يصلي الجمعة معه يسكر ويعربد، والمرأة التي تذهب إلى الكنائس وترتدي الثياب القصيرة لا تسقط في المجون أو اللهو رغم شعورها بما يفعله زوجها..

أخبر ولده مرة عنها ليجيبه في ألـم:

ـ العلة ليسـت في الأديان، أيها الطيب العلة في الإنسان، العلة دائمًا في المبادئ!!

عدا هذا لا ألـم آخر كان يسكنه ولا اكتراث!!

بقي يقوم بعمله على أكمل وجه..

هو سعيد والسعداء قليلاً ما يهتمون لأمر البؤساء، وكيف تبصر البؤساء أعين غائبة في الحلم والفرح..

كما قال حارس البناية منذ لحظات لا نمد أيدينا في جيوب من هم مثلنا، نشعر بهم ونشتم رائحتهم لأنهم مثلنا يا غريب.

لا الأثرياء يسرقون بعضهم، ولا الفقراء، أو حتى اللصوص أو التعساء!!

كان غريب في ذاك الوقت عن أوليجا وعصمت مختلفًا فكيف يراها أو يمد لها يدًا!!

في عام عبد الرحمن الجامعي السادس بدأت ملامح أوليجا في الانهيار، بدأت دمعاتها تلمع واضحة جلية، بدأت تسأله عن زوجها؟ وأين يقضي لياليه..

اعتذر لها عن الحديث، لم يستطع أبدًا أن يكذب، أو يقسم لها أنه لا يمارس الرذيلة..

رائحة الرجل كانت أكبر من التستر والأكاذيب، وكانت أيضًا تلك تعليمات الغندور الكبير الذي طلب منه أن ينقل الصورة كاملة لزوجته، قال له: «ما بني على باطل فهو باطل، دعها تعرف وليفترقوا، إن افترقا عاد كل منهما إلى أصله، وأصل أخي طيب وحدها الروسية لوثته»!!

لم يستطع غريب أن يفعل؛ لأنه أبدًا ما رآها سبب سقوط زوجها..

كان يراها صامدة قوية تزداد حبًّا واهتمامًا بابنتها وبيتها، حتى جاءت تلك الليلة التي وقع فيها في حب أوليجا كما لم يظن نفسه يفعل أبدًا..

كان ليلتها أسفل مكتبه ينتظره كالعادة حتى ينتهي من سهرته، كان ينظر إلى ساعة يده يتعجل هبوطه إليه، يريد أن يلحق بولده قبل أن ينام ليرتبا أمر سفرهما إلى «دمرو» ليخطبا له العروس التي يحبها، بل اعتذر حتى عن مصاحبته لتمرين السباحة في الفجر فهو على سفر..

وافق الغندور على منحه إجازة أربعة أيام حتى ينهيا قصة الخطوبة..

تمنى تلك اللحظة لو أنه ترك له المفتاح ليعود وحده إلى بيته لكنه كان حقًّا يخشى أن يتركه يقود السيارة بعد انقضاء سهرته وهو مخمور، ويعلم أن هذا سر اصطحاب الغندور له في سهراته رغم أنه ورغم سكره لم يرهِ مرة يفقد تركيزه!!

لم يره مرة يترنح من آثار الخمر، أو يردد كلمات مبتورة بلهاء كما يرى المخمورين على شاشات التلفزيون، أو يسمع عنهم لكن عبد الرحمن أخبره أنه أيًّا كان ثباته الخارجي فالخمر دون شك تفقده تركيزه الكامل..

غريب لا يريد أن يشعر بالذنب إن مات أو قتل بريئًا بسيارته..

كان يهدئ نفسه وهو يرى الساعة تقترب من منتصف الليل، حتى إن نام ولده وزوجته لديهم من الغد أربعة أيام يفعلون فيها ما شاءوا..

كان الجو شديد البرودة، ورغم أن جميع نوافذ السيارة مغلقة إلا أنه كان يرتجف من البرد خلف معطف الصوف الذي كان يرتديه.

حين عاود النظر إلى مدخل البناية راجيًا ربه أن يرى الغندور يخرج إليه رآها هي تخرج من سيارة أجرة، وتركض نحو المدخل في جنون.

بكفه البارد مسح زجاج النافذة المجاور له وعاد يدقق فيها بعينيه يريد أن يتأكد مما يراه.

كانت ترتدي جاكيت خفيفًا على ثوب قصير شفاف لا يقي من برد الليل وجنونه لكنها هي.

حين فتح باب سيارته، وخرج خلفها وجدها غابت داخل البناية، ركض خلفها يناديها. هي أصغر منه سنًّا، وأكثر منه خفة ورشاقة..

لم يجدها على باب المصعد، بل سمع ركضها ووقع حذائها على سلالم البيت أطلق ساقيه خلفها يناديها، لم يكن يستطيع أبدًا أن يصرخ..

في البناية سكان، ورغم علمه أنهم يعلمون ما يفعله الغندور في مكتبه إلا أنهم لا يبالون ما دام لا يخرج خارج نطاق جدرانه..

رغم أن معظم الشقق نواد ومكاتب، لكنه ما زال يخشى عليها، وهي في ذاك الثوب القصير أن تواجه مخمورين ونساء كاللاتي بداخل البيت..

على تلك السلالم استيقظت حميته وصحت مشاعره تجاه أوليجا والتي ما كان يعرفها..

بدأ صدره يتهدج، وقلبه يفرط في الدبيب من جراء ركضه على السلالم..

حين وصل الدور الثاني حيث غايته رآها، وهو على أعلى السلالم ترفع كفها لتهوي به على باب البيت، وصرخ يقول:

ـ ورأس يُسر لا تفعليها!!

حين استدارت تنظر إلى وجهه عرف أنها ما كانت تعلم بوجوده، ولا سمعت نداءه لها..

علم أنها كانت واقعة تحت سيطرة غضبها وجنونها، وإلا ما جاءت بثياب منزلها وجاكيت خفيف كالذي ترتديه، حين اقترب منها سمع خطوات تقترب من الباب ليعلم أنها قرعت الجرس..

ضمها بإحدى ذراعيه وركض بها بعيدًا عن الباب مستندًا بها إلى أحد الأبواب البعيدة..

لم تكن تقاوم في تلك اللحظة، بل شعر بها تلقي رأسها على ذراعه وهي ترتجف..

سمعا معًا صوت الباب الذي فُتح وصوت أحد أصدقاء الغندور يردد بصوت عال «من يطرق الباب»؟!

من خلف السؤال سمعا ضحكات وموسيقى وشعر بها تنتفض على ذراعيه، كأن الرغبة في الانقضاض عليهم واتتها من جديد..

شعر بها تكاد تصرخ من بين ذراعيه، وهمس يرجوها من جديد ألا تفعل..

حين أُغلق الباب، أطلق سراحها من قبضته، واستدارت تنظر إليه تبكي، وتقول:

ـ أنت معه؟ وتخبرني أنك لا تعلم شيئًا، لماذا تكذبون؟! لماذا يا عرب جميعًا تكذبون؟!

هز السؤال في أعماقه شيئًا، واستدار بها عائدًا بظهرها بقوة إلى الحائط، ونظر إلى وجهها الغارق في الألم، ولم يجد ما يقول سوى كلمات ولده، قال لها:

ـ سيدة أوليجا، ليس العيب في الهوية، أو الدين، إنما هو عيب في الإنسان، في المبدأ؟! أنا أحترمك كثيرًا، وأربأ بك أن تدخلي إليهم، هم عن وعيهم غائبون، وزوجك مثلهم غائب، لا تدعيهم يرون دمعاتك، في البيت وحين يفيق من غيابه افعلي معه ما شئتِ، لكن أرجوك فكري في يُسر، فكري في مصيرها إن تركتيه يأخذها منك، هل تتركين مصيرها في يد رجل مثله؟! رجل بلا مبدأ!!

لم يكن يعلم إن فهمت كل كلماته، لكنه يذكر كيف انتفضت حين ذكر اسم ابنتها، وهمست في ألم تخبره أنها يجب أن تعود تركت ابنة الثمانية أعوام نائمة في فراشها وحيدة بعد مكالمة جاءتها من سيدة تخبرها عما يفعله زوجها.

حين خطت في اتجاه سلالم البيت ذهب خلفها يخبرها أنه سيعود بها إلى البيت، وليفعل زوجها ما يريد حين لا يجده رفضت، وأخبرته أن سائق الأجرة ما زال في انتظارها.

رفعت أوليجا رأسها إليه، ووقفت لحظة تنظر إليه، وقالت:

ـ عصمت يفعل بي كل هذا لأني وحيدة، غريبة يا غريب، من يبيع وطنه من أجل الحب تبيعه الأوطان، ويقتله الحب!!

حين وصل بها إلى سيارة الأجرة تلك، وبعد أن ألقى السلام على سائقها أشعره أنه يحفظ رقم سيارته في رأسه، وقبل أن تتحرك بها السيارة نظر إليها من النافذة، وقال:

ـ لا تبيعي الصغيرة، ولا تظني أنك وحدك أبدًا، الله معك، الله مع الحق، وإن كان الحق مع الغرباء!!

* * *

عـاد غريب إلـى بيته تلك الليلـة ليجد ولده مسـتيقظًا ينتظره، أخبره بما حدث وطلب منه وحيده أن يؤجلا سفرهما إلى مساء اليوم التالي.

«حادثهـا في الصباح وذْهَب إليها، أخبرها أنك معها، أنا أيضًا يجب أن أذهب إلى الجامعة لآخذ بعض الملازم معي، هو العام الأخير وأريد أن أتفوق لأنضم إلى أعضاء هيئة التدريس، نسافر في الليل»!

هو العام الأخير!!

هناك كلمات نقولها، ولا ندري أن لها معاني غير ما عنيناه بقولنا..

استيقظ هو ووحيده في الصباح الباكر.

ذهب عبد الرحمن إلى الجامعة وتوجه هو إلى أوليجا، كانت هادئة، في كلمات وجيزة أخبرته أنها لن تفعل مع زوجها شيئًا، وأنه خيرًا فعل بحضوره؛ لأنها تحتاج الذهاب إلى مدرسة ابنتها.

كانا في الطريق إلى مدرسة مصر للغات حينما دق هاتفه..

لا يعلـم لمـاذا كان هاتفه مفتوحًا على عكس عادته سـاعات العمل ربمـا؛ لأنه كان يشـعر أنه في إجازتـه، أو ربما لأن أوليجـا فاجأته بقرار توجهها إلى المدرسة وربما؛ لأن القدر أراد لها أن تشهد ما حدث لتبدأ دروسها التي ما زال لا ينساها.

حيـن فتح الخط سـمع صوت أيمـن صديق ولده يخبـره في صوت متهدج أن حادثًا صغيرًا وقع لعبد الرحمن.

غامـت الدنيا في عينيه، كاد يصطدم بالسـيارة التي أمامه إلا أنه أفاق على صرختها المذعورة.

أوقف سـيارته على جانب الطريق، ولم يلتفت إليها، كان يستجدي أيمن أن يقسم له أن ولده بخير.

لـم تكن السـماء هي الغائمة، لكنهـا كانت أمطار عينـي أب علم أن وحيده في مكان ما وحده يتألم أو ربما يموت.

يمـوت؟! علا صوت بكائه، وشـعر بها تفتح باب السـيارة الخلفي، وتتجه نحو بابه تفتحه لتقول في لهفة «غريب، ماذا يحدث»؟!

لم يلتفت إليها أبدًا حتى سـمع المتصل يقسـم له بأغلظ الأيمان أن عبد الرحمن بخير لكن هو يريده أن يذهب إليه.

أمسـكت بيده وسـاعدته على الهبـوط من السـيارة، ودخلت به إلى الباب المجاور، وتولت قيادة السيارة.

لـم يكـن يعلم أبـدًا أن بإمكانهـا القيـادة، لكنها قادت السـيارة نحو المجهول الذي كان يفضل الموت على أن يحياه..

كان يرشدها إلى الطريق وفي أي الشوارع تسير..

حيـن أصبحا على باب القصر العيني أوقفهم مسـؤولو الأمن، بكى وهو يخبرهم بسبب حضوره.

أفسحوا له الطريق لتدخل أوليجا إلى حيث أشار لها أحد الموظفين، حادث أيمن الذي جاءه بعد لحظات ليأخذه إلى عيادة كلية الطب.

الأحمق، نعم هو أحمق كبير.

تنفس لحظتها الصعداء.

ولده بخير، أيمن لم يقل مستشفى ولا مشرحة، بل قال عيادة، وهذا يعني أنها إصابة صغيرة.

حين هبطا من السيارة ليتبعاه وفي طريقهما إلى تلك العيادة سيرًا على الأقدام، أشار بيده إلى لوحة كبيرة ضخمة يقارب وزنها نصف طن ملقاة على الأرض وحولها العشرات من الطلبة والعمال قائلاً:

ـ هنا كنا أنا وعبدالرحمن نسير حيث سقطت هذه اللافتة عليه.

شهقت عندما سمعته، واستدارت تنظر في ذهول إلى اللافتة الضخمة.

ذُعر الأب حين رأى ذعرها، وعاد أيمن يقسم أنه بخير، وأنه استعاد وعيه، وأصبح على ما يرام.

كانت أوليجا ما زالت تقف في مكانها، وهي تسأله:

ـ كيف تسقط لافتة كهذه؟!

أجابها الشاب بأنها كانت تتأرجح منذ قامت الإدارة برفعها على أحد مباني الكلية منذ أيام، وأن كثيرًا من الطلبة أخبروا الإدارة بشأن تأرجحها وعدم ثباتها.

فـي خجـل رجاها غريب أن تتحرك من مكانهـا، يريد أن يرى ولده، وقبـل أن تفعل رآها تفتح حقيبتها، وتخـرج منها كاميرا صغيرة التقطت بها صورًا سـريعة للافتة، ولمجموعة الشـباب والعمال الذين يحاولون رفعها.

أسرع بخطواته مع أيمن وتركها خلفه.

السـيدة لا تشـعر بنيران الخوف التي تضطرم بين أضلعه، وشعر بها تركض خلفهم وتضع يدها على كتفه قائلة:

ـ أعتذر يا غريب!!

عيادة كلية الطب!!

غرفة صغيرة مهترئة داخل أحد مباني القصر العيني، دخل إليها وهي تتبعه في ذهول، على أحد مقاعد الانتظار رأى ولده، هو حي يتنفس!!

لا شيء بعد هذا يهم، هذه السحجات التي على رأسه لا تهم.

رباط الشـاش الذي يلتف حول رأسـه والملون بقطـرات الدم أيضًا لا تهم..

ملابسه الممزقة، عيناه المغلقتان.

مـا زال يجلس على مقعد ورأسـه بين كفيه لا شـيء يهم، هو بخير، وحده هذا المهم!!

همس كأنه يصرخ «ولدي»!!

رفع عبدالرحمن رأسه وبعينين زائغتين رآه، وقال:

ـ ما الذي أحضرك، أنا بخير، بخير!!

استدار ينظر إلى صديقه في عتاب، ضمه الأب إلى صدره في حنان، وهو يكرر ألف شكر وألف حمد لله.

سمع صوت الطبيب يخرج من غرفته، ينظر إليهم ويطلب منهم أن يأخذوا عبد الرحمن إلى الخارج.

«هو بخير يا والدي، اذهبوا، هي عيادة ولا أريد فيها هذه الضوضاء».

كانت أوليجا تنظر حولها في ذهول.

حين رأت عبد الرحمن يستند على ذراعي والده وصديقه وبعض من زملائه استدارت تنظر إلى الطبيب في غضب، وقالت في عربيتها المتكسرة تحت لسانها:

ـ أهذا ما تقوله لشاب كدتم تقتلونه!! ضمادة صغيرة على رأسه بعد سقوط تلك الكتلة عليه!! أهكذا تحادث والده!! لا أشعة، لا ملاحظة، هو رأس وليست قدمًا!!

استدار غريب إليها في ذعر، وقال وولده ما زال يستند على ذراعيه:

ـ سيدة أوليجا، عبد الرحمن بخير لم يؤذه أحد، هو القضاء والقدر!!

***

بكت جليلة عندما رأت ولدها يدخل عليها، وهو على ذاك الحال..

صرخ بها غريب يأمرها أن تشكر الخالق على عودته عوضًا عن البكاء والصراخ.

أمسك عبد الرحمن بيده، ونظر في عينيه يقول راجيًا «لا تصرخ في وجهها أبدًا، من سواك يحنو عليها»!!

كأنه كان يخبره أن أمه ستصبح وحدها، وسوى الغريب لن يكون لها.

حين دخلا به إلى فراشه، حين ساعداه على استبدال ملابسه وطلبا منه النوم قليلاً أخبرهم بابتسامته أن كل شيء على حاله سيكون، حين يستيقظ يذهبون جميعًا إلى «دمرو».

لم ينس عبد الرحمن أبدًا أن يخبره أنه سيطلب أوليجا ويشكرها على ما فعلت وهم في الطريق إلى كفر الشيخ.

لا هم ذهبوا إلى دمرو ولا أوليجا كانت حتى تلك اللحظة فعلت شيئًا.

كان يجلس إلى جليلة يهدئها، ويعيد عليها أن عبد الرحمن بخير، وأنهم عند وصولهم يقوم بذبح كبش لنجاته.

«سمعت أحدهم يقول إن اللافتة تزن ما يقارب نصف طن يا جليلة، كُتب لولدنا عمر جديد».

بعد تلك الكلمات سمعا صراخًا حادًّا يأتي من غرفته.

في جنون ركضا معًا إلى غرفته، وحين فتحا الباب كانت بداية النهاية.

كان عبد الرحمن يقف في وسط الغرفة يصيح صياحًا يتمزق له نياط القلوب ممسكًا برأسه بين كفيه.

صاحت الأم في ذعر تقول «ولدي»!!

حين أخذه بين ذراعيه، بكى الشاب وهو يردد:

ـ صداع يقتلني، لا أحتمل!!

حين عاد به غريب إلى فراشه سقط من بين ذراعيه، كأنه ريشة طارت من جناحي هدهد حزين.

اقتربت جليلة ترفع ساقي وحيدها على الفراش، وأسدلت عليه الغطاء، بينما بقي هو يتمتم بالآيات التي يحفظها واضعًا يده على رأسه.

هدأ عبد الرحمن بعد لحظات، وحين أكمل غريب قراءة آياته سار بكفه يمسح على رأسه وشعر بكفه مبتلاً، في ذعر نظر إلى كفه، وعاد يبحث في وجه ولده ورأسه ليرى سائلاً أصفر اللون يغادر أذنيه.

لم يقل حرفًا، بل كتم خوفه في صدره، لن يثير الذعر في قلب أمه وقلبه.

هي قطرات من ماء، ما يهم أنها ليست دمًا!!

هو الجهل بعينه يا غريب، ليس الدم وحده ما يخيف..

حتى الماء الذي هو سر الحياة قد يكون في لحظة نذير الموت..

عاودت عبدالرحمن نوبة الصداع مرة أخرى بعد ساعات قليلة غير أنها كانت أشد.

لم يعلم ماذا يفعل، كل ما استطاع أن يفكر فيه الرجل أنه حادث أوليجا.

كان يرتجف، وهي تسأله إن وصل إلى قريته وأخبرها ما حدث وهو يبكي عن ولده.

كانت صيحات وحيده أعلى صوتًا من ألا تعبر سماعة الهاتف، وتخترق أذني السيدة التي صاحت تأمره بأن يذهب به إلى مستشفى الجامعة، بل وإلى طبيب العيادة ذاتها.

«الأمر يتعلق بما حدث في الصباح يا غريب، إياك والانتظار، إياك والانتظار»!!

كأن كلماتها تلك كانت أجراس الكنيسة التي تقع خلف بيته، ركض إلى ولده وخرج به إلى الجامعة.

العيادة كانت مغلقة، ولم يجد بدًّا من التوجه إلى مستشفى الجامعة.

«القصر العيني»!!

لم يأخذوه لقصة صداعه أو لرؤية ذاك المنديل الأبيض الذي وضعه له والده مبتلاً بسائل أذنيه.

طبيب القصر العيني استقبل الشاب وأدخله؛ لأنه كان على علم بحادث الصباح.

ركضوا بولده إلى غرفة الأشعة، وطلبوا منه البقاء في إحدى تلك الردهات المليئة بقصص الألم ودمعات الخوف والوداع.

بقي على مقعد خشبي متهالك ساعات ينتظر حتى أفاق عليها تحادثه، أخبرها باكيًا أنه لا يعلم شيئًا وأن جليلة في بيتها تكاد تموت خوفًا، لكنه وحده يشعر أنه بالفعل مات من خوفه وترقبه.

«لا أحد يتحدث معي سيدة أوليجا، أنا حتى لا أعرف أين أبحث عنه».

كانت العاشرة مساء حين رآها أمامه.

كيف وصلت إليه، وهو نفسه لو خرج وأعاد الدخول ما عرف كيف يصل إلى مكانه..

نهض عن مقعده الخشبي، وبكى كأيتام الحروب، وشعر بها تضمه إلى صدرها في حنان، وعادت به إلى مقعده وهي تتمتم «سأعود إليك بولدك، أنا معك يا غريب، أنا معك»!!

كانت المرة الأولى التي تضمه فيها أوليجا وما كانت الأخيرة.

كانت المرة الأولى، وكان الدرس الأول الذي علمته إياه، وتوالت خلفه منها دروس العمر.

«أنا معك»، كلمة لها مفعول السحر، كلمة تلملم شتات النفس إن صوب نحوها القدر رصاصاته!!

هدأ غريب حين سمعها، جلس على مقعده، ورفع رأسه، وأخرج هاتفه ليحادث جليلة، ويقول:

ـ اطمئني، عبد الرحمن بخير!!

ما عاد غريب أبدًا يذكر من عمر ولده شيء.

نسي يوم وُلد، نسي يوم كبر ويوم تفوق ويوم حملوا متاعهم وتبعوه ليدخل كلية الطب.

نسي يوم أخبره برغبته في الزواج. نسي حتى يوم الحادث.

هو الآن لا يذكر سوى الأسابيع الثلاث التي بدأت منذ لحظة ظهور أوليجا بعد اختفائها في ردهات القصر العيني تبحث عن وحيده، لم تعد وحدها.

عادت ومعها طبيب شاب ينكس رأسه، عادت ومعها أنباء لم يفهمها جيدًا لكنه ما زال يذكر حروفها وكلماتها.

الأشعة المقطعية أظهرت كسرًا في قاع الجمجمة، مع شرخ عميق في قناة الشريان الزجاجي.

هل يكذبون؟! إلا أنه رجل بسيط لم ينل من التعليم حظًّا؟! إلا أنه سائق؟!

رفع رأسه إلى الطبيب يقول مستنكرًا «شريان زجاجي؟!»

هل يهزأ منه؟!

اقتربت وجلست أسفل ركبتيه، وقالت:

ـ اسمعني يا غريب، هناك شريان يخرج من العنق لتغذية المخ، لابد وأنك رأيت سائل يخرج من أذني ولدك يدعى CFF هو من ذاك الشرخ!!

من خلف دموعه سألها، كأنه يسأل أمه أو سيده همس:

ـ ماذا أقول لأمه؟! هل يقومون بوضع الجبس حول رأسه، سيقتلها أن ترى رأسه في الجبس!!

الرؤوس المكسورة لا جبس لها..

الرؤوس والقلوب إن كسرت لا يضمد كسورها إلا الأيام والنسيان لمن استطاع أن يحيا وينسى!!

نقلوا ولده إلى غرفة العناية المركزة.

بعينيه رأى أجهزة كثيرة حوله وأسلاك أكثر متصلة بكفه.

بقدميه هاتين اللتين تستندان على مكابح البنزين والفرامل الآن زحف إلى جليلة يخبرها أن ولدها سيبقى في المستشفى، وعاد بها ليجد أوليجا في المستشفى وعصمت معها.

دخلت جليلة لرؤيته لحظات، وأخبروهم أن يغادروا المكان.

لا أحد يرافق مريضًا في العناية المركزة.

استدارت أوليجا لحظتها إلى الطبيب تخبره أنهم مكلفون بإيجاد غرفة لغريب وزوجته، أخبرته في صوتها الهادئ وكلماتها العربية الواضحة رغم ركاكتها أن الجامعة مسئولة عن عبد الرحمن حتى شفائه، وأنها كانت تتوقع رؤية عميد كلية الطب هنا إلى جوار غريب.

لكن لا أحد بقي إلى جواره سوى أوليجا.

أخذها السيد عصمت في تلك الليلة إلى البيت لتعود في الصباح، وتجده ما زال على المقعد الخشبي المتهالك بجوار العناية المركزة وبعض من زملاء عبدالرحمن معه.

بدأت حروب أوليجا.

سمعها تطلب منهم أن يأخذوها إلى العميد.

سمعها تخبرهم أن أيًّا منهم كان من الممكن أن يكون عبدالرحمن، وأن جليلة التي تنتحب إلى جوار ولدها في العناية المركزة كان من الممكن أن تكون أم أي منهم.

كانت تتحدث إليهم في صوت هادئ لكنه قويّ، كان يشعر بها في بعض الأحيان تصمت كأنها تبحث عن مرادفات العربية في رأسها، وتارة تجدها وتارة تتحدث إليهم بالإنجليزية.

فـي أقل من نصف سـاعة تطوع ثلاثة من زملائـه بالذهاب معها إلى العميد.

لم يكن حتى ذاك الوقت يفهم شيئًا لكنه في نهاية اليوم استوعب كل شيء وفهمه.

عـادت أوليجـا لتخبـره أن غرفـة خاصة سـتخصص له هـو وجليلة بجوار العناية المركزة.

عادت وتبعها في المساء عميد كلية الطب نفسه ورأى بعينيه الجميع يرتجفون في استقباله.

لم يهتز لهم جفن لبكائه أو توسلات أمه.

لم يرتجف لهم ضلع لألم ولده، ونوبات التشنج التي بدأت تواتيه.

اهتزت قلوبهم، وارتجفت أضلعهم، فقط لرؤية رئيسهم.

ربّت العميد على كتفيه، وأخبره أنه سـيتولى بنفسـه الإشـراف على حالة عبد الرحمن وأن كل من في القصر سيهتمون لأمره وأمر جليلة.

لم يفهم، تصور لغبائه أن الرّجل ما كان يعلم بما حدث، وأن السيدة أوليجا حين أعلمته أقام الدنيا وما أقعدها.

أدرك الحقيقة بعد أيام.

هي التي أقامت الدنيا وما أقعدتها.

كانت تجمع الطلبة، وتقف بهم أمام مكتب العميد.

سألها عبدالرحمن نفسه في إحدى تلك الفترات التي كان يعود فيها من نوبات صداعه وتشنجاته.

سألها ماذا تريد أكثر؟!

أخبرته أنها تريد اعترافًا من الجامعة بمسئوليتها عن الحادث، أخبرته أنها لا تريد أن يتكرر ما حدث، أخبرته أن كل مسمار يدق في الحرم الجامعي هو في عنق رئيسها.

كل أستاذ يلقي معلومة خاطئة يتحمل ذنب كل من يعمل بها، كل طالب نذر عمره وشبابه للعلم والمعرفة ولا يجد منهما ما يكفيه بين أسوار الجامعة يُحاسب على تنازله عن حقه فيهما كما يحاسب رئيس الجامعة عن تقصيره في توفيرهما.

كيف ينسى جملتها تلك التي قالتها في حضور عبدالرحمن الذي بكى عندما سمعها تقول:

ـ تختلف أسماء الأديان لكن يبقى الرب واحدًا، كالأوطان يحاسب الله رؤساءها حتى على نفوق أسماكها إن لم يكن ماء النهر طاهرًا!!

بقي عبدالرحمن حانيًا على أمه، ممتنًا لأوليجا حتى اللحظات الأخيرة..

ثلاثة أسابيع يصارع الموت، حتى بدأت حرارته في الارتفاع في الأسبوع الثالث، وبدأت فترات غيابه تطول..

كان يرى الأم تموت أمامه ويرى زملاءه، وطفرات من دمع تطفق خارج أعينهم..

جاءه وافد من إدارة العمادة يعرض عليه مبلغًا كبيرًا من المال، أخبره أنه مساهمة من إدارة الكلية في تحمل مصروفات غريب وزوجته.

رفع حاجبه في دهشة وسأله:

ـ وفي أي شيء أنفق أنا وزوجتي خمسين ألف جنيه، وأنتم تعالجونه بالمجان!!

لم يأخذ النقود، وحين أخبر أوليجا رأى وجهها يتلون بالدم الأحمر كليلة رآها تركض خلف زوجها في بناية طلعت حرب، أمسكت بكفه وقالت:

ـ إياك أن تأخذ منهم قرشًا، أو تكتب حرفًا على ورقة يا غريب، هل تفهم؟!

لا يريد قروشًا ولا يعرف كيف يكتب، هو يريد استعادة ولده.

مات عبدالرحمن في الليلة التالية بعد أن عجز كل أطباء القصر العيني عن خفض حرارته.

مات؛ لأن مجموعة من العمال قررت أن توفر حفنة من المسامير!!

مات الطبيب الشاب المتفوق؛ لأن الإدارة سخرت منه ومن زملائه حين ذهبوا إليهم أكثر من مرة يخبرونهم أن اللافتة تتأرجح ويخشون سقوطها.

مات وحيده؛ لأنه صدق أن الأرض تحمله وأن السماء تظله.

بـلاد غـاب عنها الضميـر، أرضهـا رمـال متحركة، وغيث سـمائها غضب وحمم.

رغـم حرارته التي بقيت إحـدي وأربعين درجة بعد كل الأدوية التي حقنوها في شـرايينه، رغـم هذيانه إلا إنه ما رُئِـيَ وجهُه أجمل من تلك الليلة، ما سمع صوته أعمق من تلك اللحظات.

كان عبدالرحمـن يغيـب ويحضر لينظر إلى وجه أمه باسـمًا ويعدها أنه سيشفى!!

سـمعه ينـادي أوليجا ويمـد كفه إليها لتمسـك بكفه بحنان، سـمعه يشـكرها ويخبرهـا أنه يتمنى لـو عرفها أكثر ليتعلم منها أكثر، ثم ابتسـم في صوت مرتعش يقول:

ـ علمتنـي في لحظات ما لم أبصـره في أعوام، لماذا تفعلين كل هذا من أجلنا؟!

أمسكت السيدة كف المحتضر، ووضعت عليه قبلة حانية، وقالت:

ـ أضعت وطني وأهلي يوم فقدت ثقتي في نفسي، معك وبقضيتك هذه أريد أن أستردها، وأن يسترك وطنك ووالداك، يستحقون جميعًا رجلاً في بهائك!!

مـات البهـي بعد سـاعات، ولـم يـر جليلة تبكي على كتـف أحد من أهلها وأصدقائها سوى كتفي أوليجا.

حيـن غابـوا أيامًـا فـي قريتهم لدفنـه هناك كانـت تحادثهـم كل يوم عشرات المرات.

بهجت الغندور تكفل بكل شيء، وللحق كان سخيًّا في دفع مصاريف الدفن وسرادق العزاء.

لكن مكالمات أوليجا كانت عنده أغلى، دمعاتها التي تتأرجح على صوتها، وهي تسأل عن جليلة كانت في عينيه أغلى وأجلّ.

كان اليوم الثالث بعد عودتهم إلى إمبابة يومًا غريبًا، لم يحضر فيه إلا القليل من أصدقاء ولده.

غاب كل من بكوا، وهم يقبِّلون رأس الأم يقسمون لها أن كلاًّ منهم هو عبدالرحمن.

تعبوا!! ربما لكنه بكى كثيرًا على وسادته ليلاً.

كان يعلم ألا أحد يلعب دور ولدك طويلاً، وأن الإشفاق والتعاطف مع الوقت يخبو صوتهما ويعود المكلوم وحده يلعق جراحه، بينما يعود المتطوع إلى حال أيامه، وسابق عهده هو فقط كان يظن عمر بقائهم يطول.

ما عساك تريد من وجودهم يا غريب؟! هل شممت رائحة ولدك في عناق أحدهم؟!

هل غمر صوت أحدهم روحك ورسم على جنباتك الحياة كصوته؟!

ما همك إن غابوا اليوم أو بعد عشرة أعوام؟!

فـي الصباح، وفي بيتـه علم أن الدنيا خارج بيت أحزانه هبَّ فيها نار وبركان.

تحقيقـات فتحت في قضية عبدالرحمن، برامـج تليفزيونية تتحدث عن طالب الطب الذي كاد يصبح طبيبًا ومعيدًا، وأصبح قتيلاً.

جـاءت أوليجـا إلى بيته ذاك الصباح بعد ذهاب يُسْـر إلى المدرسـة لتتحدث إلى جليلة ساعات طويلة عن الصبر والجنة والعدل.

أخبرها أنهم للتحقيق استدعوه، وأقسمت عليه بروح ولده أن يذهب ويصمد، هو حق ولده عليه.

كان يبكـي، وهـي تسـأله هل يتـرك قاتله حـرًّا بعد أن أودعـه القاتل قبره؟!

كان غريب ممزقًا بين ما تقوله السيدة عن الحق والعدل والثأر، وبين قراره بالعودة إلـى قريتهم والبقاء إلى جوار قبر ولده والاكتفاء بالصلاة له والصلاة عليه.

كان تائهًا بين الرضا بالقضاء والقدر وبين الخنوع والانسحاب.

حيـن ذهب إلى مكتـب التحقيقات وبعد أن ألقـى المحقق في أذنيه بكلمات العزاء الجوفاء بدأ سيل الأسئلة عن تلك الليلة.

في لحظة، قال المحقق إن عبدالرحمن وحده المسـئول عما حدث لـه، أخبـره أن طبيب العيـادة أخبره بضـرورة دخوله إلـى القصر العيني ليجري الفحوص والأشعات والبقاء تحت المراقبة إلا أنه رفض وأصر على العودة إلى المنزل معه معلنًا تحمله لكامل المسئولية.

صعق الرجل، رفع عينيه الغائبتين في الدموع، وهو يعيد أسماء زملاء ولده ممن كانوا يقفون معه في تلك العيادة، وعاد المحقق يخبره أنهم هم من شهدوا بما حدث.

"الجهل هو من قتل ولدك وليس الإهمال، المؤلم أن الجهل جاء من طبيب كان سيصبح عن أرواح غيره مسئولاً"!!

بكى غريب، وهو يصيح أن ما يُقال هو الباطل.. وبآخر أنفاسه المتقطعة قال:

ـ السيدة أوليجا كانت هناك، لقد أخبرت الطبيب أنه يجب أن يجري له الفحوصات، ما زلت أذكر كلماتها حين قالت هو رأس وليس قدمين!!

في ثبات، نظر الرجل إلى الأوراق التي أمامه، وأكمل يقول:

ـ نعم، لكن أنت وولدك رفضتما ما قالته، قال ولدك إنه طبيب ويعلم ألا شيء به، وقلت أنت إنه القضاء والقدر..

نظر إليه المحقق، وقال في صوت خفيض مرير:

ـ لماذا تريد المتاجرة في موت ولدك؟! طلبت من الجامعة خمسين ألف جنيه لماذا؟!

انتصب غريب واقفًا يصيح أنه لا يريد شيئًا، لا يريد سوى أن يتركه يذهب، يريد أن يركض بعيدًا عن هذه السهام التي تشعل في نيران حزنه سعيرًا لا يعلمه إلا الله، فقط يريده أن يتركه يذهب.

حين خرج من سراي النيابة لم يذهب إلى بيته.

حادث أوليجا وطلب أن يلقاها.

وحدها شهقت لسماع دموعه، وحدها أشفقت عليه، وطلبت منه التوجه إلى بيتها ليعودا معًا إلى جليلة.

في صالة بيتها قص عليها ما حدث في التحقيقات.

نكست رأسها في ألم وهي تردد «أيمن، مازن، أحمد، علي كيف تحولوا، كانوا يقفون معي على باب العميد، كانوا يهتفون».

رآها تضع رأسها بين كفيها، ودون أن ترفع وجهها قالت:

ـ هاربة أنا من حكم بالسجن في بلدي يا غريب، لهذا أتحاشى الظهور في وسائل الإعلام، وأخشى الذهاب إلى جهات الداخلية، متهمة أنا بالقتل، وإذا بالقتلة في كل الأوطان هم الأحرار والأقوياء!!

فليسامحه الله..

في تلك اللحظة ظنها تختلق القصة برمتها للتنصل من الوقوف معه، لكن من قال إنه يريدها أن تفعل!!

نهض عن مقعده، وقبل أن يخبرها أنه سيأخذ زوجته ويعودا إلى بلدتهما، وأنه بعد موت ولده ما عاد يعنيه شيء، رآها ترفع رأسها، وتقف لتقول:

ـ سأذهب إلى النيابة وأدلي بشهادتي، لن أترك أبدًا الظلم يذبحني مرة على أرضي ومرة يقتل الحق على لساني!!

كل شيء أصبح يركض أمام عينيه.

ذهبت أوليجا وأدلت بشهادتها، وقامت الأرض، ولم تعد إلى مكانها إلا بعد أن أغلقوا التحقيقات في مقتل طالب الطب.

عمال شركة الدعاية والإعلان التي قامت بتركيب تلك اللافتة وحدهم سيحاسبون بتهمة الإهمال.

الجامعة من دم وحيده بريئة، وطبيب العيادة أيضًا بريء.

وحده هو وولده يتحملان مسئولية عدم تلقي عبدالرحمن للعلاج المبكر مما أدى إلى وفاته..

"لم نكن نريد شيئًا يا جليلة وما كنت لأقبل بمليم كتعويض عن رحيل عبدالرحمن لكن ما أردت أبدًا أن يجعلوا منه جاهلاً أحمق ويجعلوا مني صائد تعويضات"!!

"حسبنا الله ونعم الوكيل!!"

ما قالت زوجته سواها لكن عصمت الغندور قال الكثير.

أخبره أنه ما عاد أبدًا يريد لزوجته أن تزج باسمه واسمها في هذه الأمور.

أخبره كأنه نسي أن دماء وحيده ما زالت تبلل تراب القرية، وأن نزف رحيله ما زال يتدفق في قلب أمه أنه يجب أن يلتزم بمواعيد عمله، ويغلق هذه القصة إلى الأبد.

وحدها أوليجا تغيرت.

ما عادت تذهب إلى مدرسة يُسْر، ولا عادت تزور جليلة في البيت، بل ما عادت حتى تحادثه أو تحادثها على الهاتف.

أسبوع كامل لم يرها فيه.

مجرد مكالمات سريعة تخبره فيها عن مواعيد يُسْر أو الاطمئنان عليها.

مرة واحدة رآها حين طلبت منه شراء بعض الأشياء، حين رأى وجهها لحظة فتحت له باب البيت، شعر بسكين تشق صدره من الألم عليها إن كانت معه.

سألها إن كانت بخير، كان يريد أن يعتذر لها عن كل ما قد يكون تسبب فيه وخاصة غضب زوجها.

نظرت إليه، ومن خلف دمعة صغيرة لمعت في عينيها، قالت:

ـ خذلت نفسي وخذلتك!!

أيام قليلة بين تلك الليلة، وليلة رحيلها.

كان نائمًا في سريره يستعد للذهاب إلى عصمت صباحًا ليخبره بقرار عودته وزوجته إلى بلدتهما وإلى الأبد.

لا شيء يبقيه على أرض مات عليها الحبيب.

عندما كان يتوضأ لصلاة الفجر أخبرته جليلة أن هاتفه يدق، فتح الخط وهو لا يفهم ماذا يدعوها لمحادثته في هذا الوقت ولا تمرين

سباحة لدى يُسْر في ذاك اليوم، فتح الخط ليجد صوتها مرتعشًا باكيًا، يقول:

ـ صعب أن نطلب ممن خذلناهم ألا يخذلونا ولكن ليس لي سواك، أنا راحلة غريب، لا تترك يُسْر ورحمة من حاولت أن أنقذ روحي مع روحه!!

أكملت في هدوء تقول:

ـ أسفل مقعد القيادة في السيارة تجد مظروفًا به بعض النقود، أرجوك احتفظ بها واحتفظ بهاتفك هذا، وحدك دليلي إلى ابنتي.

حاول أن يخبرها أنه سيكون عندها بعد لحظات لكنها أردفت، تقول:

ـ سأعود إلى وطني، سأواجه تهمتي غريب، الهرب أصعب من الموت، إن عرفت كيف أثبت براءتي أحادثك، وإن فشلت بعد أعوام السجن أعود، لا تترك ابنتي أرجوك.

لم يكمل وضوءه، ولم يذهب إلى المسجد، بل ركض في سيارة أجرة إلى بيت الغندور..

بقي على رصيف البيت ساعات لا يعلم ماذا يفعل، هاتفها مغلق ولا يقوى على محادثة زوجها..

في السابعة رأى الصغيرة بحقيبة مدرستها تهبط إليه.

علـى وجههـا كان شـيئًا كالذي على وجهـه لكن ما اسـتطاع أبدا أن ينبس حرفًا أو كلمة.

في الثانية ظهرًا علم أنها رحلت.

حادثـه الغندور الكبير، وطلب منه لقاءه في محطة القطار حيث عاد به إلى البيت وطلب منه الدخول معه.

كان عصمـت كالمجنون، سـألاه ألف سـؤال وأخبرهـم أنه لا يعلم شيئًا.

حين اقترب موعد عودة الصغيرة أمره أن يبقى وأنها سـتأتي مع أحد. أصدقائه.

كره عصمت وكره أخاه الكبير يومها ألف مرة.

حين بكت الصغيرة تقسـم أن أمها لم تمت، وركضت لتأتي بقرطها الـذي لم يفـارق أذنيها منذ رآها للمرة الأولى، تمنـى غريب لو يحملها ويركض بها بعيدًا عنهم.

لكـن إن هو لـم ينتصر على غرباء قتلوا وحيـده بالإهمال والتضليل كيف يهزم أباها وعمها؟!

رأى الغندور الكبير يحملها من ثيابها ويصفعها، رآه يقتلع قرط أمها من يدها ويطلب منه بيعه.

حين ذهب إلى أقرب صائغ في ميدان الدقي وحين علم بسعره وأنه لن يستطيع توفيره على وجه السرعة، مد يده إلى حيث أخبرته أوليجا ليخرج المظروف.

هل هي النقود التي يقول زوجها أنها سرقتها من خزينة بيته.

لا يعلم، ولا يهتم!!

وضع المظروف في جيبه، وأخذ منه المبلغ الذي يساوي ثمن القرط، وعاد يمنحه إلى الغندور..

«لا تتركها أرجوك»!!

عادت جليلة وحدها إلى قريتهم وفي طريقها إلى باب البيت بكى، وهو يردد عليها أنه يتمنى الذهاب معها والبقاء إلى جوار قبر وحيده.

استدارت ونظرت إلى عينيه تقول:

ـ لو تركت ابنة أوليجا لتركتك أنا، كل آية أتلوها على روحه أكررها مرتين، مرة عنك والأخرى عني، ماذا بقي لنا سوى الدعاء والصلاة، لا تترك يسر أبدًا يا غريب!!

ثمانية أعوام ينتظر عودة أوليجا ليعود.

ثمانية أعوام تقريبًا، ويُسْر قطعة من روحه منذ منحها قرط أمها وأقسم عليها ألا يراه أحد.

يشتاق إلى ولده كما يشتاق إلى أمها، حتى جليلة ماتت وقبراهما معًا يناديانه لكن غريب سيطيل الله في عمره حتى عودة أوليجا.

إيمان كبير في روحه يخبره أنها ستعود.

لو أنها مرة تحادثه!!

هي في السجن يا غريب، هي دون شك في السجن.

أجهش في بكاء حاد، وهو يعود من ذكرياته.

ومن منّا حر؟! كلٌّ منا له سجنه، وإن كان دون قضبان!!

من خلف زجاج نافذة السيارة رآها تقبل نحوه..

جن جنونه، هل عادت؟! فتح باب السيارة في جنون، وسمعها تقول:

- تأخرت، تأخرت كثيرًا سامحني!!

عادت، أوليجا عادت!!

ركض نحوها، هل تضمه كما كانت تفعل أيام عبدالرحمن الأخيرة..

صاح يقول:

- أوليجا، سيدة أوليجا، أخيرًا!!

وقفت الصغيرة مكانها في ذهول أيقظ رأسه، وأعاده إلى وعيه، وأرخى رأسه في خجل ليقول:

- سامحيني يا ابنتي، أصبحتِ قطعة منها، لماذا يعيد كل شيء نفسه، ونظن أن الأشياء تتغير؟!

أقتربت يُسر منه، وفتحت ذراعيها تضمه، وهي تقول في بكاء مرير:

ـ اشتقت لها كثيرًا يا عم غريب!!

هل يشتاقون لنا؟!

أولئك الذين يرحلون غادروا الأرض أم لم يغادروها.

هل يشتاقون لنا حقًّا كما نشتاق إليهم!!

إن كانت قيودنا عنهم تمنعنا فكيف لا يصل بهم تحررهم إلينا!!

حتى عناقها كعناق أمها.

فيه حنان وفيه استغاثة!!

أبعدها في هدوء عن كتفيه وأمسك بكتبها وأوراقها عنها وسار بها إلى السيارة قائلاً:

ـ يعودون حبيبتي يعودون، ألم يُسمِّي اللهُ نفسَه الرحيم، يعودون أو يومًا نيأس من عودتهم، اليأس هو الرحمة أحيانًا!!

* * *

يقولون أن الصبايا تكبر حقًّا عندما تحب أو تكذب!!

لا أحـد يعرف من يأتـي أولاً، الحب أم الكـذب أو إن كان أحدهما ضروريًّا لاسـتمرار الآخر أو إن كان أحدهما من رحم الآخر ولد أم أن الحب والكذب وجهان لعملة واحدة!!

مـا علمه عصمت الغندور بالأمس أن يُسْـر ابنتـه كبرت، وهي تضع قدمها في بداية العام السادس عشر من عمرها.

بعد شهور الإجازة الصيفية تصبح في الثانوية العامة، ولم يشعر أنها كبرت إلى هذا الحد..

اسـتدار صدرها، وطال شعرها، وما شـعر أنها كبرت إلى هذا الحد إلا عندمـا حـادث هو شـاهيناز بالأمـس يسـألها إن كان هنـاك دروس تـرى أن تأخذهـا ابنته في العطلـة الصيفية خاصة أنها لـم تتجاوز عامها الدراسي بتفوق كبير.

ما زالـت هذه المعلمة دومًـا مرجعه في كل قرارته المدرسـية، منها يأخذ أسماء المدرسين وأسعارهم وعناوينهم.

فـي نهاية المكالمة أخبرته أنها سـتُحضر له قائمـة بما يريد في حفل الغد.

سكت لحظات، وعاد يستفسر منها وضحكت ضحكة صغيرة تعاتبه على نسيانه أهم وأكبر حدث تنتظره هي وابنته.

"يُسْر سترقص صولو، وتغني للمرة الأولى في حفل معهد الباليه الذي ستنقله شاشات التليفزيون"!!

عندما لم يجبها أكملت تقول في عفوية:

"إن كنت تريد مزيدًا من التذاكر؛ أترك لك على الباب سيد عصمت، لكنها أخبرتني أنها لا تريد سوى تذكرة واحدة لك فقط"!!

بعد لحظات من التلعثم أخبرها أنه قد لا يتمكن من حضور الحفل، وأنه يرجوها ألا تخبر ابنته، فقد يستطيع في أي لحظة الهرب من موعده المهم..

شكرها وشكرته في جفاء واضح، كأنها صُدمت فيه مرتين مرة؛ لأنه نسي والأخرى؛ لأنه حتى بعد أن ذكّرته أعلن عدم حضوره.

أغلق الخط وأصابه ذهول كبير، مكث لحظات طويلة يحدق في الفراغ.

ابنته لم تخبره عن الحفل، بل أخبرته منذ أيام أنها مدعوة لعيد ميلاد إحدى صديقاتها، وأنها قد تتأخر حتى منتصف الليل؛ يعرف صديقتها ويعرف هاتفها.

خابرها في حوار سريع وسألها، كأنه لا يعني شيئًا عن أي شيء يفعلونه هذا المساء، وحين أجابته الصديقة أنها في انتظار يُسْر في عيد مولدها علم أن ابنته كبرت حد الكذب!!

لمن التذكرة التي أخذتها؟!

هل أصبحت الصغيرة عاشقة جريئة إلى حد الكذب وحد منح تذكرة إلى فتاها ليراها ترقص وتغني وتُبقيه هو بعيدًا لئلا يرى أو يسمع!!

كان بإمكانها أن تدعو من تحب حتى في وجوده، ما كان عصمت ليعرفه أبدًا.

يُسر تكذب كرهًا لا حبًّا!!

في هدوء مال بمقلاة البيض التي يحملها لتنزلق عيون البيض، وخرج بها إلى صالة البيت يناديها يخبرها أن الإفطار جاهز.

جاءت في سكون، والتقطت منه صحن عيون البيض التي تحبها، وسألها دونما اكتراث:

- هل اشتريت هدية لهند؟!

هزت رأسها بالإيجاب، ثم قالت كأنها تخشى أن يطلب رؤيتها:

- ستُحضر الهدية إحدى صديقاتنا، هدية واحدة كبيرة نتقاسم ثمنها.

وضع الغندور قطعة من الخبز بين أسنانه، وضغط عليها في مرارة قائلاً:

- لم تطلبي نقودًا؟ وتعلمين أنك تخرجين وأنا نائم.

وضعت الشوكة إلى جوار صحنها ونظرت إليه نظرة سريعة متشككة، وأردفت:

- بل كنت سأفعل بعد انتهاء الإفطار.

ابتسم في مرارة يقول:

ـ لـم تكونـي تعلمـي أننا سـنفطر معًا، نحن فـي إجـازة، ولا تمرين سباحة لديك اليوم.

قبل أن تبحث عن أكاذيب جديدة، عاجلها بسؤال يذبح قلبه، وقال:

ـ هل تكرهينني إلى هذا الحد؟!

رفعت الشـابة الصغيرة عينيها، وأرختهما بسـرعة كأنها خشـيت أن يرى ما لا تعلم حقيقته بين ضلوعها.

هل حقًّا ما باتت تعلم إن كانت تحبه أم تكرهه؟!

شعر أنه يختنق، قتلته شاهيناز بالقصة التي كشفتها، وتقتله ابنته أكثر بإصرارها على إخفائها.

من خلف دمع مكتوم أكمل يقول:

ـ لست مسئولاً عن رحيل أمك، لست مسئولاً أبدًا عن خذلانها لك ولي، أيضًا لست مسئولاً عن ما فعله عمك بهجت ذاك اليوم.

في حدة، وفي صوت هادئ، كصوت أوليجا أجابته:

ـ قد لا تكون مسـئولاً عن فعلة أخيك، لكن ظننت أنني أنا المسئولة منـك لا منه، ظننـت أن من يحرمني من قرط أمـي، أو يصفعني ويذلني إن كان لـكل هـذا تفسـير أو تبريـر فهو أنـت لا رجل غريـب يكره أمي ويكرهني.

قاطعها في حزم رغم الألم:

ـ عمك ليس غريبًا، هو بمثابة أب لي، ربما كان الخطأ أنك لم تتعلمي يومًا كيف نقف في حضور الأب.

بألم حاد رفعت عينيها تنظر إليه كأنها تسأله أين هو الأب؟!

لم تكن بحاجة؛ لأن تنطق الكلمات كان واضحًا أن عصمت سمعها بوضوح.

ألقى بمنديل المائدة في صحنه، ونهض يغالب دموعه، وهو في طريقه إلى غرفته وقبل أن يغيب عنها استدار يقول:

ـ استمتعي بحفلك اليوم، استمتعي به في غياب أم سرقت وهربت وغياب أب على خطاياها تحاسبينه!!

دمعة صغيرة تلألأت في عيني الشابة الحائرة.

أبوها ليس قاسيًا، ليس قاسيًا أبدًا، لكن أحيانًا يكون الضعف أكثر إيلامًا من القسوة!!

***

أخبـر "غريب" أن يعـود بابنته إلى البيت بعد انتهاء موعدها وينتظره أسفل المكتب.

لم يقل له "حفل عيد ميلاد هند" وقال "المكتب" وغدًا في الصباح يسأله عن الحفل ليرى إن كان غريب هو الآخر أصبح مثلهم في الكذب غارقًا.

حـادث "إلهام" وأخبرها أن تنتظره في المكتب، لكن لا رغبة له في شـيء من هذا، شيء كبير كسـير في قلبه وروحه، شيء آخر كبير يطالبه بالذهاب إلى الحفل، يريد رؤيتها، لم يكن يعلم أنها أيضًا تغني!!

"كاذبة عاشقة تغني"!!

ترى ماذا أيضًا يجهله عنها؟!

لـم يسـتطع أبـدًا أن يقاوم رغبتـه أكثر، توجـه إلى مـكان الاحتفال، وهـو لا يعلم كيف يدخل دون تذكرة، وهل تراها شـاهيناز تجيب على هاتفها، أو تسمعه أثناء الحفل الكبير كما قالت..

سـيارات كثيرة كانـت تقف، وحين عبـر البوابة وحتـى وصوله إلى باب القاعة لم يسأله أحد إلى أين؟!

أصبح كل شـــيء لدينا مفتوحًا، أبوابنـا وأفواهنا وفضائحنا إلا قلوبنا ورؤوسنا وحدها مغلقة عن الحقائق حتى عن أنفسنا!!

هو أيضًا قلبه ورأسه على ما فيهما مغلقان..

حيـن كان يدفـع بيـده بـاب القاعة المغلق شـعر بأحد رجـال الأمن يربت على كتفيه قائلاً:

ـ هل كنت بالداخل سيدي؟!

ابتســم الغنـدور وأجابه كأنه يشـكره على كذبة جديـدة يضعها على لسانه قائلاً:

ـ نعم، خرجت لإحضار شيء من سيارتي.

الكذب يفتح الأبواب حقًّا!!

أفسح الطريق ليدخل إلى القاعة، ويقف في صمت يرقب ما يدور.

كان العرض دائرًا، والرؤوس الجالسـة كثيرة، وأرخى الغندور عينيه في ألم.

يُسْـر ليسـت على المسـرح، ربمـا أدت فقرتهـا وانتهـت، ربما جاء متأخرًا كالعادة!!

بحـث بعينيـه عـن مقعـد خـاوٍ وجلـس فـي الصـف الأخيـر يرقب العـرض، كانـت مجموعة مـن الفتيـات الصغيرات يرقصـن، وكان هو يرقب في صمت.

حين دوى التصفيق لهن ابتسم، بإمكانه أن يعرف والدَيْ كل فتاة كانت ترقص.

هؤلاء الذين يصفقون بحرارة، هؤلاء الذين تتمايل رؤوسهم، وتلوح أكفهم للواقفات على المسرح هن آباء وأمهات جاءوا يتنسمون لحظات من الحب والفخر.

عادت الأضواء إلى الانطفاء، وبدأ إيقاع الموسيقى خفيضًا، وصوت كأنه حفيف شجر وخطوات رشيقة تخطو على المسرح، وكاد قلبه أن يتوقف.

هي ابنته تدخل وجسدها على أطراف أصابعها ترتدي ثوبًا أبيض وحول شعرها طوق من الزهر الأبيض تؤدي رقصة على موسيقى Classic box.

رآها وهي تدور في خفة، وتطير في الهواء مفرودة الساقين، ثم تعود إلى الأرض وتتكور كأنها زهرة صغيرة، وحين يعلو صوت إيقاع الموسيقى تعود للنهوض من جديد.

كلما رقصت، كلما رفعت ذراعيها ودارت بهما كأنهما طواحين أمستردام رأى أوليجا بوضوح أكبر.

كلما انثنت واستدارت بوجهها عكس الجمهور رأى شعر أوليجا مثبتًا بمشابكه البيضاء على رأس ابنته.

غاب الغندور!!

غـاب عـن كل الحضـور حين حضـرت أوليجـا، ولـم يبـقَ في تلك القاعة الكبيرة سواها هي وابنتها.

الصغـرى على خشبة المسـرح ترقص، والكبـرى على أوتـار قلبه بقدميهـا، وقطـع الحديد النائمة في حذائها تحفر في جفنيه أنهار شـوق وبكاء..

ما عاد يعرف أيهما الابنة وأيهما الزوجة؟!

كلتاهمـا في قلبـه كذبتا عليـه، وأبعدتاه عـن طريقهمـا، وهو بدوره يكذب ويترفع ويدَّعي لهما معًا أنه لا يهتم ولا يبالي.

تمنـي لو رفع كفَه، وأشـار إلى ابنتـه يخبرها أنه هنـا، وتمنى لو رفع كفـه الآخر إلـى أوليجا يخبرها أنها بقيت هنا لكـن كما هم يكذبون هو لا يُفصح!!

والصمت كالكذب أحيانًا!!

اهتـز جسـده، وهو يسـمع القاعة ترتـج بالتصفيق لهـا ورآها تنحني كأنها زهرة تغمض أوراقها على فرع يانع أخضر..

صفقـوا لها كثيـرًا وطويلاً رغم أن أحدهم ليس أباها أو أمها بينما لـم يحرك الأب الحقيقي كفًّا على الآخر.

لا قواعد في الأرض ولا مسلمات أبدًا!!

فقـرات أخـرى كثيرة أو قليلة بعد رقصة يُسْـر جاءت، لكن هو لم ير أو يسمع شيئًا إلا استدارة رأسه كل لحظة، والأخرى كأنه يتوقع أن يرى أوليجا أو يُسْر تخطوان نحوه.

تعـب الغندور!! تعب كثيـرًا، لا نجح دور الأب الحـازم في احتواء ابنته، ولا نجح دور العابث الماجن في محو ذكرياته.

نهـض عن مقعـده، وتوجه إلى باب القاعة فـي طريقه إلى الخروج، وسمع صوت شاهيناز على المسرح تقول:

ـ كمـا أبهرتنا يُسْـر الغندور برقصتها، أدعوكـم جميعًا لاختتام حفل اليوم على صوت غنائها في أغنية من اختيارها.

دمعة حائرة رقصت بين جفنيه.

فليفتح الباب ويخرج، لم تدعه، بل لم تخبره يومًا أنها تغني.

إلهام تنتظره، لفائف حشيشه تناديه.

وضـع كفّه على مقبـض باب القاعة يديره، وقبل أن يدلف من الباب ارتفع صوتها وحده دون موسـيقى، وشـعر أن كل من في القاعة حبس أنفاسـه، ودون وعي اسـتدار ينظر إليها من بعيد حيث بدأت الموسيقى تتداخل مع صوتها.

كانت في منتصف المسرح تقف، والميكروفون يتدلى أمام شفتيها، بدلت ثيابها وارتدت ثوبًا قصيرًا في لون قشرة الليمون.

كانت تغني أغنية "أخبرني لماذا"؟!

"في أحلامي أرى الأطفال يغنون

أغنية الحب لكل الناس

في أحلامي..

أرى السماء زرقاء والحقول واسعة خضراء

والحب وحده

الحب هو لغة الأرض!!

حين أصحو لا أجد سوى قلوب حائرة

أخبرني لماذا يجب أن يكون الواقع بهذه القسوة؟!

هل هناك شيء غائب عن عيني؟!

أخبرني لماذا؟

فأنا حقًا لا أفهم!!

أخبرني لماذا لا نمد أيدينا ونمنحها لمن يحتاجها؟!

في كل يوم أتساءل:

كيف نكون إنسانًا؟!

أخبرني لماذا نحارب لنحيا؟..

بل أخبرني كيف أحيا؟!

لماذا نقسو؟!

لماذا نكذب وندعي الحب وقلوبنا بالكراهية تضج؟!

لماذا نهرب من مسئولياتنا؟!

لماذا نقتل ونحرق أجمل ما لدينا وأحلى ما بيننا؟!

أخبرني لماذا دومًا نتبادل الاتهامات..

وأبدًا أبدًا ما استطعنا أن نكون أصدقاء!!"[1]

كم كان صوتها هادرًا ناعمًا، باكيًا مستنفرًا..

كيف لم يعرف ابنته؟ وكيف لم تعرف هي أباها؟ وكيف حقًّا لم يستطيعا أبدًا أن يكونا صديقين..

ربما؛ لأنهما عرفا عن أحدهما الآخر أكثر مما ينبغي لإنسان أن يعرفه عن آخر ليكون صديقه!!

حين نهض، كان كل من في القاعة يصفقون، وكان وحده يبكي في جنون، وينظر إلى ظهورهم ورؤوسهم.

تُرى أيّهم الذي دعته ابنته لمشاهدتها؟!

رجل أم فتاة؟!

من خلف دمعاته رآه يتقدم نحو خشبة المسرح، وهو يصفق في جنون، كأنه يود الصعود إليها، في اللحظة التي أغلقوا فيها الستار استدار الرجل، وتقدم الغندور نحوه رغم سير الجميع نحو الباب..

(1) أغنية Tell me why.

التقيا في منتصف ممر المشاة، ورأى على وجهه دمعات كالتي على وجهه، وقف أحدهما أمام الآخر، وقال الغندور في صمت:

ـ تُحبها يا غريب؟ تحبها كما أحبها أنا؟ أم تحبها كما لم تعرف هي أنني أحبها؟، أم تُراك فقط تفعل؛ لأن ولدك مات، وأمها تخلت؟!

***

حطمـوا جـدار برلين وكسـروا خط بارليـف ويعبرون سـور الصين العظيم؛ لأن لا أحدهم في قوة وصلابة حائط يقف بين قلبين، وإن كان قلب أب وابنته.

منـذ خرجت من احتفال المدرسـة، ووجـدت غريبًـا ينتظرها بعينه الدامعـة، منذ ضمته وسـمعته يشـكرها كثيرًا علـى اصطحابها له، ومنذ بالتحديـد أخبرهـا عن حضور أبيها، ووعدها له بعـدم إخباره لتعهده له بذلك، وهي تتألم.

أخبرها غريب أنه كان يبكي، أخبرها أنه كان يتألـم؛ لأنها لـم تدعوه.

ليتها تعلم كيف تضع يدها على الحقيقة في صدرها.

وصية أمها كانت صعبة جدًّا، في تلك اللحظات، وحين كانت طفلة في الثامنة، أقسمت لها ألا تكذب، واليوم وهي شابة في السادسة عشرة أدركت أننا نادرًا ما نصدق مع أنفسنا..

تحبـه وتحتاجه، وتتمنى لو ترتمي بين ذراعيـه، وتبكي طالبة منه أن يخرجـا معًـا للبحث عـن أوليجا، بل تتمنـى لو تسـتطيع أن تجلس إلى جواره، ويستعيدا معًا قصصها معهما..

رائحة عطرها، لون ثيابها وطعم خبزها..

شيء أكبر منها يمنعها حتى عن ضم والدها إلى صدرها.

منذ تلك اللحظة التي لطمها عمها فيها أمامه، منذ تلك اللحظة التي صاحا فيها معًا أن أمها سارقة آثمة وجدار كبير يفصلها عنه، وحتى عن نفسها.

ما عادت يُسْر أبدًا تستطيع أن تعرف إن كانت تحبه أو تكرهه، أو كيف تعبر عن حبها إن كانت تفعل أو تحتمي بلعناتها عليه إن لم تكن.

لا شيء يقتل روحها سوى وصية أمها، أخبرتها أنها لن تجدها إن لم تكن مع نفسها صادقة.

الصدق مع النفس أصعب حتى من الصدق مع الآخرين!!

بعينيها ترمق عصمت كل صباح بعد ليلة الحفل، وفي عينيه شيء يناديها، وشيء آخر يسألها..

في عينيهما معًا أطياف هزيمة كبيرة.

لا استطاعا أن يحييا بعد رحيل أوليجا، ولا هما في عداد الأموات.

رقصها الباليه لن يعيد أمها، تمارين السباحة لن تحطم جدارًا بينها وبين أبيها.

تنهي دراستها الجامعية وتسافر.

نعم إن لم تظهر أوليجا حتى ذاك الحين تسافر هي بحثًا عنها.

كل أكاذيب الأرض، كل مخاوف البشر وزيف الكبرياء لا يستطعيان أبدًا أن يحجبوا حاجتها إلى أمها وحبها لها.

أخبرها غريب أنها وعدته بالعودة كما وعدتها.

حين تجدها وبين ذراعيها تسألها أن تساعدها لتجد عصمت بداخلها.

عندما تجد أمها، قد تسامح أبيها، وترى أين يقع مكانه في قلبها.

لكن هل يبقى حب إن سقط إيمانك بقدرة من أحببت على حمايتك؟!

سقوط الرجل من عين المرأة، وإن كانت ابنة يبيد الحب، وإن كان عشقًا وبنوة!!

مؤلم أن تبحث عن الحب مع هاربة منها، وتهرب من الحب مع مقيم معها.

ليس ذنبها أبدًا أن أحدهما باع الآخر، ليس ذنبها أبدًا أنها رغم هذا ما زالت تريدهما، ولكن معًا!!

لماذا لا تتحدث إليه؟! لماذا لا تخبره أنها تائهة خائفة من فقدانه كما ترتعد من فكرة فقدانها.

علام تعاقبه، وهي التي بسياط العقاب تكتوي؟!

ترك أوليجا ترحل؟! ترك أخاه يهينها؟! ترك سائق وحده يضمها ويحنو عليها؟!

لِمَ لا تشفق عليه وكيف ما زالت ترثيه!!

كأنهـا حزمـت أمـرًا، وكأنهـا اختـارت قـرارًا، خرجت مـن غرفتها لتجـده في صالة البيت مرتديًا كامل ملابسـه في طريقه إلى رحلة مكتبه المسائية..

نادتـه، واسـتدار نحوها ينظر إليها نظرة طويلـة جريحة أرخى بعدها عينيه، وقال:

ـ تريدين شيئًا؟!

أرخت الشابة الصغيرة عينيها في ألـم، ثم قالت:

ـ لـم تترك لي شيئًا أريده أو منك أطلبه!!

* * *

لم يكن يريد من الحياة سوى ما يسّرته له الأقدار..

أصدقـاء وبعض كؤوس مـن الخمر، ولفافة أو اثنتين من الحشـيش وأوليجا وابنته..

لمـاذا يجب أن يعمـل ويقفز من محكمة إلى أخرى، ويكتب مرافعة يسجن بها بريئًا أو يخلي بها ساحة مجرم لكي تحترمه امرأة؟!

ثروة والده كانت تغنيه عن هذا فَلِمَ أسـقطته الحقيقة من عين أوليجا وروحها!!

لم يلجأ الغندرو إلى جسد امرأة سواها إلا عندما أدارت عنه ظهرها، بل عندما أشاحت عنه بعينيها.

لا شيء يقتل رجل سوى موته في عيني امرأته.

أكان صعبًـا عليهـا أن تتفهـم زهـده في العمـل، أكان لزامًـا عليه أن يطحن روحه وعقله في أكاذيب فقط لكي يصبح رجلاً عاملاً؟!

قبـل بهـا راقصة هاربة متهمة فـي جريمة قتل قد لا تكـون منها بريئة بينما لفظته واحتقرته لمجرد أنه كان معها ومع نفسه صادقًا.

يريـد أن يحيـا حياتـه في اللهـو والحب، فمـا الخطـأ إن كان يملك ثمنهما؟ حتى ابنته يشعر بها لا تحترمه.

حين غادر البيت منذ لحظات رأى في عينيها اتهامًا كبيرًا، ما سُبَّته عندها هي الأخرى؟!

ذبحته حين قالت في مرارة، لم تترك لي ما أحتاجه منك؟

حتى هذه الصغيرة تراه عاجزًا عن إشباع احتياجاتها.

تمنى لو يجذبها من ذراعها إلى صدره، تمنى في تلك اللحظة لو هدم جدار الصمت والكبرياء بينهما وضمها إلى صدره، وصاح في أذنيها أن عناقه عن عناق غريب يختلف.

هو يحبها!!

زحفت دموعه في هدوء على وجهه، والتقطها غريب في مرآة السيارة بعينيه في ألم.

كان يومًا أبًا، ويعلم ما يدور في قلبه، وقال في لوعة صادقة:

ـ سيد عصمت، هل أنت بخير؟!

ابتسم السيد في مرارة، ولم يجب.

حمل الأكياس السوداء التي أحضرها كالعادة، وصعد إلى مكتب مغامراته، أخبره ككل مرة أن بإمكانه الذهاب إلى بيته على أن يعود في الثالثة فجرًا، وأجابه الغريب ككل مرة أيضًا أنه سيبقى في السيارة يقرأ القرآن، ويغفو إن أصابه التعب..

في عيني عصمت شيء يريد قوله، وفي قلب الغريب شيء يريد إطلاق سراحه، لكن كلاهما أرخى عينيه، وقال الغريب في انكسار:

ـ مـن لـي في البيت سـوى الألـم، وأشـباح الذكريات، هنـا أفضل، عندمـا أعـود في الفجر مرهقًا أنـام، الإعياء وحده أقـوى من الذكريات والأشباح.

كان عصمت يقف على بعد خطوات حين قال كلماته تلك، واقترب ينظر في عيني سائقه قائلاً:

ـ الأشـباح أفضل من أحياء يطلقون عليك رصاصات اتهامات لا يد لك فيها، ولا حيلة أيها العجوز.

ترقرقت في عيني غريب دمعة، قال بعدها في ألـم:

– لا أخلى الله لك دارًا من أهلك.

جحيم قسوتهم ولا رياض رحيلهم!!

لا يعلم، إن كان قد سـمع كلماتـه الأخيرة، لكنِ يكفيه أنه قالها، هل الرجـل حزيـن كل هذا الحزن لأن يُسْـرًا لم تدعُه إلـى ذاك الاحتفال؟! أخبرته أنها تعلم أنه يتألـم كلما رآها ترقص الباليه كأمها، أخبرته أنه يكره كل ما يذكّره بها، وأنها حقًّا لـم ترد إيلامه.

قالت "أنا وأنت فقط نحبها"!!

نعم، هما فقط يحبانها، والآن أصبح يحب ابنتها كما لم يكن يتخيل يومًا أنه يفعل.

هذه الشابة كبرت كولده أمام عينيه، بعد رحيل أمها، وموت ولده أصبح معها كظلها، إلى المدرسة ومنها، إلى شاهيناز وإلى الأسواق تشتري ثيابها، لا ثوب اشترته دون أن تخرجه من صندوقه وتريه له.

أصبحا صديقين حقًّا يوم عاد إليها يوم خروجها من المدرسة عقب عودتها من دمرو بعد أيام العزاء الوهمية تلك.

أوقف السيارة في أحد الشوارع، واستدار إليها يقول:

ـ أعلم أنك حزينة لرحيل السيدة أوليجا، وأعلم أنك حزينة لما فعله عمك، والعزاء الذي أقامه، أنا لن أدافع عنهم، لكن عندي شيء صغير، قد يسعدك قليلاً، فقط عاهديني أن يبقى سرًّا بيننا؛ لأنك إن أفشيته قد لا أراك ما بقي من العمر، وأنا عاهدت أمك أن أبقى معك حتى تعود أو أموت، فهل تقبلين؟!

رغم أعوامها الثمانية، ورغم ضفائرها الساكنة على كتفيها في تلك اللحظات، رفعت عينيها الرمادية الواسعة، ونظرت إليه كأنها تتوسل إليه أن يفعل.

ومن منا لا يتوسل الفرح، وإن كان من "غريب"!!

مد نحوها كفه المغلق، وقال في شيء يشبه الابتسامة:

ـ افتحي كف الغريب!

حين لمست كفه بأصابعها الصغيرة، حين فتحت أصابعه، ورأت ما بينهما بكى كلاهما في صمت..

كانــت دمعاته مع دمعاتها يزحفان كلٌّ على وجنتي أحلامه الضائعة، وآماله المبتورة..

قال وصوته يرتجف:

ـ لم أستطع أن أبيعه، هو لك، فقط لا تدعـي أحدًا يراه حتى إحدى اللحظتين عودتها أو موتى، هل تعدين!!

التقطـت الصغيـرة قرط أمهـا وضمته إلى شـفتيها في جنـون، وهي تقول:

ـ لمـاذا تطلب منـي وعدًا صعبًا كمـا طلبت؟! لمـاذا لا أحد يعدني وأعد أنا الجميع؟!

من خلف دمعاته تلك اللحظة بحث عن شيء يعدها به فوجد أنه لا يملك سـوى عمر لا يعلم مداه، وقلب انقطعت سواها من الدنيا جميع خطوط رجاه، وقال:

ـ الغريب يعدك بما تشائين!!

***

تشعر أن نهايتها معه اقتربت، وأنه فقط لإشفاقه عليها يبقيها..

ليست إلهام مجرد جسد يلقي بداخله شحنات ملله وغضبه، بل هي أقرب إلى خليلة قديمة اعتاد وجودها..

يأتمنها على مفتاح بيته وطهو طعامه، يتحرر من خجله ويبكي أمامها ويهذي أحيانًا بقصص وكلمات إن حدث وسألته فيها قد يجيب أو لا يجيب أسئلتها دون أن تغضب أو حتى تعيد سؤالها.

لكن تشعر أنه بدأ يفقد قدرته على الاحتفاظ بها، ما عاد جسدها أبدًا حتى بالمنشطات يستنفره ولا عادت تراه يتناول ما تطهوه بذات الشهية القديمة.

أصبح عدد من يدعوهم إلى السهرات أكثر وأصبح لا يبالي حتى بمن يحضرونه أو ما يحضرونه معهم، كأنه يحاول أن يجد شيئًا جديدًا يغرق فيه.

كان يجلس بعيدًا إلى جوار أحد أصدقاء شلتهم القديم يدخن لفافة من لفائف حشيشه، أصبح نهمًا إلى أبعد حد.

ذهبت إليه وانحنت على أذنيه تهمس قائلة:

ـ يريـدون طلب وجبة كبيرة مـن "الكباب" عصمت، المزات تكفي ستدفع كثيرًا فالعدد كبير..

من خلف الدخان ضحك قائلاً:

ـ دعيهم يا إلهام، دعينا نأكل اللحم ما دمنا نعجز عن اقتحامه!!

ابتعدت في سكون ومال صديقه يقول مازحًا:

ـ عصمت، آن الوقت لتجرب شـيئًا جديدًا سـوى الحشيش وإلهام، العيب ليس في اللحم أو "الصنف"، بل في نوعيهما!!

بعد دقائق طويلة أقنعه بتجربة جرعة واحدة مما يحمله في جيبه.

كأنها السـحر، ما أن تخللت أنفه حتى شـعر عصمت بأن كل شـيء تلون بألوان جديدة واستدار إلى صديقه يطلب منه جرعة أخرى.

في تردد أخبره أن ما أخذه يكفي رجلين، وصاح عصمت ضاحكًا:

ـ أنا بألف رجل!!

حـاول أن يثنيه إلا أنه أخرج له من جيبه نقودًا كثيرة وضعها في يده، وصاح يقول:

ـ شهور وأنت تطاردني لأجرب وحين استزيدك الآن تتمنع!!

لحظات أخرى سـكت بعدها كل شيء، سـكتت جميع الضحكات الصاخبة ورنين الكؤوس.

سـكت الجميع حين صـرخ عصمت صرخة كبيرة اسـتداروا بعدها ينظرون إليه.

كان واضعًا يده على صدره ورأسه يتصبب عرقًا غزيرًا وسمعوه جميعًا يئن قائلاً:

ـ أختنق، أنا أختنق!!

وحدها إلهام من ركضت نحوه تدجج صديقه بنظرة مجنونة نهض على أثرها يخبر الجميع أن عصمت تناول جرعة كبيرة قد تودي بحياته، وقد تضعهم جميعًا في السجن.

لم ينه جملته تلك إلا وقد خلا المكان من كل من فيه كأن نارًا اشتعلت، وهم من ألسنتها يفرون!!

كان الغندور يتألم، وإلهام تغسل له وجهه ببعض قطرات من كأس ماء كان أمامه وتسأله باكية ماذا يريدها أن تفعل.

"ساعديني للنزول، غريب في السيارة، ساعديني لأصل إليه".

حين حاولت النهوض به عن مقعده، سقط منها، وحين استدارت تنادي رفيقه لم تجد أحدًا.

هرب الرجال، وبقيت الغانية لكن ما عساها تفعل؟!

شعرت بعصمت يغيب وركضت كالمجنونة على سلالم البيت وحين وصلت الشارع رأت غريب يقف أمام السيارة ينظر حوله في ذهول.

يعرفها وتعرفه، فهو من يحضر لها ما تحتاجه من لوازم الطهي أحيانًا.

ركضت نحوه، وصاح يقول:

ـ ماذا حدث؟! رأيت الجميع...

قبل أن يكمل كانت تجذب ذراعه وتصيح:

ـ عصمت لا يتنفس، سقاه أحدهم "هيروين".

عجوز هو غريب مثقل بإرهاقه وسهره وصحوة أوجاع لا تنام، وثقيل هو عصمت بضعفه وتمزق أنفاسه.

لطمت إلهام وجهها عندما وجدته عاجزًا عن حمله وصاحت:

ـ هل استدعى أحد من الجيران ليساعدك؟!

شحذ جميع قواه وعزمه، ورفع سيده من ذراعيه على كتفيه خلف ظهره، يقول:

ـ ما زال الفلاح قويًا، احضري المصعد من فضلك بسرعة.

كانت أنفاسه ممزقة محشرجة ورغم هذا ضحك ساخرًا، يقول:

ـ منذ الطفولة لم يحملني أحدٌ على ظهره أيها العجوز!

خذل العجوز ظهره بعد عدة خطوات ليسقط بسيده على الأرض، واعتدل بأكثر سرعة استطاعها يسأل إن كان بخير ليجد وجهه أحمر باختناق أنفاسه، وبكى الغريب كالأطفال.

مات الفلاح القوي بداخله يوم هجر أرضه، ومات النبض فيه يوم رحيل ولده فكيف لميت أن يحمل ميتًا!!

حاول النهوض، وهو ينادي إلهام لتبقى إلى جواره ريثما يحضر طبيبًا لكن أسرع عصمت بيده إليه يحاول الحديث قائلاً:

- اصمد، لا تبك. اصمد!!

علا صوت بكاءه أكثر، وهو يردد:

- لن أدعك أبدًا تموت، ليس لها سواك، لا تتركها.

ظنت إلهام أن الغريب عنها يتحدث وحين حاولت أن تتقدم نحوه سمعتِ خليلها يقول كأنه يزفر أنفاسه جميعًا:

- مسكينة هي!! قدرها أن تبقى مع الغريب.

قبل أن يجيبه رأى كل شيء فيه يسكن إلا ابتسامته الساخرة وعيناه المفتوحتان.

صرخت إلهام من خلفه، تقول:

- لا أستطيع البقاء، سأبدل ملابسي وأذهب، أرجوك لا تأتِ باسمي على شفتيك، لي ابنة وأم ليس لهما سواي.

لم يشعر بها حين غابت، أو حين عادت لتمرّ من جوار جثتيهما معًا، لكنه أفاق على صوت الباب، وهو يُصفق من خلفه لينتفض ممسكًا بكف الرجل البارد، ويعاود بكاءه من جديد.

مات الغندور.

مات وتركها مع الغريب!!

* * *

كان يرتجف من الإعياء والتعب حين أنهى تنظيف البيت بالكامل، وتخلص من جميع قناني الخمر، وفضلات المخدرات، والأطعمة كما طلب منه الغندور الكبير، حتى فراش غرفة النوم أعاد ترتيبه ووضع عليه أغطية نظيفة..

لم يصدق نفسه أبدًا عندما استطاع حمل جثة الغندور إلى سريره، وأسجى على وجهه الغطاء.

هل أصبح الرجل أخف وزنًا عندما تحرر من كل أعبائه وخطاياه، أم أصبح الغريب أكثر قوة في حضور الموت.

السابعة صباحًا والغندور الكبير لم يصل بعد.

لا يصدق أبدًا أن أبيها في الغرفة ميت، وهي هناك نائمة في فراشها تنتظر عودته.

رمى بجسده المنهك على أحد المقاعد، وأغلق عينيه بعد أن دار بهما في أنحاء المكان يطمئن أن البيت للمرة الأولى منذ أعوام عاد كذاك البيت القديم لكن مع غياب كلتا صاحبتيه.

غاب في النوم ساعات، وأفاق على حضور الغندور، ومعه مفتش صحة المنطقة.

تمتم الغريب بكلمات عزاء صغيرة تبع بعدها الزائرين في صمت إلى غرفة النوم، لم يفعل مفتش الصحة شيئًا سوى أنه نظر إلى وجه الرجل في استخفاف، وأعاد الغطاء عليه، ثم جلس يكتب شهادة الوفاة، نهض بعدها يمد يده إلى الغندور قائلاً:

ـ هبوط حاد في الدورة الدموية هو سبب الوفاة لكن لن نذكر أبدًا سبب الهبوط ذاته.

دون كلمة واحدة ودون أن يهتز للغندور جفن أخرج من جيب جلبابه الواسع رزمة من النقود منحها للرجل قائلاً:

ـ أشكر لك تفهمك.

كان واضحًا أن الغندور أبرم اتفاقًا مع مفتش الصحة، وتنفس الغريب الصعداء.

ذبح نفسه في تنظيف البيت وإخفاء أي دلائل على المخدرات ونسي أن النقود وحدها من تتحدث.

حين غادر الزائر بغنيمته استدار هو بعد أن أغلق دونه الباب ليجد الغندور الكبير يجلس على أحد مقاعد الصالة قائلاً:

ـ سيارة نقل الموتى في طريقها إلينا مع فريد وبعض الشباب، نأخذه وندفنه اليوم، اذهب أنت وقم بإغلاق بيت الدقي وبيتك واحضر الفتاة إلى دمرو، علاقتنا جميعًا بهذه المدينة انتهت كفاها من وما أخذت!!

في ألم كبير رفع وجهه ليقول:

ـ ألن تذهب إلى يُسر، من يخبرها؟! ماذا أقول لها؟! ألن تودعه؟!

دون اكتراث أجابه:

ـ لا وداع! قل لها ما شئت فلست أنتظر منها خيرًا كبيرًا!!

قبل أن يكمل كان هاتف غريب يهتز بين طيات ثيابه، وحين أخرجه فتحه دون اكتراث لوجود الغندور الذي كان يراقب وجهه في ذهول ورأى دمعاته تزحف على وجنتيه.

كانت يُسْر تقول في خجل وخوف:

ـ اعتذر، أعلم أنك نائم لكن "بابا" لم يعد حتى الآن، هاتفه لا يجيب، هل تعلم أين هو؟!

إلهام لم تترك شيئًا حتى هاتف الغندور أخذته معها ورحلت!!

***

رغـم العناق والأسـرار، رغم العمـر والتاريخ إلا أنهـا المرة الأولى التـي تجلس فيهـا على المقعد إلى جوار غريب فـي طريق عودتهم إلى كفر الشـيخ، تعلل هو بوضـع بعض من حقائبها علـى المقعد الخلفي؛ لأنه حقًّا يريدها إلى جواره.

مجهد هو حتى الإعياء، وحده طرق بابها في الصباح.

وحـده دخل البيت، وجلس علـى مقعد والدها، وبعد صمت طويل رفع عينيه السـوداء الصغيرة يرمق سـكونها وارتعاشـة أنفاسـها بعد أن سألته أكثر من مرة عن والدها.

نظـر إليهـا طويـلاً، صغيرة هـي لكن هل هنـاك في العمـر حد أدنى للألم؟!

عـاد بنظره إلى كفيه المجعدتين، ربما كان فـي هذا الألـم خيرًا، قبل أن تدرك حقيقة ما كان يفعله أبوها..

إن كان حقًّـا وضع ما يسـمونه "الهيروين" في فمه، أو أنفه كان أمره سيُفضح، بل ربما تعدى عليها أو أعتدى عليها!!

الغندور الكبير لن يتركها.. سيحتضنها فلا أبناء له سوى فريد.

كفر الشيخ هواؤها أنقى، هو أيضًا كان يجب أن تأتيه لحظة، وينتهي دوره هنا قبل أن ينتهي عمره.

نظرة خاطفة سريعة مندهشة رمى بها إلى وجهها، وهي تجلس على المقعد البعيد!!

لِمَ لم تكرر سؤالها أو تستنكر صمته.

كان وجهها واجمًا صامتًا، ورغم القلق والخوف إلا أن سكونًا كبيرًا كان يغمرها.

الوقت قصير ويجب أن يعود بها لكن كيف وأين يجد كلمات يخبرها بها.

كأن روحًا غير روحه سكنته، كأن يدًا غير يده العجوز الضعيفة امتدت نحو صدره، وعينيه تقتلع منها الكلمات والدمع لتسكبهما في سخاء، أرخى رأسه يرقب دمعاته تسقط على خطوط تجاعيد كفيه وسمع صوته يقول:

- في منتصف الستين أنا، ولم يهزمني حتى اللحظة شيء سوى الحب، أحببت زوجتي لهذا رضيت بطفل واحد رغم أني وحيد، وأعلم كيف يكون الإنسان كفرع أصفر في يوم ريح إن كان على أرض الحياة يحيا وحيدًا، أحببتُ عبد الرحمن، وحين كبر تركت عملي كمؤذن يعشق رفع الآذان خمس مرات لأعمل لدى الغندور بدخل أكبر، تركت أرضي وترابها من أجل رجاء جليلة، وتضرع قلبي لأبقى معه هنا في هذه المدينة التي أكرهها وتكتحل أعيننا برؤيته كل يوم.

أحببت أوليجا كأنها أختي الصغيرة التي كنت أرسم صورها، وأنا ألعب وحدي في قريتنا وأنا صغير، أحببتها فبقيت بعيدًا عن قبر ولدي ورفات زوجتي مكتفيًا بزيارة أسبوعية لهما لأفي بوعدي لها وأبقى معك، لكن أحببتك أكثر يُسر.

أحببت فيك وحدتي القديمة، وضعف حيلتي القديم الجديد، أحببتك حتى الحد الذي جعلني أحب الحياة، وأنا أشتهي الموت لأبقى معك.

الحب وحده الآن ما يجعلني لا أجد كلمة أستطيع قولها.

كل شيء عندما يكبر كثيرًا يصبح التعبير عنه مستحيلاً!!

الأحزان الكبيرة كلما كبرت أصبحت كالأسوار نخجل عن البوح بها وبأنيننا خلفها.

المشاعر الكبيرة كلما تغلغلت كجذور الأشجار فينا عجزنا عن وصفها، كل الكلمات تظلمها، وتصبح جميع المفردات حرام أن نضعها على لساننا لوصفها.

كانت قطرات دمعه تتساقط على كفيه كأنها قطرات ماء من سماء يوم غائم، تُنذر بعواصف وفياضانات، وكانت الشابة الصغيرة ترقبه وشعرها مسدل على كتفيها كأنها أعلنت استسلامها لشيء كبير لا تعرفه، وفي كبرياء أمها القديم، قالت:

ـ أشعر بحبك فلا داعي؛ لأن تعبر عنه، وأشعر بحزنك لكن لا أفهم..

رفع العجوز رأسه كأنه يشفق عليها من الانتظار رغم علمه أن ذل التوقعات، ومرار الرجاء هو أحيانًا أرحم من رحمة الحقيقة وعِزّها.. قال وهو يجهش في البكاء:

ـ مات السيد عصمت.

عن مقعدها نهضت تتقدم نحوه قائلة:

ـ هل يقيم له عمي عزاء كما فعل لأمي؟! هل يجبرونني على ارتداء ذاك الجلباب الأسود.

لماذا يدعي موتهم جميعًا؟! هي كذبة جديدة لعمي، كذبة جديدة لسيدك..

كانت تردد كلماتها في جنون، وحين أصبحت أمامه نهض في تثاقل وضمها إلى صدره قائلاً:

ـ مات بين ذراعيّ هاتين، والله بينهما مات وكنت أنتِ آخر كلماته ووصاياه!!

* * *

"من يخرج عن ثيابه إما يمت بردًا أو تقتله سخرية من حوله، كالأسماك يا ولدي إن خرجت عن أنهارها تموت، هل تحب الموت"؟!

أرخى غريب رأسه ينظر في كوب الشاي الذي صنعه لنفسه بعد صلاة الفجر وهو يتذكر كلمات والده له عندما كان طفلاً صغيرًا.

كان يصطحبه كل يوم إلى بحيرة البرلس ليمارس مهنة الصيد، كان يقفز إلى جواره في المركب الصغير المسمى "سمبوك" ويبقيان فيها ساعات طويلة هم وشباكهم.

كره غريب رائحة الأسماك ورقصها أمام عينيه حتى الموت، كره جثثهم في "الطاولات" التي كانوا يعدونها للبيع في قرية "الشخلوبة" أو تعد لنقلها إلى "بلطيم" أو المدن الأخرى.

كلما كبر عامًا كبر كرهه للصيد وفي كل مرة كان يطلب فيها من أبيه ترك الصيد كان يردد كلماته تلك ثم يضع يده على كتفيه في حنان قائلاً:

ـ هل تحب الموت؟!

هل ماتت زوجته وولده؛ لأنه خرج عن جلبابه حقًّا؟! هل مات عصمت ورحلت أوليجا لخروجهم عن أنهارهم؟!

كان يرى الحسرة في عيني أبيه، وهو يتحدث عن "طه" رفيق عمره، وكيف يقف أبناؤه حوله حتى أصبح لديهم أكثر من مركب، ويستدير إلى "صالح" أكبر أبنائه يرجوه أن يقنع غريب بالعمل معهم.

حين مات أبوه فقيرًا لا يملك إلا تلك المركب الصغير ضمه صالح، وألح عليه في العمل معه، ومع والده، لكن غريب ترك القرية الصغيرة المطلة على بحيرة البرلس، وجاء إلى "دمرو" التابعة لمدينة "سيدي سالم"، بعد شهور كان ينام في أحد مساجدها، اختاره أهل القرية للأذان فيها لحلاوة صوته ودماثة أخلاقه.

حين أحب جليلة وتزوجها، وبعد إنجابهم لعبد الرحمن لم تعد النقود التي يجمعها له سكان دمرو نظير الأذان وإقامة الصلاة تكفيهم، عاد إلى قريته القديمة ليزور طه صديق والده.

لم ينكره الرجل، بل احتفى به، وارتمى صالح ولده بين ذراعي غريب حين أخبرهم برغبته في عمل ما، دون تردد صاح صالح يطلب منه أن يحضر زوجته وولده إلى "الشخلوبة" قريتهم، ويعمل معه قائلاً: "أصبح لدينا أسطول مراكب يا غريب".

ابتسم عندها يخبره أنه صديق طفولته، وأن أباه هو آخر ما بقي من رائحة طفولته، إن اختلفوا، إن جازاه يومًا أو عنفه لتقصير يخسر كل هذا.

"أريد العمل لدى غريب من أصدقائكم في "دمرو" نفسها أو حتى هنا، المسافة لا تتجاوز السبعة كيلومترات أستطيع قطعها ذهابًا وإيابًا كل يوم. غريب يريد العمل لدى غريب!!"

أطرق طه العجوز يومها برأسه لحظات، وعاد معه إلى بيت الغندور.

لم يصدق غريب أبدًا أن طه يعرفه، الغندور هو رجل القرية الكبير وأعتى من فيها، أخبره طه أن بهجت ولد الغندور الكبير استعان به في إقامة مزارع سمكية كبيرة من أراضي "بور" اشتراها.

لم يكن يظن أبدًا أن الغندور الكبير بنفسه يلقاهما، ويحتفي بهما على ذاك الوجه.

في نهاية اللقاء منحه عمل سائق على إحدى السيارات.

بقي الغريب يعمل خارج جلبابه حتى بعد وفاة الغندور الكبير، بل ضاعف له بهجت راتبه وأصبح من أهم رجاله الذين يأتمنهم على نقل محاصيله واستلام النقود.

هل مات عبدالرحمن؛ لأنه خرج عن جلبابه وذهب إلى القاهرة وتبعه هو وجليلة!!

"الشقاء قدر يا غريب بقيت أم رحلت، الشقاء قدر!!"

أسبوع منذ عاد باليتيمة الصغيرة إلى "دمرو"، ذهب إلى أيام العزاء الثلاث، لم يرها مرة واحدة، ويخجل من أن يطرق بابهم ويطلب رؤيتها، لكنه مطمئن عليها، هي في كنف عمها.

يعلـم أنـه كان قاسـيًا عليها يـوم هرب أمهـا لكن هو حقًّـا لا يلومه. مـا زال الغندور مثله فلاحًا يرفض زواج أخيه من أجنبيه. فقط لو عرفها الغندور كما عرفها هو لحملها على رأسه وفي قلبه.

انتهى دورك يا غريب مع الغنادرة!!

لمـاذا يقتله الحنين إلى بحيرة "البرلـس"، ورائحة أبيه وحتى رائحة السمك، ورقصه قبل الموت، ولماذا يقاوم شوقه؟!

يشتاق أباه وجليلة وولده، يشتاق أوليجا وعصمت وحتى يُسر، لكن ليس بإمكانه أبدًا أن يلقى أحدهم.

لِمَ يقاوم شـوقه إلى "الشـخلوبة" فليذهب إليها، لـن يتركه الغندور دون عمل طويلاً.

فليذهـب، ويبحث عـن "صالح" صديـق الطفولـة، وليجلس على شاطئ البحيرة وليتنسم وجه أبيه وشبكة صيده.

نهض عن مقعده، ووضع كوب الشاي الفارغ في مطبخ بيته الصغير، وخرج على أطراف طريق القرية، ووقف يلوح بيده إلى السـيارات التي تمر صائحًا:

ـ "الشخلوبة"!!

***

لا شيء يعيبها، لا شيء على الإطلاق!!

يسر جميلة هادئة أرق من نسائم البحر، في أوج حزنها صامدة وفي قاع انكسارها رأسها مرفوع.

خدم البيت أحبوها، كلاب الحراسة في فناء البيت الكبير يلتفون حولها، حتى "فريد" تشعر به يطاردها بعينيه ويتقرب إليها.

تنظر إليها منذ جاءت ومعها حقائبها بين الحين والآخر تبحث فيها عن شيء واحد يجعل كل من رآها يحبها ويجعلها هي كلما نظرت إليها تكرهها أكثر.

أسبوع وهي لا تجد سببًا يجعلها تكرهها، وتظن أن كل الأسباب التي تدعوهم إلى حبها هي أسباب زائفة حمقاء.

لأنها جميلة كأمها؟! أم لأنها صامتة أم لأنها صامدة رغم كونها مكسورة؟!

أسباب العشق دومًا واهية وحدها أسباب الكراهية دومًا واضحة منطقية.

قدرية تكره "يسر"؛ لأنها ابنة قاتلة ماجنة، تكرهها؛ لأنها تريد أن تقاسمهم ثروة لم يتعب أبوها يومًا في صنع قرش واحد منها.

تكرهها؛ لأنها تراها تسرق قلب وحيدها، وتقتل قلب خديجة ابنة أخيها التي تحيا على حبه وحلم الارتباط به.

قدرية تلعنها ألف لعنة؛ لأنها شيطانًا جاء يقلب كل ما خططت له ودبرت له أعوام عمرها..

علّمت فريدًا أن يحب خديجة، كانت تمنحه أجمل قطع الحلوى، وتخبره أن الصغيرة أحضرتها له.

هي من كانت تخبر خديجة أن فريدًا هو عالمها وأملها ورجلها وأن دخولها قصر الغندور على يديه، وتَغيُّر خارطة أيام أبيها وملامحها لن يحدث إلا أن تزوجت ابن عمتها.

يُسْر جاءت لتقلب كل هذا رأسًا على عقب بصوتها الهادئ وشعرها الأحمر الغزير.

ألا يكفي كل هذا لتكرهها؟!

ألا يكفي أنها عندما أخبرتها وفي ليلة العزاء الأولى عن موت والدها بجرعة مخدر أشاحت بوجهها دون حتى لمحة ذعر أو خجل.

نهرها "بهجت" بعدها، أخبرها أنه كان سيخبرها بفعلة أبيها لكن ليس في الليلة الأولى، وقال فريد في ألم أنه ما كان لإخبارها داعٍ، ولا حتى في الليلة الألف.

لا شيء يعيبها، لكن تكرهها قدرية، ولن تتركها تسرق فريدًا، وتحرم أخاها وابنته من نسب الغنادرة.

احتملـت بهجت أعوامًـا، حرمها فيها من إنجـاب أطفال غير فريد، أبسط حقها أن تنعم بخديجة وبأخيها معها ما بقي من حياتها.

يجن جنونها، كلما غادرت يُسْر غرفتها وجاءت للجلوس معهم بناء على طلب عمها أو إلحاح فريد المستنكر والمتزايد.

ستحاربها، بل ستبيدها، لن تهزمها طفلة ابنة قاتلة ومدمن مخدرات.

تكتوي جنوبها كل ليلة بنوم يُسْر في بيتهم!!

اسـتدارت، حين شـعرت بزوجهـا يصحو من نومـه ودون وعي في اللحظة التي فتح فيها عينيه قالت:

ـ ما مصير الفتاة؟!

يعـرف زوجتـه، ويعرف ما يدور في رأسـها جيدًا؛ لهـذا ليس مولعًا بها، ولا هي به مغرمة، أرخى رأسه، واعتدل بجسده على فراشه قائلاً:

ـ سيتزوجها فريد، بعد شهور يتزوجها.

كأن أفعى تسللت إلى فراشها، والتهمت أجفانها، قالت:

ـ هو يحب خديجة..

قاطعها الغندور في برود كبير قائلاً:

ـ تحادثنـا فـي هذا الأمر، أخبرتـه أن بإمكانه أن يتـزوج خديجة بعد عام من زواجه بالفتاة، إن بقي يريدها، لا أخوك يمانع ولا ابنته تتمنع!!

قبـل أن تعترض أو تفكر في كلمة اسـتدار إليها ونظر في عينيها بقوة وقال في حسم:

ـ كل الأراضي والمزارع التي هي باسم ابنك الآن هي ملك لأخي، لا تنسي ذلك، بعته ما يملكه أخي بالتوكيل فلا أقل من أن تشاركه فيه بسر بالزواج منه، لا أريدها أن تتزوج غريب ينبش صفحات التاريخ..

قالت كأنها تحتضر:

ـ عصمت لم يكن هنا، وأنت تتابع أراضي والدك، لم يقف يومًا على محصول ولا كان هنا في تسمين ماشية.. عصمت لا يعلم حتى بالأراضي التي حوَّلتها إلى مزارع سمكية.

في حدة أمسك بكلتا وجنتيها بين أصابع كفه، وقال:

ـ لكنه ماله ومال أبينا، العدل أن تتزوج فريد. كنت أخشى من رعونة عصمت، وكنت أخشى أن يزوجها لشاب غريب يشاركنا ثروتنا رغم اتفاقنا، لكن قالت السماء كلمتها، مات أخي وابنته هنا وفريد لا يمانع ماذا تريدين؟! هل تريدين بضعة آلاف تعويضًا لأخيك عن حلمكم القديم؟! أمنحه وأمنحك.

كان يضغط بأصابع كفه على وجنتيها، وكانت تتألم لكن الألم الذي في رأسها كان أكبر!!

ترك الفراش يأمرها بإعداد الإفطار، وأخذت ترقبه وهو يغادر الغرفة إلى حمامها.

لن يطعنها بهجت، لن تتراجع. فريد سيتزوج خديجة.

لا تدري كيف لكنها لن تستسلم!!

تموت إن أصبحت هذه زوجة ولدها وأم أحفادها.

من قال ألا عيب فيها؟!

يعيبها ما هو أكبر من قدرية، ما هو أكبر من عقلها ورحمتها.

يُشْــر الغندور يعيبها شيء يجعل الحسـنات ذنوبًا، ويحيل الملائكة إلى شياطين يجب رجمهم حتى الموت.

شيء اسمه الغيرة والكراهية!!

* * *

كلما كبـرت أحزاننا، وتمكنت من أرواحنا، اتسـعت عيون ذاكرتنا، وألقت من مآقيها بكل القصص التي تضرم نارًا أكبر في صدورنا.

على شـاطئ بحيـرة البرلس قضى غريب سـاعات طويلـة ينظر إلى مائها، كل ما هو من عند الله لا يتغير، وكل ما هو من يد الإنسان يتغير.

هو البحر وهي الأسماك، هو الرزق وهو الرزاق.

سـماؤه لا تتغير، رحمته لا تتغير، نحن فقط من يتغير إيماننا وتشـيخ وجوهنا ونراهم غير ما كنا نفعل، لكن كل شيء من عنده كما هو باق.

هنـا كان يحمـل "مقاطف" الصيـد، وينتظـر أن يكبر ليهجـر البحر والمراكـب، وهـا هـو اليوم بأعوام شـيبته يعـود باحثًـا عنهـم راجيًا لو يتذكرونه، أو عن حماقاته وجنون طفولته يسامحونه.

كيـف كان عم "طه الشـواف" يأتي إلى والده هنـا يحمل معه بعض الخبز والبيض ليتناولا الإفطار معًا، وكيف كان هو وصالح ولده يلعبان.

ما زال يحب صالحًا لكن أصبح يتحاشـى لقاءه، منذ أصبحت ثروة الشـواف أكبر من المفهوم، ومنذ ترددت حولهم الأقاويل عن تجارتهم فـي المخـدرات والهجرات ابتعد عنهم شـيئًا فشـيئًا، جـاء صالح عزاء ولـده وعزاء جليلـة، عرض عليه أن يتـرك العمل لدى الغنـدور، وعده ببيت وعمل بسيط في الشخلوبة لكنه رفض.

اليـوم تتوق روحه إلـى صالح الطفل الرفيق الـذي يحمل رائحه طه صديق والده.

كل من يحبهم غريب ماتوا، فليرى صالحًا، فليضمه ويودعه.

يُسْر إلى الغنادرة عادت ويوم تأتي أوليجا تجدها لديهم.

الآن بإمكان الغريب أن يرفع ذراعيه إلى السماء ويطلب الموت، هو أيضًا يحتاجه، صالح لن يطمع أبدًا في نقود يُسْر التي تركتها أمها تحت مقعد السيارة، يأتمنه عليها ويموت.

نعم إن هو فعل لن يخذله الموت!!

نهـض عن الصخـرة الصغيرة التي يجلـس عليها، وسـار في طريقه الذي يعرفه جيدًا حتى وصل إلى مراكب الشواف..

حين سألهم عن صديقه أخبروه أنه لا يأتي إلا في الظهيرة.

ابتسم غريب!!

جميع الأسياد يبدأون يومهم متأخرًا.

اسـتدار ليعـود بحثًا عن سـيارة تعود بـه إلى قرية "دمـرو" لكنه عاد وغير رأيه.

من ينتظره هناك؟!

لا أحد سوى الذكريات والأشباح..

* * *

كبير هو بيت صالح كبيت الغندور.

كل بيوت الأثرياء كبيرة ربما لهذا هم تعساء لا يشعرون فيها بالدفء أبدًا.

استنكر حراس المنزل رؤيته وسؤاله عن صالح، لكن دخل أحدهم إلى البيت يحمل طلب اللقاء.

يثق أن صديقه سيخرج إليه لعلمه أنه لا يريد منه شيئًا، لا يختبئون منك إلا إن ظنوك تأتيهم تريد مالاً!!

لحظات وخرج الصديق يهلل صائحًا باسمه، أصبح عجوزًا مثله، حين أصبحا في مواجهة أحدهما الآخر صاح، يقول:

ـ عدت إلى رشدك أيها العجوز، عدت أخيرًا.

ابتسم الغريب يضمه قائلاً:

ـ بل هي لحظات وأمضي، اشتقت إلى رائحة البحر في ثناياك، اشتقت إلى رائحة الأسماك وعم طه وأبي، فهل لي ببعض منها؟!

في الحنين والألم كل البشر سواء، الفقير كالثرى والطاهر كالدنيء كلهم في الحنين سواء.

تعانق الصديقان، وغالب صالح دمعه يقول:

ـ لا تدخل البيت، فلنذهب إلى حيث كنا نلعب حيث كان أبوانا يجلسان!!

* * *

سكب لها بعض الطعام في صحنها، وقالت في حدة:

ـ حتى الإفطار تتناولينه بالشوكة والسكين؟!

نظرت يُسْر إلى عمها، ثم أرخت عيونها في صحنها وتمتمت:

ـ أعتذر لكن لا أعرف كيف بيدي أو بالملعقة وحدها آكل.

تنهد الغندور في ملل، يعلم أن قدرية تحاصرها باللوم لكن لا يمانع، يرى القادمة تبالغ في ترفعها.

ماتت أمها منذ ثمانية أعوام، فكيف بقيت هي هكذا أم تراها قبل أن تموت جعلت من أخيه نسخة منها.

في حزم نظر إلى الشابة، قائلاً:

ـ يجب أن تعتادي حياتنا وأدواتها ما دمت هنا ستكملين عمرك.

وضعت الشوكة في صحنها ونظرت إليه وفي سكون لا يخلو من رعشة خوف قديمة قالت:

ـ بل أعود إلى بيتنا، إجازتي الصيفية تنتهي بعد شهر لا أستطيع التغيب يومًا واحدًا، أنا "ثانوية عامة".

دون أن يهتز له جفن أكمل عمها يقول وهو يحدق في عينيها:

ـ لسنا في "روسيا"، نحن في مصر، في ريفها، قبل انتهاء الإجازة تتزوجين.

رفع عينيه إلى فريد، وأكمل يقول:

ـ إن وافق زوجك تكملين عامك الدراسي هنا.

جالت عيناها بينهم في ألم، وقالت:

ـ وماذا إن كنت لا أريد الزواج، ولا أريد أن أحيا هنا؟! عندي تمارين سباحة وتمارين..

لم تستطع أن تكمل إلا أن قدرية ضحكت ساخرة، وقاطعتها قائلة:

ـ تمارين رقص؟!

شعر فريد بها تحتضر خوفًا وألمًا، فقال في حنان أثار جنون أمه أكثر:

ـ عندما تتزوجين، قد يفعل لك زوجك ما تريدين.

لم تتمالك الأم نفسها، واستدارت إليه تقول في حدة:

ـ أي زوج وأي رجل في "دمرو" هذا الذي تخلع زوجته ملابسها لترقص أو تعوم!!

بدأت دمعاتها تخونها وبوهن كبير قالت:

ـ كان "بابا" يأخذني إلى التمارين، حصلت على بطولة الجمهورية في السباحة، لم يقل لي يومًا..

بكفه دق على المائدة ونهض عن مكانه الغندور يقاطعها قائلاً:

ـ "كان يُسْر كان"!! عصمت مات، ولن نحيا العمر في خطاياه، ليس مسموحًا لك حتى بالتفكير في هذه الأمور، شهور وربما أيام وتتزوجين فريد. أنت لحم الغنادرة ودمهم وآن الآوان أن يعود كل شيء إلى نصابه الصحيح، هل تفهمين؟!

* * *

لم تعد صغيرة أبدًا!!

تفهم كل كلمة قالها عمها وتعي جيدًا نظرات فريد التي بدأت تلاحقها.

تفهم أيضًا كلمات قدرية التي نقشتها في أذنيها منذ قليل تخبرها أنها تشعر بها عارًا كبيرًا عليهم، وأن تراب قدمي خديجة ابنة أخيها برأسها هي وأمها.

تفهم كل هذا لكن ما لا تفهمه لِمَ بعد كل هذا يريدون تزويجها له، ولِمَ هو نفسه يطاردها إن كان عاشقًا للسمراء التي تزور عمتها كل صباح، وتكاد تقتل يسر بكلماتها ونظراتها.

هل حقًّا تقضي باقي عمرها في هذا المكان؟!

هل تصبح كخديجة أو قدرية في يوم ما؟! هل يكون فريد هذا هو فارس أيامها؟!

حادثت شاهيناز منذ ساعات في غرفتها مكالمة طويلة بكت فيها كثيرًا وطويلاً على سماعة الهاتف.

لم تكن معلمتها تعلم بموت أبيها ورحيلها عن القاهرة، أخبرتها كيف يريدون تزويجها لابن عمها، أخبرتها أنه لا مدرسة ولا باليه أو

سباحة، كانت تستغيث بها حتى إنها كانت تطبق بأسنانها على شفتيها بين الحين والآخر لتمنع رجاء تريد البوح به، تمنت لو ترجوها أن تأتي وتأخذها لتحيا معها في بيتها.

فهمتها الكبرى كأنها سمعت ما أرادت قوله، أخبرتها أن عمها قانونًا وشرعًا هو وليها، طمأنتها ألا أحد بإمكانه تزويجها رغمًا عنها، أعادت عليها الجملة ثلاث مرات، "حتى لو أحضروا لك المأذون، اخرجي إليه وأخبريه أنك لا تريدين الزواج وأنك قاصر حبيبتي، قاصر"!!

ترى ماذا يكون عِقابها إن فعلت هذا؟!

تململت في فراشها، ونهضت عنه في تثاقل، وغادرت غرفتها في هدوء، العاشرة مساء وكل من في البيت ناموا.

هبطت سلالم البيت، وخرجت إلى الفناء، حدائق البيت كبيرة، بل هي حقول لا حدائق.

جلست على أحد المقاعد الخشبية في صمت تنظر إلى السماء، مقمرة هي الليلة غارق في الظلام قلبها.

انتفضت انتفاضة صغيرة عندما شعرت بشيء خلفها يتحرك، ابتسمت ابتسامة صغيرة حينما رأته، وضعت كفها على رأسه تربت عليه في حنان، هو أحد كلاب الحراسة، حتى الكلاب في هذا البيت بلا أسماء.

استكان الكلب الضخم، وهدأ تحت لمسات كفها الصغير، وشعرت بدموعها تهطل في سخاء.

أين عصمت؟! أحقًا لن تراه أبدًا؟!

ما يذبحها هو موت الأمل في لقياه، رغم غياب أمها كل هذه الأعوام إلا أن أملاً كبيرًا ما زال يلوح في صدرها بيديه كل حين وآخر بعودتها.

وحدها عودة عصمت لا أمل فيها!!

رغم قلة أحاديثها معه إلا أن الشوق إليه يقتلها، لمعة عينيه وهي في تمارين السباحة، صرخاته يوم حصدت الميداليات الأربع، ثم الأخيرة في بطولة الجمهورية.

ساندوتشات المدرسة التي كان يعدها قبل خروجها ونومه.

تفتقده وتشعر أنها لم تبكه كما يجب، لم تبكه أبدًا كما ينبغي كأن الخوف جمد الدمع في مقلتيها.

ضمت رأس الكلب إلى صدرها، وشعرت به هو الآخر يهدأ كأنه عن الحنان يبحث..

تريد أن تطلق دموعها، تريد أن تصرخ وتصيح.

لا تريد البقاء هنا، لا تريد الزواج من فريد، وتكره رؤية وجه أمه وسماع صوتها.

الخوف يكممها، خوف كبير يشل كل قطعة في جسدها، خوف قديم عمره ثمانية أعوام وأكثر.

برفق، أبعدت رأس رفيقها عن صدرها، ونهضت عن المقعد.

دون وعي وعلى أطراف أصابع قدميها أخذت تدور.

كانت ترقص تلك الرقصة التي رقصتها في حفل نهاية العام.

كانـت تـدور على أطراف أصابعها كفراشـة لا تعلـم كيف لا تدور، كلمـا رفعت ذراعيها في الهواء، ومالت بهما شـعرت أن شـيئًا بداخلها يتحرر.

كلما انثنت على الأرض تلامسـها بأطراف أصابعها كانت تشـعر أن دموعها تسقط أكثر.

رقصت طويلاً وكثيرًا ومع كل خطوة كانت تبكي أكثر.

كل إنسان يحزن بطريقته التي يستطيعها!!

هنـاك من يبكـي دمعًا، وهناك من ينزف حرفًا، وآخر موسـيقى وهي تتمزق رقصًا.

في دورانها حول نفسها تذكرت كلمات معلمتها حينما أخبرتها أنها تتمنى لو تأتي وتأخذها معها لكن هو المستحيل.

انتصبت على أطراف قدم واحدة، ورفعت الأخرى تلامس منتصف سـاقها، وأخذت تدور حول نفسـها دورات كثيرة، وصوت شاهيناز في أذنيها يكرر:

"أمـك أجنبيـة، اطلبـي من غريـب أن يأخـذك إلى سـفارة بلدها، وأخبريهم كل شيء واطلبي منهم حمايتك"!!

كانت تدور في خفة كأنها إبرة مغزل الساحرة في قصص الأطفال.

لا أحـد الآن يحميهـا، عصمت مات وأوليجا غابـت، حتى الغريب ما عادت تراه.

"إن لم تكوني مع نفسك صادقة، لن تجديني ولن أجدك".

وصية أمها التي لا تنساها ولا تفهمها..

كيف نكون مع أنفسنا صادقين وصراعنا ليس معها.

توقفت عن الدوران حول نفسـها، وانثنت تتكور على الأرض كأنها زهرة صغيرة سقطت دون أن يشعر بها أحد.

سمعت صوته يصيح في خوف:

ـ هل أنت بخير؟!

كان أحد حراس البيت الذي وقف يتأمل ما تفعله، وهو يجهل كنهه، لكن كان واضحًا أنه بها كان منبهرًا.

حيـن فتحـت عينيهـا، ومـن خلـف دموعها نظـرت إليـه، قالت في أنفاسها المتقطعة:

ـ لا تخف، أنا بخير هل تدلني على بيت عم غريب!! أرجوك خذني إليه.

منذ قـدوم ابنة عصمت، منذ اللحظة التي رآهـا هو وجميع "الغفر" أحبوها، ظنوه جميعًا إشفاقًا على يتيمة مات أبوها بعد موت أمها.

ظنـوا أنه إشـفاق على جميلـة كهذه من الحيـاة مع جبـار كالغندور وقاسـية كزوجتـه، لكن في الأسـابيع القليلة التي أمضتهـا، ومع تحيتها

لهم كلما رأتهم، مع دمعاتها التي يرونها تحبسها وتبتسم لهم، منذ سقوطها أمامهم على قبر أبيها يوم أخذها الغندور إليه، بل منذ انحنائها لتربت على رأس كلاب الحراسة في أول مرة رأتها وهي تنبح في وجهها علموا جميعًا أن عصمت أنجب زهرة بدماء غَيّرت دمها الغندوري، حتى هو لا يستطيع أبدًا أن يقاوم رغبته في أن يمد يده إلى كفها ويأخذها إلى غريب.

الآن أدركوا لماذا بقي الغريب معها بعد وفاة ولده وزوجته، ليست من الغنادرة أبدًا!!

نهضت يُسْر عن الأرض، وأعادت عليه في رجاء طلبها.

"خذني إلى بيت الغريب، أرجوك"!!

بعصاه الغليظة التي في يده دق على الأرض مرتين لينهض الكلب القابع إلى جوارها ويمضي إلى حيث أشار إليه، وقالت بوجهها المغسول بدمعه:

ـ أبدل ملابسي وآتيك، لن أمكث عنده كثيرًا، فقط أريد زيارته والحديث إليه..

كيف نحنو على أحد حد البكاء، لا يفهم لكن ما زال في رأسه عقل رغم الدمعة التي تطرق أطراف عينيه..

أرخى الحارس رأسه، وقال:

ـ لا أحد يخرج دون إذن الغندور، لا أستطيع حتى أن أسمح لك بعبور البوابة، لا أحد يعصى سيده!!

اتسعت عيناها الرمادية المستديرة في ذعر، وقالت:

ـ هل أنا سجينة؟!

نظر الرجل بعينيه بعيدًا عنها، وقال:

ـ لا يا ابنتي، لكنها الأعراف، وهي الأوامر.

وعادت تقول في ذهول:

ـ لستِ سجينة.

أطرق برأسه، وهو يبتعد قائلاً:

ـ ولستِ حرة، ولا أنا أيضًا حر!!

* * *

كان صالح كريمًا معه بلا حدود.

أبقاه اليوم بأكمله في "الشخلوبة"، بعد مأدبة الإفطار تلك تجول به في أسطول مراكب الصيد التي أصبحوا أباطرتها.

سأله دون حرج عن قصة المخدرات، ضحك صديقه ضحكة صغيرة ولم يجب، عاد وسأله عن سر شباب سيدي سالم الذين يسافرون على مراكب "الشواف"، ضحك الرجل وأخبره أنهم حقًّا يفعلون، وأردف يشرح قائلاً:

ـ لا نلقي بهم في البحر يا غريب كما يفعل سوانا، هنالك مراكب صيد تلقي بأبنائنا في مياه مصرية بعد أن يسلبونهم نقودهم، نحن لا نفعل، هي عملية كبيرة منظمة، تخرج مراكب الصيد محملة بالشباب الذي يكاد يموت هنا فقرًا وضياعًا، ينتظرهم على ضفاف اليونان أو إيطاليا رجال تطمئن على سلامتهم حتى عبورهم الحدود، وتعود مراكبنا محملة بأسماكها، في الشخلوبة اليوم أثرياء يملكون الملايين، يومًا نحن نقلناهم على مراكبنا لا يملكون شروى نقير!!

أردف هو يومها يقول "عشرات منهم يموتون! أما مات شقيق السيدة قدرية وهو شاب على أحد هذه المراكب".

ربت الصديق على كتف رفيق طفولته، وقال:

ـ نعم منهم من يموت، ومئات منهم يحيون، ويأتون محملين بالدولارات أو يستقبلون مئات آخرين هناك، ويصنعون لهم حياة بعد أن ماتت أحلامهم من الفقر والمرض هنا يا غريب، أن يموت بعضهم أفضل من أن يحيوا جميعهم كالموتى، بل وأشد بؤسًا!!

أدرك غريب عندها أن صديقه يعمل في المخدرات، لو لم يكن لنفى، لكنه ما أراد أن يكذب ولا استطاع أن يَصدُق لهذا رفض هو تمامًا كل عروضه له بالعمل معه في الصيد ومراكبه.

المال مشبوه وملوث وغريب ما عاد يريد مالاً، هو يتمنى الخروج نقيًا قدر ما يستطيع، أضاعت المخدرات سيده أمام عينيه.

في المساء، وبعد وليمة العشاء الكبرى التي ما استطاع ابتلاع لقيماتها في جوفه، ابتسم صالح كأنه فهم ما يشعر به، وأخبره أنهم يخرجون الزكاة، ويعيلون الفقراء..

الأمر تجارة وخدمات، الأمر برمته حياة أصبحت أكثر تعقيدًا من شبكة وسنارة و"سمبوك" صيد!!

حين امتنع عن تناول الطعام أمسك صديقه بكفه في صدق شعر به بكل أعوام عمره وشيبات رأسه يخبره أنه يريده معه في الشخلوبة، هو آخر روائح الزمن الطاهر، أخبره أن كل زوايا القرية ومساجدها الصغيرة ملك له فليختر منها ما يشاء ويرفع فيها صوت الأذان من جديد.

"فلتمت هنا حيث ولدت يا غريب ولأمت أنا وأنت إلى جواري يا رفيق الطفولة".

احتضنه غريب طويلاً إلى صدره، وأخرج له من طيات ثيابه مظروف، قال:

ـ هذه النقود تركتها زوجة السيد عصمت رحمه الله لابنتها قبل رحيلها، وهذه البطاقة الصغيرة أمانة لديك ضعها في هاتف لا تغلقه أبدًا، إن حادثتك السيدة أوليجا، وأنا على قيد الحياة أخبرني، وإن مت أخبرها أني على العهد حافظت.

في ذهول نظر إليه صديقه، وقال:

ـ أما ماتت زوجة المرحوم؟! كنت هناك في ليالي العزاء الثلاث.

نهض لحظتها عن مقعده، وأخذ طريق عودته إلى "دمرو" وهو يقول:

ـ قصة لا داعي لتفاصيلها، أنت صادق يا صالح، كان بوسعك أن تنفي قصة المخدرات، وتقسم ككل الكاذبين إلا أنك لم تفعل، أنت صادق لهذا ائتمنك، الصادق لابد وأن يكون أمينًا، سأعود إلى دمرو، أنتظر الموت، بحق كل ما كان وما سيبقى بيننا، أنت صديق للغنادرة.

أعلم أن يُسْر لن تحتاج هذه النقود لكنها أمانة، وأعلم أيضًا أن السيدة أوليجا قد لا تعود لكنه أمل.

ما عاد لي يا صديقي سواك!!

عاهده الصديق، وعاد هو إلى بيت ذكرياته وأشباحه.

عاد يرفع الأذان في زاوية قريبة من منزله، ينتظر الموت ويشعر أنه لن يخذله.

يُسْر ما عادت تتصل به، حادثها مرتين فوجد هاتفها مغلقًا.

لا يلومها، بل هو سعيد من أجلها مطمئن على حالها.

سيرفع أذان صلاة العشاء، وبعد انتهاء الصلاة سيقف ويتلو دعاءه الذي يختتم به كل صلاة، دعاء يدعو فيها لروح ولده وزوجته وأبيه، وكل الآباء والأبناء الذين يعرفهم.

أصبح عدد من يصلون خلفه من سكان دمرو يملأ المسجد الصغير، جميعهم ينتظرون انتهاء الصلاة، ويقفون يرددون معه أدعيتهم، بل منهم من يطلب الدعاء له، أو لمن يحب وغاب، أو مرض.

ما زال أهل القرية على نقائهم رغم التغيير، ما زالت صلواتهم صادقة، ومشاعرهم أكثر دفئًا من المحروسة.

رحم الله عصمت، ليته ما تركها هو ولا عبد الرحمن.

لكن العمر مقدر كما قال صالح وإن اختلفت أسباب الرحيل.

حين أنهى الصلاة والدعاء وخرج كل من كان في المسجد الصغير أنهى قراءة بعض الآيات التي يختتم بها يومه، ثم أغلق باب مسجده الذي أصبح عنه مسئولاً، وفي طريقه إلى بيته سمع وقع خطوات تتبعه!!

حين استدار وجده يركض خلفه بسرعة، يذكره ويعرفه هو "عبدالجبار" أحد حراس بيت الغندور، توقف غريب بسرعة فهو يعلم أن لا حراس يغادرون بيت الغندور في وقت كهذا، تقدم الرجل نحوه، وقال هامسًا:

ـ أعلم أن أحدًا لن يعرف ما سأخبرك به، يُسْر تريد رؤيتك، الغندور يمنعها من الخروج وحدها، أخبرتها أني لن أفعل لكن لا أستطيع أبدًا ألا أفعل، زوجتي في دارهم تعمل منذ أعوام كما تعلم، أخبرتني أنهم أخذوا منها هاتفها، وأن السيد بهجت سيزوجها فريد.

كان غريب ينصت في اهتمام لكن خوفًا كبيرًا بدأ يدب في صدره حين أكمل الرجل يقول:

ـ أخبرتني أيضًا أنها سمعت السيد الغندور يخبر زوجته أنه باع كل ما كان يملكه أخوه إلى ولده. سرقوا اليتيمة يا غريب ويريدون تزويجها لفريد.

قاطعه الغريب كأنه يحاول أن ينكر ما يفهمه قائلاً:

ـ ما المانع؟! فريد شاب طيب، هو بها وهي به أولى.

وضع القادم كفه على كتف غريب، وقال:

ـ يجب أن أعود، هم يسيئون معاملتها، السيدة قدرية أخبرت زوجتي أنها تتمنى لو تستطيع قتلها، أعلم أنك مثلي لا تملك شيئًا، لكن فقط أردت أن أخبرك أن الفتاة تموت رغبة في رؤيتك..

ابتعد الرجل في ذاك الطريق الضيق، واستدار يلوح له من بعيد قائلاً:

ـ لا تأتي باسمي، أنا وزوجتي وأبنائي نموت إن طردونا، أو عاقبونا، كل ما في القصة أنها طيبة حنون لا أملك إلا أن أنقل لك طلبها!!

* * *

أخبرته أنها دعت خديجة إلى طعام الغداء معهم.

حاول فريد أن يتملص من القصة، وأخبرها أن لديه مع والده موعدًا مهمًّا، في حزم أخبرته أن الغندور يعلم أنها تريده في أمر أهم، ولم يمانع في عودته في فترة الظهيرة، أعدت كل شيء كعادتها حينما تريد شيئًا، أخبرته أن خديجة تموت حزنًا وألمًا بعد علمها بقصة زواجه من يسر التي يعدون له، لم يسألها لِمَ أخبرتها فهو يعلم ألا إجابة ستصله، بل هي حتى لم تنتظر أن يسأل.

قدرية على حق!! من حق خديجة عليه أن يطمئنها بأنها ما زالت في قلبه.

نعم ما زال يحبها ويريدها زوجة وأمًّا لأبنائه، لكن زواجه من ابنة عمه ضرورة، أغمض عينيه لحظة وهو يبتسم ابتسامة ساخرة صغيرة.

أصبح يشتهي القادمة ويحلم بالزواج منها!!

هل هي عقدة الريف أم هي عقدة العرب أجمعين؟!

المرأة التي تحمل أصولاً أجنبية لها مذاق آخر يسعى الرجل إليه، وإن كان عقله لا يقرها، فعلها عمه يومًا وها هو على الدرب نفسه يسير.

لا يريد منها أطفالاً، يريد أبناءه من خديجة، لا يغمض عينيه أبدًا إلا ويراها بين ذراعيه بشعرها الأحمر الطويل، بحاجبيها المعقودين دومًا في كبرياء، بالأمس وجدها تتجول في حديقة البيت قاوم كفيه كثيرًا وهما يحاولان الوصول إلى جزء من جسدها.

شعور غريب مبهم لا يفهمه لكن لِمَ يجب أن يفهم، يشتهيها وأصبح زواجه منها أمرًا مفروغًا منه، أرض أبيها باسمه، لن يتركوها لغريب، بل لن يتركوها لها هي نفسها..

هي والأرض ملك لهم!!

انتفض حين سمع أمه تناديه ليخرج من غرفته، هبط إلى الدور السفلي، وكانت هي أول من رآه، كانت ترتدي ثوبًا جديدًا تقترب ألوانه من ثياب ابنة عمه، نكس رأسه في خجل واقترب منها يرحب بها وبطرف عينيها ذكرته أمه باتفاق كان بينهما، وقالت:

ـ اصطحب ابنة خالك إلى غرفة الضيوف فهي تريد الحديث معك في أمر ما.

بذات العين رمت بنظرة إلى ابنة أخيها، جعلته يسأل بما أوصتها هي الأخرى؟!

حين غاب عن عينيها داخل الغرفة التي ترك بابها مفتوحًا صاحت تنادي أمينة كبيرة خادمات المنزل تطلب منها إعداد مائدة الغداء، وقبل أن تبتعد همست في أذنيها تطلب منها استدعاء يسر إليها لأمر عاجل!!

***

حين دخل إلى الغرفة رآها تختار الجلوس على الأريكة التي تتسع لشخصين، أو أكثر ورأى نفسه يختار مقعد بعيدًا عنها.

أكلته الدهشة من نفسه، هو دومًا يختار أقرب المقاعد إلى يُسْر، وحين يجلس إلى خديجة يجلس عنها بعيدًا، ابنة خاله أقدس عنده من ابنة عمه.

بعد لحظات رفع رأسه ينظر إليها في إشفاق كبير، وقال في حنان:

ـ ما لديك؟!

لم ترفع عينيها وتنظر إليه، بل بقيت تعبث بكفيها المضمومتين على فخذيها لحظات، ثم قالت بصوت مرتعش باك:

ـ بمجهود كبير حصلت على شهادة الإعدادية لكن فريد علَّمنا التلفزيون ما لا تُعلَّمه المدارس!!

عمتي وأمي اكتفيا طوال الأعوام الماضية بتعليمي ماذا تحب؟ ماذا تأكل؟ ماذا ترتدي حتى أني بت لا أطيق رائحة الدجاج؛ لأنك لا تأكله، أعلم أنك لا تحب اللون الوردي لكني ارتديته لأن يُسْر ترتديه كثيرًا، ولأنك تغيرت منذ حضرت ولأني أعلم أيضًا أنك ستتزوجها.

حين حاول أن يقاطعها ابتلعت إحدى دمعاتها، وأكملت تقول:

ـ أعلـم أنك تتزوجها؛ لأنهـا ابنة عمك اليتيمـة؛ ولأن ثروة الغنادرة يجب أن تبقى في أيديهم محصورة، لن أقول إن القصة كانت ستختلف إن كان عمي عصمت ما زال على قيد الحياة فهو لم يعد لكن أريد فقط أن أقول أنك أنت ثروتي، سـأحتمل إن تزوجتنا معًا أنا وهي لكن أشـعر أنها ستهزمني.

التقطت أنفاسًا ضائعة من صدرها، وأكملت في ألم:

ـ ليسـت القضيـة أنهـا أصغر وأجمل وأرق، ليسـت القضيـة أبدًا أن ثيابها تختلف، وإن كانت نفس ثيابي ونفس ألوانها، القضية أنت!!

في عينيك شـيء اختلف منـذ حضورها، في صوتك شـيء لم يكن منـذ طفولتنا، طلبت مني عمتي أن أقول أشـياء، وحتى باب دارنا كانت أمي تعيد على مسـامعي أشياء أخرى أقولها، أريد منك شيئًا واحدًا غير كل ما أخبروني به ونسيته، أريد أن تخبرني ماذا أنت تريد؟!

في هذه اللحظة فقط أدرك أنه أبدًا ليس كأبيه وليس كأمه.

فريـد الغنـدور كعمه جاء، عاشـقًا بـاع الدنيا من أجل روسـية هاربة وضعيفًا باع الأرض والثروة من أجل نساء أخريات.

لا يعلـم مـاذا يريد سـوى أنه يتمنى لـو يضمها إلى صـدره، خديجة حبيبتـه ورفيقـة طفولته، ابنـة خاله التي يريدها زوجته مـا بقي من العمر لكن في ذات اللحظة وبذات القوة لا يسـتطيع أبدًا أن يتخلى عن رغبته في يُسْر.

ليس لأنها أوامر أبيه وليس من أجل الأرض، فالأرض قانونا لهم والفتاة أضعف من الحروب، بل من أجل ضعف في قلبه ونداء في عروقه لا يفهم كنهه!!

عادت خديجة تئن، وهي تقف عن مقعدها تقول:

ـ ما دمت لا تعلم، ما دمت تبحث بداخلك فلا معنى لهذا سوى..

لم يستطع أبدًا أن يتركها تكمل، نهض هو الآخر عن مقعده، وتقدم نحوها ووضع كفه على رأسها، وقال مقاطعًا:

ـ أريدك وتعلمين وأتزوجها وأيضًا تعلمين.

أرخى عينيه يتذكر كلمات أمه عن عمه وهي تصفه بالكاذب الأحمق، وقال:

ـ وحدك في قلبي لكن ليس بالقلب وحده نحيا!!

قبل أن يكمل، أو تجيب استدارت خديجة تنظر إلى من دخل الغرفة من بابها المفتوح في ذهول!!

كانت يسر تنظر إليهم بابتسامة صغيرة ساخرة، تقول:

ـ أصرت طنط قدرية أن آتيكم بنفسي لأخبركم أن الطعام على المائدة!!

* * *

القوة ليست ثروة، أو سلطانًا!! هم فقط عوامل مساعدة وإضافية.

القوة صفة يتسم بها بعض الاشخاص دونًا عن سواهم.

اليوم علمت أن حبيبها ليس قويًّا!!

حين دخلت يسر عليهما لتسمع جملته الأخيرة عن أنها، وحدها في قلبه رأته يهتز كإحدى أوراق أشجار الخريف التي نخطو عليها بأحذيتنا عندما تسقط عن أغصانها ونسعد بصوت تكسُّرها تحت أقدامنا.

ابتعد عنها وشعرت به يكاد يبكي خوفًا من ابنة عمه.

فريد ليس قويًّا، هي كعمتها رغم أنهما الأضعف إلا أنهما منه الأقوى!!

غريمتها أيضًا رغم كل ما هي فيه قوية.

تلك الرأس المرفوعة على مائدة الطعام، تلك العين الثاقبة التي كانت تتجول بها على وجوههم أعلنت أنها رغم يتمها وضعفها ورسمهم لأقدارها واستيلائهم على مالها إلا أنها قوية.

الحرب كبيرة يا خديجة فهل أنت مستعدة؟!

رجلك ضعيف وغريمتك كأمه قوية.

وقفت خديجة لحظات تلتقط أنفاسها وتنظر حولَها في طرقات القرية التي تسير فيها عائدة إلى بيتهم.

خذلها فريد!!

شيء كبير تحول اليوم وسقط بينهم.

كانت تبكي وترتعش، وهي تتحدث إليه وكان حائرًا زائغًا، وهو يتحدث إليها.

لو أنه أخبرها في ثقة أنه لن يترك الثروة تضيع، وأنه سيجمع بين ابنة خاله وابنة عمه وأنه لا كلمات عنده يضيفها لما انهار بداخلها كما حدث.

عندما يتردد رجل بين امرأتين بذات القدر فهذا يعني ألا واحدة منهما لها عنده قدر.

هل تعلن أنها لا تريده؟!

تموت أمها ويجن أبوها إن فعلت.

هل تنسحب وتترك فريد؟!

ما عاد في بلدتهم الصغيرة هذه أحد يتقدم للزواج منها، كل من فيها يعلم أنها للغندور الصغير..

كيف في لحظة واحدة يسقط رجل كان العمر واقفًا في قلبَ امرأة وعينيها حتى إن كانت منه أضعف وإليه أحوج؟!

سقط فريد حقًّا واهتزت صورته!!

دقـت علـى باب بيتهم دقات بكفها لتفتح أمهـا، وما إن دخلت حتى صاحت تسألها:

ـ ماذا حدث؟ تحدثت إليه!!

ألقـت بحجـاب رأسـها علـى أحـد المقاعـد، ونظـرت حولهـا في سكون..

بيتهـم صغير بسـيط، لا تكييف فيـه ولا خدم، لا حقـول ولا ثريات كبيـرة وأشـجار عملاقـة، لا هاتف محمـول واحـد يمسـكه أهلها، أو جيرانها.

عادت أمها تسألها في لهفة:

ـ بالله عليك تحدثي.

نحن لا نبكي الضعفاء أبدًا!!

كل دمعاتهـا جفت، كل انتفاضات روحها سـكنت في تلك اللحظة التـي أبعد فيها فريد كفه عن رأسـها وانتفض بعيدًا عنهـا إكرامًا لدخول أخرى.

في سكون قالت:

ـ اطمئني سأتزوج فريد، ويصبح أحفادك من الغنادرة!!

***

هل هذا هو ما كانت تعنيه أمها بالصدق مع النفس؟!

هل حقًّا كانت تُعدُّها لهذه اللحظة، وهل يعيد التاريخ دومًا نفسه؟!

هـل كانـت أوليجا صادقة مع نفسـها يوم قررت الرحيـل عنها وعن أبيها في تلك الليلة؟!

هل تَهربها من مواجهة نفسها هو ما أَخَّر لقائها بأمها..

لا تعلم لكن كان نقاش الأمس مشتعلاً بينها وزوجة عمها، اقتحمت عليهـا بـاب غرفتهـا، وهـي ترقص أمـام مرآتهـا وصاحت فيهـا تأمرها بالتوقف عن هذه الحركات الشيطانية التي تؤديها شبه عارية..

ارتعـدت فرائصهـا ورغم هـذا أخبرتها فـي ثبات أن مـا تفعله ليس حـركات مجنونـة، بل هو فن وأنها أبدًا ليسـت عارية، بل ترتدي ثيابًا لا ترتديها إلا فتاة خصَّها الله بموهبة ومنحتها السماء روحًا غير الأرواح.

أغلقـت دونهـا البـاب وأخبرتها في كراهية سـوداء أنها آفـة أفرزتها راقصـة قاتلـة هاربـة، رغم قسـوة قدرية إلا أن يسـر لا تخافهـا أبدًا كما تخاف عمها.

صاجت تسألها لما يحتفظون بآفة في بيتهم؟!

سـألتها لمـا يصرون علـى تزويجهـا ولدهم، وهو في عشـق أخرى غارق، بل لِمَ يتودد هو ذاته إليها؟!

الآفة هي أنهم يكذبون، يدعون كراهيتها، وهم بها يتمسكون.

"أمن أجل ثروة والدي؟!"..

ما إن قالت تلك الكلمات حتى ضحكت قدرية في سـخرية تخبرها أنها معدمة لا تملك شروى نقير..

"والدك العاشق باع كل ما يملك، أيتها البلهاء نحن نتصدق عليك بطعامك وشرابك، نزوجك ولدنا لأنك فقط تحملين اسم الغنادرة"؟!

ليسـت طفلة، تخطو نحو عامها السابع عشر، عاشت حرمانًا وخوفًا وألمًا يجعلها أكبر من قدرية نفسها.

في مقتل ضربتها حين أجابتها في سخرية..

- ومتى أصبحت أنتِ من الغنادرة؟!

انطلقت الأخرى كالقذيفة تتوعدها بأيام سـوداء اسمها "ما بقي من العمر" وأن عليها أن تجد لنفسها منها مخرجًا سوى ما تدعوه "فنًّا"..

كيـف في لحظة نأمـن من نعلم أنهم يكرهوننـا، كيف في لحظة نمد يدنا نسألهم الدواء، ونحن نعلم لو أن السمَّ بأيديهم لحقنوه في دمائنا؟!

فـي تلك اللحظة سـألتها كأنها تتوسـل إليها كيـف تتركهم، أخبرتها أنها حقًّا لا تريد أن تجرح خديجة ولا تريد أن تؤذيها برؤيتها، أو الحياة معها، أخبرتها أنها حاولت الهرب لكنها سجينة..

أقسمت عليها أن تساعدها في الرحيل، وأنها يومًا لن تعود لكن قدرية نظرت إليها في قسوة وخطت نحو باب الغرفة وقبل أن تفتحه استدارت نحوها تقول:

ـ لم تسأل أمك أحدًا قبل أن تسرق وتختفي!!

هل تريدها أن تفعل مثل ما فعلت أمها؟!

لأمها بلد آخر!!

أخبرتها معلمتها بذات الشيء، فلتذهب إلى سفارة أمها وتطلب منهم أن يبحثوا لها عنها ولكن كيف تفعل..

قضت الليلة بأكملها بثوب رقصها مكوَّرة على فراشها تنظر إلى المرآة وهي تفكر..

كلمات أمها تطن في أذنيها، "الصدق مع النفس"..

لا تريد من الأرض شيئًا سوى أمها والباليه، كل مطلب آخر يشوبه شيء من الكذب إلا هذين، أمها والباليه!!

حين تسلل ضوء الفجر من شرفة نافذتها، ونظرت إليه سقط جفناها أحدهما فوق الآخر كأنهما من إعيائها عن وعيها تغيب، سمعت بعد وقت لا تعلمه طرقات على باب غرفتها، ودخلت خادمة البيت تخبرها أن عمها إلى الإفطار يدعوها، من خلف جفنيها أخبرتها أنها لا تريد الإفطار..

حاولت أن تنام لكن عادت إليها تقول:

ـ السيد بهجت يخبرك أنه لم يسأل إن كنت تريدين الإفطار أم لا تريدين، هو يريدك أن تفطري معهم!!

ما زالت صورته، وهو يلطمها يوم كانت طفلة في الثامنة من عمرها لا تفارق عينيها، ما زال في أعماقها منه خوف لا تفهمه..

في هدوء نهضت وبدلت ثيابها، وهبطت إليه تجلس على مائدة الإفطار دون كلمة واحدة..

وحده فريد مد يده إليها بأحد صحون الطعام لتشكره رافضة تناول شيء منه..

بعد لحظات وفي صوت قوي هادئ، قال عمها:

ـ في الأسبوع القادم تتزوجين فريد، سنخصص لكما جناحًا صغيرًا في الدور العلوي، مبروك..

التقط فريد أطراف الحديث، وقال كأنه يحاول استرضاءها:

ـ نذهب إلى القاهرة إن شئت لنختار ما شئتِ لجناحك ولدعوة من تحبين.

في خوف قديم ما زالت آثاره على جلدها مرسومة رفعت عينيها، وقالت:

ـ ماذا إن كنت لا أريد الزواج؟! ماذا إن كنت أريد العودة إلى بيت أبي واستكمال دراستي وتمارين الباليه؟! ماذا لو كنت أريد البحث عن أمي والرحيل عنكم وعن بيتكم المظلم الأسود!

مع كل حرف كانت تقوله ومع عدم رد أحد عليها كان صوتها يشتد قوة وحدة..

حين انتهت شعرت بعمها يرفع كوب الماء الموضوع أمامه، ويلقي على وجهها ما فيه كأنه يصفعها، ويقول في هدوء:

ـ أفيقي أيتها الحمقاء، هل سألتك عما تريدين؟!

هو ذات الرعب الذي شعرت به ذاك اليوم، هو ذات الألم المهين وهي ذات اللطمة، وإن كانت اليوم بالماء.

حين رأى الغندور عينيها المستديرة الواسعة ترتعش وشفتيها الوردية تهتز، حين رأى سكون ولده وابتسامة قدرية بكل الحزم عاد ينظر إلى قطرات الماء والدمع المتساقطين من شعرها ووجهها، وقال:

ـ أظننتِ أنني لم أستعلم عن اللصة التي سرقتنا وهربت، تم إعدام أمك بعد وصولها الأراضي الروسية في نفس عام رحيلها!!

***

كانـت تبكـي في حرقة كبيـرة، تعلم أنهـا ضعيفة محاصـرة، بل هي سجينة لا تملك قرار نفسها..

تحـاول أن تتظاهـر بالقوة رغم علمهـا أن تظاهرها هـذا يزيد قدرية وعمهـا صلفًا وفجورًا ويزيدها هي كرهًا فيهـم وغضبًا، لكنها لا تعرف كيف تنحني أمامهم، أو تبكي ربما لثقتها أنها وإن غسلت أقدامهم دمعًا لن يرأفوا لحالها..

كل ليلـة وأمام مرآتها تتحســس قرط أمها علـى أذنيها في ألـم وتدور في رقصاتها الكسيرة على قطرات دمعها.

لم يذكر عمها قرط أمها، بل لـم ينظر نظرة واحدة كاملة إلى وجهها، أو ربما هي من لم تفعل.

أيام ويُعقد قرانها، أيام هي الفيصل بينها وبين سـقوطها سـجينة إلى الأبد..

شعرت بها تفتح الباب في هدوء واستدارت في خوف تنظر إليها.

الجميع نائم فماذا تراها جاءت تحمل لها من أوامر؟!

لـم تتمكن من مسـح دمعاتها قبـل أن تلتقي أعينهم وسـمعت أمينة كبرى خادمات الدار تقول في صوت متهدج:

ـ إلى متى وأنت تبكين؟ إلى متى يا ابنتي لا تنامين؟

حاولت أن ترفع حاجبها، حاولت أن تقول كلمات جوفاء قوية لكن رنة الإشفاق في صوت المرأة، نظرة الحنان في عينيها جعلتها بكبريائها العنيدة لا تبالي..

ألقت بوجهها بين كفيها وبكت تقول:

ـ لا أعلم، لا أعلم!!

تقدمت أمينة منها بجلباب نومها الأبيض النظيف، ووجهها الطيب، وضمتها إلى صدرها في حنان كبير تقول:

ـ منذ أتيتِ وقلبي يتمزق عليك..

أخرجت كل دمعاتها على صدر العجوز، قالت كل كلمات الخوف والألم التي تحبسها في صدرها، ذكرت اسم أبيها وأمها وغريب وكيف هي بدونهم تتمزق وكانت الأخرى تربت على ظهرها في حنان وتطلب منها الصبر؛ لأنه وحده مفتاح الفرج..

ابتعدت يسر عنها لحظة تنظر في وجهها كأنها حقًّا تتأكد من وجود قلب واحد بين جنبات هذا البيت يحنو على انكسارها ويتمها، وقالت كالأطفال:

ـ ساعديني، أرجوكِ..

جلست بها على حافة فراشها، وقالت:

ـ تعلمين أن السيدة قدرية لو علمت ما يدور بيننا تقتلني لكن خوفي عليك يقتلني أكثر، كان والدك أحب إلى قلبي من أخيه، حتى أمك -رحمها الله- في زياراتها القليلة كانت رقيقة طيبة مثلك، ماذا تريدين؟!

تبعثرت يسر أمامها، أخبرتها بقصة أمها وكيف أنها لم تمت وأن عمها وحده هو من أعلن وفاتها، أخبرتها أنها لا تريد الزواج من فريد، هي تريد السفر والبحث عن أمها، تريد الوصول إلى غريب..

في هدوء سألتها إن كانت تملك مالاً تسافر به..

أردفت الصغيرة أنها لا تملك شيئًا سوى جواز سفر قديم..

أخبرتها أن السفر يحتاج تأشيرة وتعلم أن وصولها إلى سفارة بلد أمها مستحيلة، لم تستطع أبدًا أن تخبرها بقصة أمها، وتهمة القتل لكنها بكت تقول:

ـ ربما استطاع غريب أن يفعل شيئًا، خذيني إليه ولو ساعة.

وضعت كفها على رأس الصغيرة، وقالت:

ـ اسمعيني جيدًا، غريب لن يفعل شيئًا، هو مثلي خادم لديهم، بالأمس سمعت زوجة عمك تتمنى قتلك.

رفعت يسر عينيها إليها في ذهول، وقالت الأخرى وهي تخفض صوتها:

ـ لا حـل أمامك سـوى الهرب، تريدين السـفر؟! ولـدي في إحدى البـلاد الأجنبيـة، سـافري إليـه، سـأطلب منـه أن يسـاعدك، هـو الحل الوحيد!!

قدرية تريد قتلها؟ من أجل خديجة أم من أجل كراهيتها لأمها..

في سكون قالت:

ـ أمـا أخبرتـك أني لا أملك سـوى جواز سـفر قديم منتـهٍ، لا أملك قرشًا واحدًا في جيبي، حتى هاتفي أخذوه بعد أن حادثت معلمتي..

نهضت أمينة عن مكانها تقول: .

ـ يجب أن أتركك، سأحادث ولدي أن قَبِل مساعدتك، يلتقيك عند الشاطئ، يدفع لهم ثمن رحلتك.

في ذهول نظرت إليها تسألها:

ـ شاطئ؟!

قبل أن تغادر الغرفة نظرت في عينيها، وقالت:

ـ وكيف إذن تسافرين؟ كما سافر هو في مراكب الصيد، هكذا يسافر أولادنا جميعًا، دعيني أذهب الآن حتى لا يفتضح أمرنا.

أغلقـت خلفهـا البـاب وبقيـت وحدهـا ترقـب وجهها فـي المرآة، ووجنتاها ما زالتا بدمعهما مرطوبتين.

أمينة تسـاعدها؟! تسـافر علـى مركـب وينتظرها ولدهـا ويدفع لها تكاليف الرحلة كاملة؟!

هل هو حلم؟!

تعـرف جيدًا أن مراكـب الصيد تتعرض للخطر، فـي المدارس كان معلموها عن ذلك يتحدثون لكن ها هو ولد السـيدة بخير وسـينتظرها، هو طوق النجاة الوحيد!!

من شرفتها نظرت إلى السماء كأنها تشكرها وفي رجاء كبير تمتمت تقول:

ـ يـارب اجعله يقبـل وأعنّي أن أرد لـه كل ما سـيدفعه واحفظ أمينة وغريب اللذين هما أحن عليَّ من عمي وزوجته!!

* * *

كان سـعيدًا حين رآها تهبط مرتدية ملابس بسـيطة أنيقة وابتسـم في وجهها ابتسـامة عريضة سـارع بإخفائها حين التقط عيني أمه تطلق عليه شررًا أسود.

وقفت يسر في هدوء تنظر إليهم، ثم قالت في سخرية مكبوتة:

ـ هل يجب أن أتناول الإفطار أم يمكن إعفائي منه هذا الصباح؟!

نهض فريد سريعًا عن مقعده قائلاً:

ـ فلنتناول شيئًا على الطريق.

قبل أن يمضيا صاح الغندور الكبير قائلاً:

ـ اشـتر لها ما شـاءت من الثياب، بعد عقد قرانك تخلعين الأسـود، حتى أخي -رحمه الله- سيكون بهذا سعيدًا..

لـم تسـتدر إليه، هـي تعلم أنه لا يهتم بأخيه -رحمـه الله- وتعلم أن لو كان هو من مات ما قَبِل أن تتزوج ابنته، ولم يمض على وفاته شهران ولا رضـي أن تخلع عنها ثياب الحداد لكـن لا هو له ابنة ولا أبوها كان له أخ!!

كادت تضحك حين رأت فريد يسرع ليفتح لها باب السيارة بعد أن كاد يدخل من بابه كأنه تذكر شيئًا أمضى الليل يعيده على نفسه ليُثبت لها أنه في فنون البروتوكول ضليع.

تشعر بسعادته بها وتشعر أنه حقًّا يكاد يطير بها إلى القاهرة التي أصرّت أن تشتري منها غرفة نومها ولوازمها. حائرة هي منذ ليلة ما قبل الأمس، حائرة لا تكف عن التفكير أبدًا فيما دار بينها وبين أمينة.

لم تفلح أبدًا في الحديث إليها طوال الأمس وكأنها لا تعرفها.

هل حادثت ولدها؟ هل زفض؟ ربما لا يملك مالاً يدفعه للمركب التي تقلها إلى بلاده!!

ما هي بلاده؟ هي حتى لا تعلم!!

كيف أصبح المجهول أرحم بها من المعلوم؟!

كيف أصبح السفر إلى بلد لا تعرفه يلتقيها فيها شاب ابن خادمة في دار عمها هو الأمل بينما جلوسها إلى ابن عمها الذي يطير بها هو الموت واليأس بعينه..

في لحظة تخيلت ما تحلم به، سفينة في مياه مظلمة، وجوه لا تعرفها وبلاد لا تعرف حتى اسمها، وعادت تلتقط أنفاسها وتتذكر وعود أمينة وحنانها..

تذكرت كيف ضمتها إلى صدرها قبل مغادرتها غرفتها وهمست في أذنيها أنها أبدًا لن تتخلى عنها..

"يسر قولي رب دبر لي أمري فإني لا أحسن التدبير" قالتها الطيبة وخرجت!!

رددتها هي في الصباح التالي، وهي تسمعهم يحددون موعد عقد القران، رددتها حين أرخت قدرية عينيها كأنها في حالة حداد لا حالة زواج!!

رددتها ليلة الأمس، وهي تعلم أنها ستذهب مع فريد إلى القاهرة لشراء غرفة النوم وملابس العروس، رددتها وهي واقفة أمام مرآتها ترقص وتدور على أطراف أصابعها وترقب دمعاتها كقطرات من نار تكتوي بها ضلوعها..

إن لم تساعدها أمينة وترحل عنهم يصبح هذا الجالس بجوارها زوجها!!

ليست صغيرة وتعلم أن هذا معناه أن يأخذ جسدها وروحها ومصيرها.

ليست صغيرة وتعلم أيضًا أن هذا معناه أنها قد تصبح أمًّا كما قالت أمه.

ما عادت أبدًا صغيرة وتوقن أيضًا أنها يومًا تهرب منهم كما فعلت أمها رغم كل الحب الذي جمعها بأبيها ورغم الفارق الكبير بينه وبين فريد..

لا تريد أن تترك خلفها طفلاً يتألم كما تركتها أمها، لا تريد أن ترقص وحيدة باكية كما كانت أمها تفعل..

لا تريـد أبـدًا أن تـرى خديجة تدججهـا بعينيها وتخبرهـا أن لها في زوجها حقًا..

انتفضت كأن نحلة لسعت أطراف عينيها ليستدير فريد نحوها قائلاً:

ـ ما بكِ؟!

هـل ترجوه أن يتركها؟! هل تقبِّـل كفيه؟ وتطلب منه أن يأخذها إلى شاهيناز، أو سفارة بلد أمها لكن لا نجاة لها عند أي منهما..

شـعرت بـه يضـع كفه علـى أصابعهـا ويغلق عينيـه في نشـوة كبيرة ويهمس:

ـ سأسعدك يسر، لم أشته شيئًا في حياتي قدر اشتهائي لك..

كانت أصابعه باردة مبللة بالعرق وسـحبت أصابعها من تحت كفه، وقالت باكية:

ـ أنا صغيرة، ما زلت حزينة على أبي، لم أنه تعليمي بعد، لا أريد أن أتزوج، ساعدني..

كأنه لا يسمعها، أو كأنه ما سمعها أكمل يقول:

ـ أنت ابنة عمي، أنا بك أولى، أنجبتني أمي في سن أصغر من سنك..

عـاد يضغط علـى أصابعها غير مبال بمحاولاتهـا للإفلات من كفه، حتى مقاومتها تثير شهوته أكثر.

خديجة تترك له يدها، وكان دومًا يتحاشى أن يصل بيده إلى ما هو أكثر من لمسة سريعة، لكن مع هذه التي تقاومه يتمنى لو يوقف سيارته على نهر الطريق ويأخذها إلى صدره وشفتيه..

لن يتعجل الأمر، أيام ثلاث وتصبح زوجته، لكن ما زال عاجزًا عن مغادرة أصابعها.

تركت له أصابعها وأشاحت بوجهها تنظر من نافذة السيارة..

فريد كأبيه لا يسمع سوى نفسه، لكن إن كان هذا حاله اليوم فكيف يكون بعد أعوام..

سيتركها لأمه تذيقها ما شاءت من الألم.. سيبحث عن خديجة، وربما تزوجها لتتحد عليها نساء الغنادرة..

قد يكون الموت حقًّا في انتظار القوارب الهاربة لكن يبقى الموت أرحم من الوأد والقتل..

سمعت صوته يتحدث معلنًا أنه سيعتمد عليها في وصف المحال والطرقات..

هو لا يعرف القاهرة، كان يريد شراء الغرفة من "دمياط" لكنه يذهب إكرامًا لها، عاد يخبرها أنه سيصطحبها إلى أشهر محل يقدم "الحمام واللحم المشوي"..

استدار يرقب وجهها، وأكمل يخبرها أن لها أن تشتري كل ما اشتهته من يوم مولدها..

لن تسمع منه كلمة "لا" اليوم أبدًا!!

في محاولة يائسة ؛ لأن يجعلها تبادله الحديث قال:

ـ لا تأخذيني إلا لأغلى الأماكن، لا تحبين اللحم تفضلين الأسماك؟ تريدين تناول الطعام في فندق؟! أي شيء تريدينه فقط بأصابعك الرقيقة هذه أشيري، ماذا تريدين؟!

في ابتسامة صغيرة مريرة، قالت:

ـ يبدو ألا شيء بقي أمامي سوى البحر..

البحر يا فريد!!

* * *

بعـد أن رفـع الأذان لصـلاة العشـاء جلس علـى الأرض، وأغمض عينيه في ألم يتذكر، اسـتجمع كل ما بقـي له من قوى خائرة وتوجه إلى بيت الغندور هذا الصباح، لم يحادثه ولـم يقف على البوابة يطلب إذنًا له بالدخول، مر من جوار عبدالجبار بعد أن ألقى عليه السـلام مما يوحي أن سـكان الدار يعرفون بأمر قدومه، وقف كالجرو الصغير على بابهم، وحيـن فتحت إحدى الخادمات قال في كل اسـتكانة فلاحي دمرو منذ الخليقة، وحتى اليوم أنه يطلب رؤية "يسر"

بعـد لحظـات وجـد "قدريـة" بشـخصها تقف أمامـه، كأنـه ما كان سائقهم أعوامًا، كأنه ليس في عمر أبيها ولا فقد وحيده كما فقدت يومًا أخاها الشـاب، بصلافة المال وعجرفة القوة سـألته ماذا يريد؟! أخبرها أنـه جاء يطمئن على صحـة الغندور ويطلب رؤية يسـر.. قال وعيناه لا تبارحان حذاءه:

ـ منذ وفاة ولدي ويُسر أصبحت كأنها ابنتي.

عاد يستدرك قائلاً:

ـ المقامات محفوظة، لكن أشعر أنني على مشارف الموت، وأرجو أن تسمحي لي بالسلام عليها ووداعها..

لماذا كانت غاضبة إلى ذاك الحد، ربما لتجاوزه البوابة الكبيرة ووقوفه بباب البيت لكن منذ عمله لديهم، وهو لا يقف بالبوابات..

ما الذي تغير؟! هي حتى لم تطلب منه الدخول إلى ردهة البيت.. في هدوء عاصف قالت:

ـ ذهبت وفريد إلى القاهرة لشراء غرفة نومهم، عقد قرانهم بعد غد يا غريب، بإمكانك الحضور، سنقيم احتفالاً وذبائح..

ما تركت له كلمة يقولها!!

اعتذر واستدار ليمضي عدا أنه قال كأنه يتوسل إليها:

ـ هل أرجوكِ سيدة قدرية أن تخبريها أني أدعو لها، وكل المصلين في المسجد في كل صلاة، أرجوكِ.

كأن أفعى من بين حقول البلدة هاجمتها حين ذكر الصلاة والدعاء صاحت في وجهه قائلة:

ـ جننت يا غريب؟! أطاحت مصر والشيب بما بقي في عقلك، لستُ رسول غرام بينكما أيها العجوز، إن شئت فلتكن في عقد القران موجودًا لتأخذ نصيبك من اللحم والطعام لكن إياك أن تقف بهذا الباب مرة أخرى في حياتك..

أغلقت في وجهه الباب كأنها تغلقه في وجه متسول بغيض..

كيف تحيا يسر معها، ماذا ستفعل بها؟!

أرخـى عينيـه من جديد، وهو يعود إلى مسـجده ومـن حوله، وضع كفيـه علـى وجهه يمسـحه لئلا يرى أحـد المصلين دمعاتـه ونهض عن مكانه ووضع يده إلى جوار أذنيه وأخذ يكبر مقيمًا صلاة العشـاء، حين اصطف خلفه رجال القرية ممن حضروا تذكر كلمات أبيه القديمة "هل تحب الموت"؟!

ابتسم وهو يعتدل كأنه يقول أحبه ولا يحبني!!

ما عاد له ما يحيا من أجله، فماذا تراه الموت ينتظر؟!

* * *

تختنق، بل هي حقًّا اختنقت!!

في لحظة كادت أن تقتنع أن زواجها بفريد ليس بالسوء الذي تتخيله، في لحظة وبالتحديد حين خانتها دمعاتها لحظة ذهابهم إلى بيتهم في الدقي بناء على رجائها له وحين رجته أن يصعدا إلى شقتهم كادت تصدق أنها تحب فريد..

أوقف السيارة تحت مدخل البيت وأخبرها أنه لا يمانع لكن هو فقط ليس معه مفتاح، في حنان نظر نحوها، وقال:

ـ هو بيتنا لا منازع لنا فيه بإمكاني أن أحضر نجارًا وأكسر بابه لكن لا داعي لهذا، ما زال أمامنا الكثير نفعله، أعدك أن أحضرك بعد الزواج كلما شئت واشتقت إلى هذا المكان..

أخرجت له من حقيبتها الصغيرة مفتاحًا للبيت وأخبرته أن عمها أخذ المفتاح الذي كان بحوزة غريب، وهو مفتاح أبيها الذي لم يسألها أحد عنه، لم ينتظر حتى ترجوه بكلمة أخرى، أغلق السيارة وصعد بها إلى البيت..

حين فتحت ودخلوا، حين نظرت حولها ورأت مائدة طعامهم ووجه أبيها ومكان صحن البيض الذي يعده لها، حين دخلت غرفته ولمست ميداليات السباحة وكأس الجمهورية الذي كسبته بكت كأن

عصمت مات منذ لحظة، بكت في صوت متحشرج متقطع وأخذت تردد دون وعي كلمة "بابا".

كان ينظر إليها في ذهول وألم صادق، لا أحد يخطئ الصدق صغيرًا كان أم كبيرًا..

أخبرته أن عمه كان يحب هذه الميداليات وأنها ذبحت نفسها وفتتت جسدها في مياه حمامات السباحة لتسعده، بكت وهي تخبره أنها لم تخبر عصمت كم تحبه كما ينبغي، كانت تلومه كأنها تعاقبه على رحيل أمها وما فعله بها أخوه، أخبرته كيف لطمها أبوه في هذا المكان وكيف كانت ترى أبيها يبكي في ذاك المكان، أخبرته عن أمها التي لا يعرفها، عن حنانها، عن ذراعيها، كل المشاعر التي حبستها في بيت أبيه من قسوة أمه وإرهاب أبيه لها أطلقتها في بيت أبيها أمامه كأنه ليس منهم..

وقف ينظر إليها كأنه ما رآها يومًا قبل اللحظة..

ليست هي التي يشتهيها، ليست أبدًا الصامتة التي تترفع عليهم في طعامها وشرابها وحديثها..

هي فتاة صغيرة جميلة رقيقة حزينة لا تستحق أبدًا أن يعاقبوها على تهور أبيها، أو جرائم أمها، هي من دمه وهو من دمها..

شعر وهو يراها تبكي وتركض به في أنحاء البيت تحكي له قصصًا، وتكشف جراحًا أنه لا يشتهيها فحسب، بل يشتهي إسعادها ومسح دمعاتها..

يشتهي ضمها، وإعادة نقود أبيها لها..

ليس بحاجة إلى ما هو أكثر من ثروة أبيه لكن هي بحاجة إلى الأمان وتستحق الرثاء والحب..

من فرط ركضها هنا وهناك سقطت جدائل شعرها على كتفيها..

من فرط تقطع أنفاسها بالبكاء تلونت وجنتاها بحمرة رائعة اختلطت بخمرية بشرتها وجعلتها آلهة جمال في الحزن غارقة..

حين تعبت وقفت في منتصف صالة البيت وميداليات فوزها بين أصابعها مع صورة لأمها وأبيها يحتضناها، وقفت تلهث تنظر إليه، وقالت كأنها تزفر آخر أنفاسها:

ـ لا أريد أن أتزوج.. أريد أن أعود هنا، أريد أن أمارس السباحة من جديد؛ لأني أعلم أنه سيعود بروحه حولي، أريد أن أرقص الباليه؛ لأني أشعر أني استدعيها في كل مرة أفعل..

أخبرتني أمي أن أكون صادقة مع نفسي، وأريد أن أكون صادقة معك، أكره بيتكم، أرتعد خوفًا وأموت هناك يا فريد..

أجهشت بعدها بالبكاء وسقط كل ما في يدها على الأرض وتقدم نحوها يتعثر ما بين إشفاقه عليها ورغبته فيها، حين أصبح أمامها لم يجد ما يفعله سوى أن ضمها إلى صدره في قوة، وقال:

ـ أريدك وأريد إسعادك لكن لا طريق أمامنا سوى الزواج، لا أنا ولا أنت بإمكاننا أن نعصي الغندور..

هناك لحظات نقف فيها على قمة الألم والضعف والحاجة، لحظات إن مد لنا الجحيم ذراعيه نلقي برؤوسنا بينهما لشدة ما نحتاج العناق..

ضغطت رأسها إلى صدره وهي تئن وتتمنى لو يحتضنها أكثر..

"الغندور" كلمة السر للشقاء والألم، فريد ضعيف مثلها..

هربت أوليجا من سيطرة عمها على حياتها، وهرب أبوها أيضًا منه وها هو فريد بكل صباه وقوته يعلن ألا أحدهما يملك عصيانه، لا مفر أمامها أبدًا من الهرب هي الأخرى..

حتى إن كان ذراعا فريد دافئتين لكن تثق أن الغندور إن أصدر أوامره لهما أصبحتا طرفي كماشة تنقض على عنقها، ولا تتركها إلا جثة هامدة..

تركت نفسها لعناقه، وحين حاول في لحظة فقد فيها حتى إشفاقه عليها أن يقبّلها ويعبث بجسدها ابتعدت عنه في ألم، وهي تقول:

ـ فلنذهب، إن علم عمي بحضورنا من مِن غضبه ينجيك وينجيني؟!

أصبح محمومًا لا يعلم كيف يسيطر على نفسه، شيء في أنفاس هذه الشابة، شيء في رائحتها كالمخدر الذي أدمنه والدها، كلما ارتشفت منه استزدت فيه رغبة واحتياجًا!!

كان يردد في جنون أنها بعد الغد تصبح زوجته، فلتشعر به، فلتشعر بحبه ورغبته، لم تكن تقاومه في صدق، وما كانت تريده لكنها شعرت بنشوة في توسله لها وركضه خلف شفتيها وعناقها، حين وصل بكفه إلى صدرها شعرت بخوف عميق لم تفهمه، تعلم جيدًا ما يدور بين

رجـل وامرأة لكن ما زالت في كامل وعيها، كل ما تريده يسـر وعدًا بأن يساندها ويقف في وجه أبيه وأمه..

مـا تريده أملاً بعودتها إلى بيتها، والحياة حيث اعتادت حتى إن كان بصحبة فريد..

كان يحاول ضم شفتيها إليه، وكانت تحاول أن تتحدث، قالت:

ـ إن تزوجنا هل تأتي بي لأحيا هنا؟!

لم يسمعها ولو سمع، وقال نعم لتزوجته وربما منحته كل شيء دون زواج!!

لا أحد منهما أبدًا يشعر بما يريده الآخر، كل منهما يرى حاجته أكبر وما يفعله الآخر شـيء تافه لا يسـتحق أبدًا الإصرار عليه، بقوة أمسـك برأسـها بين كفيه وسـقط بشفتيه على شـفتيها علّها تسـكت وبقوة أكبر أبعـدت يديـه عنها، وهي تتألم وفـي ذات اللحظة التـي كان فيها يقول: "ألا تصمتين" كانت هي تقول "ألا تسمع"؟!

سـكت كلاهما عـن الحديث كأنهمـا أدركا معًـا أن كلاًّ منهما على طريق سوى طريق الآخر يسير..

شعرت بخيبة أمل كبيرة، حقًّا كما قالت يومًا لنفسها.. هو لا يسمع!!

عـاود الاقتراب منها ووضع كفه في شـعرها، وقال بأنفاس ما زالت متقطعة:

ـ فلنذهب، بعد الغد نفعل ونقول ما شئنا..

انحنت تلتقط ميداليات ذكرياتها وصورة والديها تخبره أنها ستعود ببعض الأشياء معها ووقف هو يرقبها، لا شيء على الأرض سيمنعه عنها، يريدها، ليست عنيدة كما كان يظن، في لحظات كادت تذوب بين ذراعيه وعلى صدره..

مفتاحها العناق!! ليست أبدًا كخديجة رغم أنه يملك مفتاحها هي الأخرى..

حين عادت بحقيبة المدرسة على ظهرها بعد أن وضعت فيها ما شاءت من أشياء أمسك بكفها، وقال "ستصبحين أسعد النساء".

نكست رأسها، ومضت إلى جواره، وكل ما في رأسها سؤال كبير..

كيف بعد كل ما بكته من دمع، وقالته من كلمات ما زال لا يفهم ولا يسمع؟!

هل تراها أمينة تنقذها؟! وهل حقًّا ترمي بنفسها في البحر أم أن ذراعيه أقل من البحر هلاكًا وموتًا!!

***

كان اليوم سريعًا كأنها ليست جزءًا منه..

عمال يتحركون في بيت الغندور، بعضهم قام بتركيب غرفة النوم والبعض الآخر يعد الدور السفلي لاستقبال المدعوين وموائد الطعام..

قدرية أصدرت الأوامر بنقل ملابسها إلى الجناح الجديد بينما أعلن عمها عن عدد الذبائح التي يقومون بذبحها..

حتى أمينة كانت تتنقل معهم وبينهم دون حتى نظرة واحدة تطمئنها بها، أو كلمة تخبرها بها عن قرار ولدها كأن شيئًا ما كان بينهما وكأن كل الوعود والأحاديث كانت أضغاث أحلام..

كأنها ترقب فيلم رعب لم تشتر تذكرته، ولم تذهب إلى قاعته، كالمذهولة هي لا تعلم هل تصرخ أم تغمض عينيها وتصمت..

كلما التقت عيناها بعيني فريد تراقصت صور الأمس حين كان يحاول تقبيلها وصور أخرى نسجتها من قصص المدارس والأفلام عن كل ما يمكن أن يدور بينهما في الغد، تراه عاريًا وتراها تتألم بين ذراعيه، ترى نفسها تصرخ وتراه يضحك وترى نفسها تبكي وتراه ينهض عن جسدها ويخرج بعيدًا عنها حيث تنتظره خديجة..

دخلت على أمينة المطبخ أكثر من مرة، وحاولت أن تتحدث إليها لكن المرأة همست ترجوها أن تبتعد عنها، في إحدى المرات أخبرتها أنها ستصيح في وجه المأذون والمدعوين برفضها وأمسكت العجوز بكفها تهمس:

ـ لا أحد منهم يهتم بصراخك، المأذون يأخذ مبلغًا مضاعفًا، والمدعوون تصم آذانهم وتعمى أعينهم قطع اللحم التي يطعمها إياهم، ابتعدي وسآتيك في الوقت المناسب!!

ما هو الوقت المناسب؟!

الظلام بدأ يحل على الدار، وفي الغد يتم عقد القران ما هو الوقت المناسب؟!

وما هو القرار المناسب؟! كيف نعرف الصواب ونتبع الخطأ؟!

لماذا ندرك ماذا نريد ونستسلم لفعل ما لا نريد؟!

كيف تكون صادقة مع نفسها إن كانت النفس تريد الشيء وتخشاه وتكره نقيضه وتأتيه؟!

حين فقدت قواها، وبدأت تهدأ في فراشها، وتسقط أوصال جسدها من إرهاق يوم السفر ذاك ويوم الذهول هذا؟ شعرت بيد أمينة تهزها في قوة وهي تهمس:

ـ لا تنامي، هيا بنا، انهضي يسر..

فتحت الصغيرة عينيها وانتفضت في فراشها، تقول:

ـ ظننتك لن تأتي..

كانت الأخرى تجذبها من ذراعها، قائلة:

ـ تتحرك المركب بعد ساعة من الشخلوبة، لا وقت لدينا، ضعي نفسك في ثيابك، وافق ولدي على استقبالك، ودفع كامل المبلغ لربان المركب الكبير..

لم تكن تفهم!!

كانت تتحرك مع المرأة التي أخرجت لها أول ما وقعت عليه يداها من ثياب ارتدتها وهي ما زالت لا تفهم.. وعادت المرأة تقول:

ـ الوقت ضيق وهي الفرصة الوحيدة والأخيرة، إن تم عقد قرانك انتهى أمرك، إن استيقظ أحدهم انتهى أمرنا معًا، إن رحل مركب الصيد الصغير لن تلحقي بالمركب الكبير ويُفتضح أمرك.. يقتلك عمك ويقتلني والله إن حدث!!

جمل تسمعها وتحاول أن تستوعب معناها..

كلما حاولت التقاط شيء من ملابسها صاحت الأخرى ألا شيء مسموح لها به سوى قطعتين من الملابس لا أكثر..

حين جذبتها من كفها إلى خارج الغرفة ما استطاعت أن تأخذ شيئًا سوى حقيبة المدرسة التي أحضرتها من الدقي والتي تحوي ميداليات السباحة وصورتها مع والديها وجواز سفرها القديم الملصق عليه صورتها وهي طفلة..

كـورت بنطلونين وجاكيت من الصـوف ورمت به إلى ذات الحقيبة ووضعتهـا على ظهرهـا وتبعت المرأة في ذهول، سـاق تخطو بها معها وسـاق أخـرى تجذبها في قسـوة لإحساسـها أنها تقاومهـا وتحاول أن تعود بها وتبقى في دار عمها وإن كان بين ذراعي فريد..

حيـن خرجا مـن البوابة لم تصدق أن أحدًا مـن الحراس كان هناك، حين اسـتدارت تسـألها وجدتها تدفعهـا بيدها إلى داخل سـيارة كانت تنتظر وهي تصيح هامسة:

ـ المركب تنتظر..

دخلت يسر ودخلت أمينة معها دون حديث، انطلق السائق ونظرت إليهما معًا، كيف اسـتطاعت إقناع السـائق بمساعدتها وماذا يحدث لها لو فضح السائق أمرها..

حين حاولت أن تتحدث استدارت أمينة نحوها تقول:

ـ لا وقت لدينا، تجدين ولدي في انتظارك على الشاطئ بعد وصول المركب الكبير..

أمسكت بكفها، وهي تقول:

ـ أرجـوك خذيني إلى غريب دقائق، دقائق صغيرة فقط!! حادثته من هاتـف فريد لكن أجاب صـوت آخر، لم يعد الهاتف معـه، خذيني إليه أرجوكِ..

في ذهول نظرت إليها أمينة، وقالت:

ـ اسـمعيني يا ابنتي، ذهبت إلى الغريب هذا الصباح وأخبرني أنه لا يريد تحدي الغندور ولا يريد رؤيتك..

لا أحد يفعل!!

عادت تتحدث وتخبرها أن المركب الصغير سيسير بها في البحر ثم تنتقل إلى المركب الكبير الذي يصل بها إلى الشاطئ بعد أيام ثلاث..

مدت يدها داخل جلبابها وأخرجتها قائلة:

ـ أيضًا أعددت لك حقيبة صغيرة بها كل ما ادخرته من نقود وبها أيضًا بعض الأطعمة.

كل شيء يركض خلف شيء وهي كالمذهولة لا تفهم أي شيء ولا تعلم هل تصرخ طالبة العودة أم تنثني على جبهة المرأة تقبلها..

حين وصلتا إلى الشخلوبة ووقفتا بجوار الشاطئ، وجدا شابًّا في انتظارهما وما إن رأى يسر حتى فتح فمه في ذهول قائلاً:

ـ لم تخبريني أنها فتاة؟!

في قسوة لم تفهمها أجابته:

ـ أي فارق؟! نقودك كاملة فمن أي شيء تخاف؟!

أمسك الشاب بيدها ومضى يحمل الحقيبة الصغيرة التي أخرجها السائق قائلاً:

ـ عليها أخاف..

تركت ذراعه وركضت نحو أمينة تضمها إلى صدرها وهي ترتجف قائلة:

ـ ستكونين بخير، لا أعلم كيف أشكرك، فقط كوني بخير..

رجفة صغيرة سرت في جسد العجوز، وهي تراها تخطو نحو مركب صيد صغيرة كان عليها ما يقارب العشرة رجال وقفوا ينظرون إلى الشابة في دهشة كبيرة..

استدارت نحو أمينة كأنها تستجديها أن تعود بها، أو تقول لها شيئًا ينفخ في روحها العزيمة والقوة لكن ما إن وضعت ساقيها بداخل المركب حتى غاب عنها وجهها في الظلام!!

***

حين عادت وحدها وعبرت بوابة البيت الكبير بعد أن ألقت السلام على "عبدالجبار" كانت تشعر بشيء غريب يتجول في صدرها..

رحلت يسر فلِمَ وجهها باق أمام عينيها، غابت ولكن لما يرتفع صوتها في أذنيها، وهي تعتذر منها وترجوها أن تكون بخير..

هل حقًّا تسرعت في ما فعلته؟!

نكست رأسها وصعدت سلالم البيت في هدوء تنظر حولها وتوجهت إلى ردهة غرفة نوم الغندور وزوجته..

في هدوء أشعلت ضوء الردهة، وأغلقته مرتين متتاليتين وأسرعت تنزوي في ركن بعيد، بعد لحظات قليلة ظهرت قدرية تهمس:

ـ تأخرت أيتها البلهاء، هل رحلت؟!

في هدوء حركت رأسها بالإيجاب، وهمست:

ـ رحلت دون حتى أن تسألني عن اسم ولدي، أو اسم الشاطئ الذي تنزل فيه..

في تهكم قالت قدرية:

ـ إن منحناها وقتًا وفرصة لتسأل وتتحدث ما ذهبت، ألا يكفي كل ما دفعناه لنجنبها مرحلة التخزين!! اذهبي إلى غرفتك، غدًا أمنحك باقي المبلغ، دعينا ننام ونتنفس هواءً نظيفًا خاليًا من أنفاس تلك الأفعى..

كأن دمعة لاحت في عينيها، كأن ندمًا رقص فوق رموشها قالت:

ـ من أخذها من يدي كان خائفًا عليها، هل تراها تنجو!! إن لم يفترسها البحر افترسها الهاربون..

في قسوة وغيظ رفعت قدرية حاجبيها، وقالت:

ـ وهل فعلنا ودفعنا كل هذا لتنجو؟!

سقطت دمعة أمينة، وهي تقول:

ـ لا أعلم، ألم في صدري، وخز يقتلني!!

بكفها لكزت قدرية كتفها، وقالت:

ـ لا تبالي، النقود تشفيه..

أرخت عينيها، ومضت من جوارها تهمس:

ـ النقود لا تُسكت القلوب إن تألمت!!

ومضت قدرية هي الأخرى تقول في تهكم:

لكنها تخرس الضمائر إن أفاقت واستيقظت!!

* * *

كانـوا أكثـر من عشـرة، حوالي عشـرين شـابًّا تتـراوح أعمارهم من السـابعة عشـرة ومنتصـف الثلاثينيـات، رغـم الظـلام الدامـس كانت وجوههـم واضحـة كأن الخـوف والألـم الذي فـي أعينهم أشـعل فيها مصابيح تنير ظلمة البحر..

أشـار لهـا قائد المركـب إلى المـكان الذي تجلس فيه جـواره، كان واضحًـا أنه أعجب بها منذ اللحظة التي أمسـك بيدها فيها عند دخولها القارب، جلست إلى جواره في صمت بعد أن وضعت الحقيبة الصغيرة التـي منحتهـا إياهـا أمينة وأخـذت تتجـول بعينيها على ضـوء مصابيح أعينهـم، القارب صغير لا تجد فيـه موضعًا لقدم والصمت يجعل هدير الأمـواج من حولهم كأنه أجراس كنائس، نكسـت رأسـها حين أدركت أنها ليست هي من تنظر، بل وحدها قبلة كل الناظرين..

حين صاح أحدهم يقول:

ـ متى نصل إلى المركب الآخر؟!

أجاب القائد الذي يجلس إلى جوارها قائلاً:

ـ سـاعات قليلـة ونصـل، لا تقلق سـينتظرون فهنـاك زوارق أخرى كثيرة من البحيرة ودمياط والدقهلية في الطريق..

كأنه بعد كلماته هذه تذكر شيئًا استدار إليها يقول:

-هل ينتظرك أحد على قارب المغادرة؟!

أجابته في هدوء:

- بل ينتظرني شخص على الشاطئ..

هز رأسه كأنه بذكائه سعيد، لا يمكن لفتاة كهذه أن تسافر وحدها، هي فقط تظن أنهم سيقفون بالشاطئ، ولا تعلم أنهم من مركب إلى مركب يدخلون..

حاول كثيرًا أن يتحدث معها، لكنها أغمضت عينيها وتظاهرت بالنوم وغابت في رحلة طويلة داخل جفنيها.

لا تستطيع أبدًا أن تتخلص من خوفها، ولا تستطيع أبدًا أن تكتم الألم الذي في عروقها كلما تذكرت كلمات أمينة عن غريب وكيف رفض مساعدتها..

أصبحت هي الغريبة وما تفعله هو الصواب..

هذا ما يجب أن تقنع نفسها به!!

بقيت تتجول بعينيها المغلقتين على كل أيام حياتها، وعلى كل الوجوه حتى وقفت على وجه فريد، ما تراه يفعل حين يعلم باختفائها..

حقًّا لا تريد أن تؤلمه، ما يسعدها قليلاً هو وجه أبيه وأمه عندما يعلمان أنها رغم السجن هربت ورغم الحصار انتصرت..

أفاقت على كف ذات الشاب تهز كتفيها يصيح:

ـ استيقظي، نحن بجوار المركب..

فتحت عينيها لتشهق شهقة كبيرة..

كان الزورق يقف وإلى جواره عشرات الزوارق الصغيرة حول مركب أخرى متهالكة رغم حجمها الأكبر..

سلالم من الأحبال كانت ملقاة على جوانب المركب وكل من على الزوارق يتسلقها للوصول إلى سطحها، جميع من كانوا معها رأتهم يصطفون، ويحاول كل منهم الوصول إلى المركب الأكبر..

حمل عنها حقيبتها الصغيرة، وأمسك بيدها وهو يقول:

ـ ستجدين من ينتظرك على ظهرها، لا تقلقي..

حاولت أن تخبره أن لا أحد ينتظرها هنا لكن ما عساه يفعل إن أخبرته، حين حان عليها الدور ورفعها بذراعه لتتسلق السلالم قذف بحقيبتها الصغيرة إلى أحد الرجال المتدلين وصاح:

ـ ساعدها لتصل إلى رجلها عندك، أرجوك..

رقصت الباليه، وشربت من مياه جميع حمامات السباحة في مصر أعوامًا طويلة إلا أنها لم تتخيل يومًا أن تتسلق حبالاً مربوطة، وتتسلل إلى أنفها رائحة صدأ حديد المركب ممزوجًا بملح البحر المتوسط..

ألقت بكفها بين كفي الرجل الممدودة نحوها ليجذبها بقوة لتصبح داخل المركب وأزاحها عن طريقه ليلتقط من خلفها قائلاً:

ـ احملي حقيبتك وابحثي عن من تريدين، ما زال هناك زوارق أخرى قادمة..

حيـن انتصبت واقفـة مع الحقيبـة الصغيرة ونظرت حولها شـعرت بخـوف كبير، عشـرات، بل ربما مئـات الوجوه والأجسـاد تركض هنا وهناك وبعينيها التقطت شابة صغيرة تحمل على كتفيها طفل لا يتجاوز عمـره العام الواحد، لكنها ليسـت وحدها، بل مع رجل من الواضح أنه زوجها، انتفضت وهي تسمع صوتًا يصيح قائلاً:

ـ العـدد يتجـاوز المائـة شـخص، فليتوجه عـدد منكم إلـى "ثلاجة السمك" وإلا لن نتحرك، هيا..

لم تكن أبدًا تفهم لكنها رأت عددًا كبيرًا يتجه إلى قاع المركب بينما بقيت بعينيها تبحث عن تلك الشـابة وزوجها وطفلهما كأنها تتحسـس في وجودهم شـيئًا من الأمان، رأتهم على البعد، رأت المرأة تنظر إليها كأنهـا هي الأخرى تريدها إلى جوارها، وتقدمـت نحوهم في تردد، لم تقـل كلمة ولـم تبادرها الأخرى بسـؤال لكن شـيئًا فـي ملامحهما معًا هـدأ، عادت ترقب ما يحـدث حولها ورجال المركب تصيح لتعلن بعد لحظـات أن جميع الزوارق وصلت وأنهت تفريغ شـحنتها من الرجال وأن على كل منهم أن يجد لنفسه مكانًا..

هؤلاء هم رفقة الرحلة!!

غرباء جميعهم لكن هناك شيئًا مشتركًا بينهم!!

شـيء له روح ولون وملامح واضحة تشـعر بها ترتسم على وجهها هي أيضًا..

هو قاسم مشترك أعلى اسمه الخوف والأمل!!!

***

كان عبد الرحمن يقف مبتسمًا وإلى جواره أمه في جلباب الصلاة بينما يصيح هو ضاحكًا يخبرهما أنه قادم وفي اللحظة التي كان يخطو فيها نحوهما سمع هرجًا كبيرًا لم يفهمه أبدًا، حاول أن يتجاهله وأسرع يمد يده نحو ولده يطلب منه أن يأخذ بها إلا أن جليلة كانت تقول:

ـ لا تتعجل يا غريب!!

هما قاب قوسين أو أدنى لكن كفه لا تصل إليهما وذاك الصياح ما زال يتزايد وهو يصيح يخبرها أن عبدالرحمن ليس ولدها وحدها، يريد أن يصلي معه وابتسمت وتستبقيه مكانه بكفها رغم أنه يردد "لا أريد الصلاة وحدي"!!

حين استدار ولده إليه قال في صفاء "ليست الصلاة وحدها كل شيء يا أبي"!

في هذه اللحظة فتح الرجل عينيه وأخذ يدور بهما حول نفسه محاولاً أن يفهم صوت الطرقات العنيفة وانتفض من فراشه حين أدرك أنه كان كعادته يحلم وعلى غير العادة هناك من يصر على إيقاظه وحرمانه حتى من رحمة الحلم..

نهض عن فراشه نحو باب البيت ليفتحه ليجد الغندور الكبير وولده يقفان بالباب وقبل أن يفتح فمه بكلمة دفع الغندور الباب بعصاه صائحًا:

ـ يُسر!!

لم ينتظر منه كلمة ولم يلقيا عليه تحية، بل دخلا وتركاه على الباب يقف وهو ما زال يتعثر بين حلاوة الحلم ومرارة الواقع..

البيت أصغر من ألا يريا كل ما فيه وهما في مكانهما، واستدار الغندور يزأر قائلاً:

ـ أين هي؟!

أدرك أن يسر تركتهم، أدرك أنها هربت وأدرك أنه ما كان صادقًا مع نفسه كما ينبغي..

أقنع نفسه قسرًا أنها سعيدة معهم، أو ستعتادهم وحمل نفسه وعاد دون الوصول إليها..

تقدم فريد نحوه يقول في ألم جريح وغيظ كبير:

ـ ليس لها سواك، ولم تكف يومًا عن طلب الحضور إليك في أي بيت من بيوت "دمرو" خبأتها؟!

كان مذهولاً مفتوح العينين وصاح يقول:

ـ أنا من يسألكم أين هي؟! ألم أطلب منك رؤيتها وأخبرتني أنها سعيدة وتعد لزواجها!! أما حضرت حتى البيت أتسول النظر في وجهها وطردتني أمك يا سيد فريد..

المسكينة لا تعرف بيتي، اليتيمة هربت من قسوتكم..

أدرك الغندور من بحة صوت الغريب أنه يتمزق ألمًا، والألم لا معنى له سوى أنه لا يعرف عنها شيئًا..

استدار بجسده الطويل، قائلاً:

ـ هيا بنا، يسر ذهبت إلى مصر، ولم تأت هنا.

أخبرهم غريب أنه سيذهب معهم، هو يعرف كل الأماكن التي تحبها وتقصدها..

لحظات قليلة من التفكير أصدر بعدها الغندور موافقته ليسرع بتبديل ملابسه والخروج إليهم..

سيجوب بيوت صديقاتها اللاتي يعرفهن واحدة تلو الأخرى، عبد الرحمن على حق!!

"الصلاة ليست كل شيء"، ما زال عنده شيء كبير يفعله، تأدية الأمانة، حين يجدها لن يدعهم يرغمونها على شيء..

أخطأ خطأ كبيرًا حين ظن أنها تعتادهم وتعتاد حبهم.

أنت في الحب والحياة إما أنك تريد، أو لا تريد!!

***

في اليم لا فارق أبدًا بين نهار وليل..

الضياع واحد والخوف واحد إن كانت الشمس تتوسط السماء، أو كان الظلام يكسوها..

في نفس المكان تكورت، كل الوجوه حولها لا فارق بينها، الجميع يصيح والبحر حولهم جميعًا يموج، حين شعرت بحاجتها إلى دخول الحمام بعد ساعات من طلوع الشمس لم تعرف من تسأل سوى أنها ذهبت على استحياء إلى المرأة التي كانت تحتضن طفلها الصغير وانحنت عليها تسألها إن كانت تعرف مكانه..

شعرت في تلك الثواني التي تحركت فيها بصعوبة بين أكوام اللحم المتراصة أحدها إلى جوار الآخر أن كل من على السفينة كان يتبعها بعينيه، كأن المرأة كانت تتمنى لو تحادثها، ابتسمت في وجهها وأخبرتها أنها لا تعرف..

حين اعتذرت، واعتدلت بجسدها لتعود إلى مكانها جذبتها من يدها في رفق تطلب منها الجلوس إلى جوارها، لم يكن هناك مكان على السفينة فهي صغيرة وتحمل أكثر من مائتي وجه، تتصاعد من أجسادهم رائحة عرق نفاذة، جلست إلى جوار المرأة التي كان زوجها نائمًا بينما تحتضن هي طفلها الغافي على صدرها، وقالت بعد لحظات:

ـ أنا حنان من "بلطيم" وهذا زوجي أحمد وولدي يوسف.

ابتسمت وهي تربت على رأس الصغير في حنان، وقالت:

ـ أنا يسر الغندور من دمرو!

بعـد حديث قصير أفاق الزوج من اغفـاءة إعيائه، وحين أخبرته عن يسـر ورغبتهما معًا فـي الذهاب إلى الحمام نهض عـن مكانه في ضيق يسـأل لهما عـن طلبهمـا، وعاد بعـد لحظات ليهبطـوا جميعًـا إلى قاع السـفينة حيـث يوجد ثلاثـة حمامات صغيـرة ضيقة ما اسـتطاعوا حتى الاقتـراب من أبوابها لبشـاعة الرائحة الصادرة عنها، حين أمسـك بأحد العامليـن على السـفينة وأخبـره أن المرأتين تريدان حمامًـا نظيفًا صاح الآخر يقول:

ـ لا فرق هنا بين رجل وامرأة، البحر أمامكم إن شئتم قضاء حاجتكم فيـه، ماذا تأنف أنت وهـي؟! جميعكم همج وهذه الرائحة والقذارة من صنعكم..

بعـد نظرة سـريعة تبادلها هو وزوجته أخبرهـم أنه سـيدخل إلى أحد الحمامـات ويلقـي فيهـا بعـض المـاء ولتغلقـا أنفيهما وتدخـلا، حين خرجت يسر بعد خروج حنان كانت عيناها غارقتين في الدمع..

لـم تكن تعلم يومًا أن هناك حمامًا علـى الأرض بهذه القذارة وهذه الرائحـة وأنها مضطرة لاسـتخدامه مع كل هؤلاء البشـر ولأيام لا تعلم عددها، أو نهايتها..

كان الرجل يحمل ولده على ذراعيه وأمسكت زوجته بكف الباكية وأخذوا جميعًا يشقون طريقهم إلى سطح المركب من جديد..

الساعات طويلة جدًّا حين نتعذب ولا عذاب تخيلته كعذاب الساعات على تلك السفينة..

كانت العيون تلتهمها هي وحتى رفيقتها وكانت الأصوات تتعالى وتصيح تطالب بوجبة طعام، استدارت حنان تسألها إن كانت جائعة، في هدوء أخبرتها أنها جائعة، ولكن ربما ليس من حقها أن تطالب بوجبة حين سألتها عن السبب قالت في هدوء:

ـ أنا لم أدفع ثمن الرحلة، ولا أظنهم يطعمونني، معي بعض الأطعمة في هذه الحقيبة، فلنأكل شيء منها..

قبل أن تفتح الحقيبة الصغيرة التي منحتها إياها أمينة كان عراكًا كبيرًا قد قام بين مجموعة من الشبان على سطح المركب تبادلوا فيها اللكمات والسباب..

بكت حنان عندما أصيب طفلها بفزع شديد وصاح زوجها مع كثير من عمال السفينة محاولين تهدئة الأمور واحتواء الموقف..

انكمشت من جديد كأنها تشاهد فيلمًا من أفلام السبيعينات التي تظهر على شاشة التليفزيون حيث يقتتل الجميع، ويصيح الجميع حتى لا يسمع أحد أحدًا..

بعد دقائق علا صوت في ميكروفون يدوي يأمر الجميع بالسكون..

كان قائد المركب يتحدث، أخبرهم أن السفينة ليست بحالة جيدة، وأنهم معرضون للموت في أي لحظة وأن وصولهم إلى شاطئ إيطاليا ما زال محفوفًا بالخطر، ومعرضًا للفشل وأنهم إن لم يلتزموا بالهدوء وحدهم يدفعون الثمن، قال الرجل أنه هو وطاقمه يغادرون السفينة على زوارق مطاطية ويتركونهم يموتون في عرض البحر إن شاءوا الاستمرار فيما هم فيه ماضون..

في لحظة واحدة كأن حربًا ما اشتعلت بينهم، كأن سبابًا قذرًا ما خرج من أفواههم..

في لحظة اتحدوا جميعًا يصيحون:

ـ أين الطعام؟ أين مياه الشرب؟! لم ندفع كل هذه النقود لنبقى جوعى وعطشى!!

عاد الرجل يخبرهم أنها وجبة واحدة تصرف لكل منهم عند الغروب، وأن براميل المياه موجودة بالقرب من ثلاجة الأسماك التي في الدور الأسفل، ولا شيء آخر يضيفه سوى استعداده التام لمغادرة المركب، وتركها فما جمعه ملاكها من نقود تكفيهم بالإضافة إلى أن التأمين يدفع كامل ثمنها..

كأنه يخاطب جمعًا من العبيد، أو السجناء صاح يقول:

ـ الأدب أو الموت، اختاروا!!

حين يكون الموت أحد خيارين فلا أحد أبدًا يختاره، وإن كان وأد الشرف، أو المبادئ هما الطرف الآخر!!

هدأت الأصوات بالتدريج إلا صوت الطفل..

كان فزعه وجوعه أكبر من أن يفهم ويمتثل لأوامر والديه وبعد لحظات أخرجت الأم له صدرها ومنحته إياه غير عابئة بكل من حولها..

انحنت يسر على الحقيبةُ الصغيرة تفتحها تبحث عن شيء تأكله وشيء آخر تمنحه لرفيقتها وحين مدت أصابعها، وأخرجت ما في الحقيبة ما وجدت سوى قطع من الخبز الجاف وقطع من الجبن وحبات الطماطم والخيار، على استحياء مسحت بعضًا من أصابع الخيار ومنحتها للزوجين وحين عادت بيدها إلى الحقيبة تبحث عن شيء آخر وجدت مظروفًا ارتطم بأصابعها، أخرجته وفتحته، وهي تظن أنها النقود التي أخبرتها عنها أمينة لكنه كان خاويًا إلا من ورقة صغيرة كتبت عليها:

هذه المرة حين يقام العّزاء لن يكون صوريًا..

ستموتين في البحر كما مات أخي وأقف أنا وولدي وخديجة زوجته نتقبل فيك العزاء وليت أمك هنا تأخذه معنا!!

كانت تقرأ وتنظر إلى وجه حنان، ثم تقرأ وتنظر إلى الحقيبة، وتعود للنظر إلى البحر والشمس والسماء ووجوه المتعبين الهاربين المكتظين حولها..

مرات عديدة تكرر ما فعلت ومرات عديدة وحنان تسألها وزوجها يفعل وهي ما زالت لا تفهم..

حين هدأت وأدركت فهمت كيف كانت البوابة دون حراس، وكيف كان السائق في الانتظار وكيف الحقد ينتصر وكيف هو الكره دائمًا أقوى..

كانت حنان تسألها وتهز ذراعها كأنها تحاول إفاقتها، وحدها يسر تعلم أنها حقًّا أفاقت..

حين سمعت للمرة الأولى السؤال الذي رددته حنان عشرات المرات ابتسمت في مرارة تقول:

ـ يبدو أن لي الحق أنا أيضًا في المطالبة بوجبة عند الغروب!!

* * *

لم يترك بيتًا قصدته مرة هي، أو أمها، أو حتى أبوها دون أن يقف به، حتى موظفي أمن مدرسة مصر للغات ذهبوا إليهم وسألوهم إن جاءتهم يسر، أو وقفت ببوابة المدرسة..

انتصف الليل ووحده الغندور أصدر له أمرًا بالعودة إلى دمرو وحين كانوا على مداخلها أخبره ألا يفتح فمه بكلمة عن اختفائها وغيابها، كان الغندور قد أمر رجاله بإعلام الجميع عن تأجيل عقد القران، لكن ما أن عبروا مدخل دمرو حتى استوقفهم أكثر من شخص يسأل إن وجدوا يُسْرًا..

"من أذاع الخبر؟!"..

قالها فريد في كبرياء ذبيح، لا يقتله غيابها قدر ما يذبحه أن يعرف سكان بلدته أن ابنة عمه هربت يوم عقد قرانه عليها..

حين وقف غريب بالسيارة داخل البيت الكبير مد بهجت يده يلتقط منه المفتاح دون حتى أن يشكره، وقال في قسوة:

ـ ما زلت لا أريد أن تنبس بحرف!!

هز الغريب رأسه وهو يمضي قائلاً:

ـ لا وقت عندي للأحرف والكلمات، سأكمل بحثي عن أمانة أضعتها، أضعت الأمانة!! أضعت ابنتي، وابنة أخيك، وسأجدها وحين أفعل لن أتركها لك أبدًا..

مضى دون أن ينتظر كلمة ومضيا إلى بيتهما ليجدا قدرية تجلس في بهو البيت تنتظرهما..

لم تسأل إن وجداها فلقد كانت تطلبهما على الهاتف كل ساعة..

صاح الغندور، وهو يلقي بجسده المنهك على أحد المقاعد يقول:

ـ ألم أطلب منك ألا تخبري أحدًا؟!

وقالت بعد أن طلبت من أمينة إعداد طعام العشاء..

ـ لم أغادر الدار وقلائل من لديهم هواتف محمولة في البلد..

من أذاع الخبر وكيف أذاعوه، هناك يد خفية خلف القصة..

نظر فريد إلى أمه في ذهول، وقال:

ـ اختفت، كأنها يومًا لم تكن، كيف؟!

نهضت قدرية عن مكانها تلتقط صحون الطعام من يد خادمتها لتصفها أمام الغندور، وقالت:

ـ بالنقود، سرقت عشرة آلاف جنيه..

حين نظر إليها الغندور في ذهول قالت وهي تكاد تبكي:

ـ نعم الآلاف التي طلبتها منك لأمنحها لها هدية بعد عقد القران ظنًّا مني أن هذا قد يجعلها تهدأ وتحبني لكن ما الجديد؟!

سرقت أمها من قبل وهربت، هو ذات الدم النجس الملوث!!

***

هو اليوم الثالث على ظهر المركب وما زالت تتكور إلى جوار حنان وولدها في سكون، كأن تلك الرسالة قتلت فيها ما بقي منها، الروائح الكريهة القادمة من تكدس الشباب في ثلاجة أسماك المركب ومن مراحيضها أصبحت تصل حتى السطح حيث يجلسون، وجبة الطعام التي توزع مع غروب الشمس ما عادت تكفيهم ولا عادوا يرفضونها رغم لونها ورائحتها، أخبروهم أن ما زال أمامهم يومان آخران قبل الوصول إلى شاطئ إيطاليا..

لن يكون أحد في انتظارها على الشاطئ، أمينة كانت وهمًا كبيرًا..

كانت فخًّا سقطت هي فيه بسهولة..

شيء واحد فقط يجعلها كلما ابتلعت دموعها تبتسم، شيء واحد فقط كلما أغلقت أنفها وتوجهت إلى حمام المركب، أو أغمضت عينيها وابتلعت لقيمات صحن الغروب يجعلها تبتسم..

إن كانت أمينة عميلة لقدرية فكل أحاديثها عن غريب كذب، غريب لم يتخل عنها، هو فقط بلا هاتف لكن يومًا يلتقيان..

كل ما تريد أن تشعر به أن هناك على هذا الكوكب من لم يتخل عنها..

شـخص واحـد فقط يضمر لهـا الخيـر والحـب، وإن كان في عجز غريب وبعده عنها!!

تحسسـت الحقيبـة الصغيرة التي منحتهـا إياها العجـوز التي كانت تدعو الله لو يرزقها مالاً تعود به إليها وتشكرها على ما فعلته معها..

لم يبق شـيء من أصابع الخيـار وحبات الطماطم وقطع الجبن التي اقتسمتها مع حنان وزوجها، الجوع يقرص أمعاءها، والخديعة ما زالت تمزق أحشاءها..

مالـت حنـان عليها تسـألها إن كانت جائعة مثلها، ومـدت يدها إلى الحقيبة تفتحها وتخبرها في أسف أن شيئًا لم يبق فيها..

في تردد أخرجت حنان من حقيبة صغيرة لديهم بعض اللحم المقدد والخبز منحت منه لزوجها أولاً ثم مدت يدها نحو يسر بقطعتين منه مع قطعة من الخبز!!

حاولت أن ترفض لكنها شعرت ألا حرج في أن تسد جوعها ببعض مـن طعامهـم كما منحتهم كل ما كان معها، مـا أن وضعت قطعة اللحم الصغيرة المقددة في فمها حتى سمعت أحمد يقول في ضجر:

ـ لن نستطيع أن نطعمك مرة أخرى، ما معنا بالكاد يكفينا..

تحجـرت عيناهـا وتصلـب لسـانها داخـل فمهـا، تمنـت لـو كان باستطاعتها أن تعيد له ما تمضغه..

اسـتدارت بوجهها نحو حنان لتجدها نكست رأسها في خجل كبير ومدت يدها بقطعة الخبز وقطعة اللحم الثانية نحوه ليقول في جفاء:

ـ تناوليهـم، هـم نظير مـا منحتنا فـي اليوميـن الماضييـن، نحن في البحر، لا مجال أبدًا للكرم والتبذير..

فـي هـدوء وضعت مـا في يدهـا أمامهم ثـم أخرجت رسـالة قدرية مـن الحقيبـة الفارغة ونهضت وحقيبة مدرسـتها ما زالـت على ظهرها وابتعدت عنهم في سكون..

ما أن ولتهم ظهرها قليلاً حتى أخرجت تلك اللقيمات الصغيرة التي كانـت فـي فمها في ألم كبيـر لتقذفها بعيدًا في قلب البحر، سـارت بين جموع الجالسين وهي تكاد تتعثر..

أإلى هذا الحد لا يحبها أحد؟!

أإلى هذ الحد حقًّا؟!

رغـم مـا علمته واكتشـفته تمنت كثيـرًا لـو أن أمينة وضعـت طعامًا حقيقيًّـا فقـط لتمنحه لحنان وزوجهـا، كانت تُخرج لهـم حبات الخيار والطماطم والجبن وتقسم عليهم أن يأكلوها في حب وامتنان..

ربما فعلت ؛ لأنها كانت تحتاج وجودها إلى جوارهم..

كانـت تشـتري إحساسـها بأنها ليسـت وحدها لكن ما عسـاهم هم باللحم والخبز منها يشترون!!

في الطـرف الخلفي من المركب وجدت مكانًـا خاويًا، خطت نحو سور المركب ووقفت تنظر إلى البحر..

"أنا أحبك يسر"!!

صوت أمها يردد هذه الكلمات يطن في أذنيها كطبول الحروب..

أتراها أوليجا هربت منها وكانت كلمات حبها الأخيرة كذب!!

شعرت بدموعها تهطل على وجهها الذي يواجه البحر في قسوة لم تستطع أبدًا أن تهزمها، هي وحيدة لا تملك سوى بعض الميداليات، وصورة وشال صغير في حقيبة مدرسة على ظهرها، حتى النقود التي أخبرتها عنها أمينة ما وجدتها..

هي بلا أم أو أب، لا أحد على الشاطئ ينتظرها..

هي بلا شاطئ، أو مرسى!!

كانت تشعر أن يدًا تلامس ظهرها، أو تتحسس خصرها لكن ظنت أنها جموع المسافرين معها عدا أنها بعد لحظات سمعت صوتًا يهمس:

ـ هذه الدموع دواؤها عندي..

واعتلى صوت آخر يقول:

ـ عندنا وليس عِندكَ وحدك!!

استدارت في جنون لتجد ثلاثة من شباب المسافرين يقفون خلفها، ورغم كل من حولهم إلا أنهم كانوا ينظرون إليها في نهم وجوع..

نهم فيه ضياع وجوع فيه يأس ولا مبالاة..

حاولت أن تمضي من بينهم إلا أن أحدهم شبَّك أصابعه في أصابع الآخر في لحظة لتصبح يسر بداخل دائرة أحكموها حولها، شعرت

بذعـر كبير ومن خلـف دموعها نظرت إلى كل من يقـف ويجلس على الأرض كأنها تستغيث إلا أن الجميع كان يرقب ما يدور في سكون..

هم إلى شـيء كبير يخرجهـم من خوفهم وجوعهـم يحتاجون، هم متعبون وأحيانًا ينسينا التعب جميع مبادئنا وقيمنا!!

حاولـت أن تنحنـي وتخـرج من تحـت أذرعهـم إلا أنهـم أحكموا حولهـا الحصار، كانوا يـدورون حولها، ويرددون أغنية ماجنة في بلادة كبيرة، كانت تصيح في ذعر، وكان الجميع يراقب كأنه يسـتزيد المشهد طولاً ويرجوه بقاءً..

رغمـا عنها أخذت تصيح وتردد اسـم حنان وزوجهـا، ومع كل مرة كانت تناديهم كان جنون الرجال الثلاثة يعلو حتى أن بعضًا من الجالسين بدأوا يصفقون صفقات متتالية كأنهم يشـاهدون حلبة صراع الثيران، لم تجد مفرًّا أبدًا من أن تقترب منهم، وتحاول فك تشابك أيديهم بكفيها، وحين فشلت صاحت أكثر ورفعت يدها لتصفع أحدهم على وجهه..

سـكت التصفيق، واتسعت أعين المشاهدين، ترقب الخطوة التالية، وأخذت تصيح في هيستريا "ابتعدوا عني"!!

أمسـك الشـاب الذي صفعته بذراعها، وفي اللحظة التي كاد يهوي بكفه على وجهها أمسكت بيده ذراع أحد عمال المركب يقول:

ـ كفى!! ابتعد عنها وإن لـم تفعل ألقيك في البحر..

لـم يكن وحده، بـل كان معه اثنان آخران من طاقـم المركب، وكان كل منهمـا يحمـل عصا غليظة في يده وقبـل أن تصدر كلمة رأوا جميعًا شاب يتقدم نحو يسر ويقول:

ـ لا تعفـر يدك بدمهم، أنـا أفعل!! هي أختي ووحـدي أحميها!! أنا ممن في ثلاجة الأسماك ينامون لهذا تركتها هنا على السطح..

أمسك بذراعها بقوة وسار بها بعيدًا عنهم، لم تحاول حتى أن تقاوم كأن كل قواها من الخوف غابت وسمعته يقول:

ـ عمـال المركب لن يكونوا حولك دائمًا، أخطأتِ حين صفعتيه، ما كانوا ليفعلوا شيئًا لكن بعد صفعتك هذه لن يتركوك.

كانـت مستسـلمة لذراعـه، وهـو يسـير بهـا إلـى الطـرف الآخر من المركـب حيث كانـت تجلس وفي أحد الأركان أجلسـها على الأرض وجلس إلى جوارها يردد:

ـ اسمعي، لستُ فارسًا ولا بطلاً، أنا مثلك ومثلهم هارب، أعدك ألا يمسَّك أحدٌ منهم بسوء.

كانـت مفتوحـة العينيـن رغم أنهـار الدمـع الهاربة منهما، وأمسـك الرجل بوجهها بين كفيه وضغط على وجنتيها بأصابعه وعاد يقول:

ـ أفيقـي، نحن في البحر، لسـنا في نزهة، قد نكون طعامًا للأسـماك وقد يجمعوننا كالنفايات، لكن إلا الإكراه، لا وضاعة، أو حقارة كإكراه نفس على شرب كأس تعافه واستغلال ضعفها..

من ألم وجنتيها قالت ببقايا كبريائها القديم:

ـ لست ضعيفة!!

وابتسم متهكمًا:

ـ امسحي دمعك إذن واستعدي لما سيفعلونه.. اشحذي قواك، أفيقي!!

نظرت إليه في ذهول، يكبرها بعشرة أعوام تقريبًا، لا تكاد أبدًا ترى ملامحه لكن يكفيها ألا رائحة كريهة تنبعث منه، استدارت بعينيها تنظر حولها والتقطت عيناها حنان تنظر إليها..

حاولت أن تبتسم علَّها تناديها لكن أرخت الأخرى عينيها في خجل، وعادت تنظر إلى وجهه وهي لا تعرف كيف لا تبكي ولم تجد ما تقول سوى أن سألته عن اسمه..

هدأت قسماته قليلاً، وقال:

ـ عزيز الفوال، وأنتِ؟!

* * *

كان يجر قدميه خلفه، وهو في قرية «الشخلوبة»..

ثلاث ليال لم يُقم فيها الصلاة في المسجد، ثلاث ليال يستيقظ في الصباح ولا يعود من القاهرة إلا مساء..

هذه الليلة أدرك أنها ليست هناك لكنه لم يعد إلى بيته في «دمرو»..

توجه إلى «الشخلوبة»، وفي تثاقل شديد عبر بوابة منزل صالح الشواف، لم يسأله أحد هذه المرة، عرفوه منذ تلك الليلة حين رأوا احتفاء سيد البيت به، حين طرق الباب وحين فتحوه وحين أسرع صالح بالظهور أمامه قائلاً:

ـ غريب، قصدت بيتك مرات كثيرة، ادخل، عندي ما يريحك، حسنًا فعلت بحضورك..

كان غريب متعبًا يدرك أنه إن أثنى ركبتيه، وجلس قد لا يستطيع النهوض مرة أخرى فقال في وهن:

ـ أريد العودة إلى بيتي، لم أجدها يا صالح، أريدك فقط أن تمنحني شريحة الهاتف كيف نسيتها هل حادثتني؟!

أمسك الرجل بذراعه، وهو يصيح يطلب تجهيز الطعام، وسار به نحو أحد المقاعد قائلاً:

ـ بل تجلس يا غريب وتأكل من طعامنا، أمنحك الشـريحة لكن يسر لن تحادثك، عرفت أنا أين هي..

كأن سـاقيه مـا كانتـا تترنحـان، كأنْ جفنيه مـا كانا يرقصان، أمسـك بذراع صالح، وقال:

ـ خذني إليها ورحمة أبيك وأبي..

في هدوء أجابه قائلاً:

ـ هـي على أحد مراكب الهجرة، أخبرني أحد عمال الزورق الصغير الذي أقلهم إلى المركب الكبير.. هي الآن في منتصف الطريق، لا سبيل للوصـول إليهـا أبدًا، أيـام ويلقونهم بالقرب من الشـاطئ، ثـم يقومون بإبلاغ حرس الحدود الإيطالي عنهم..

صاح غريب يقول:

ـ ألا يعيدونهم؟!

نكس صالح رأسه قائلاً:

ـ فلنأمـل هـذا، يضعونهم تحت الحراسـة المشـددة فـي البداية، ثم يخففون عنهم الحراسـة، منهم من يدرسون طلبه باللجوء السياسي، أو الديني ومنهم من يعيدونه ومنهم من يهرب ومنهم يا غريب من..

حين طالت لحظات صمته عاد غريب يسأله في لهفة ليكمل قائلاً:

ـ منهم من يموت قبل أن تصل إليه قوات الشرطة!!

***

«هل أحببتها إلى هذا الحد أم إلى هذا الحد كرهتني؟ وكيف تأتي عابرة لتنسيك من نشأت بين عينيك وتحتهما، هل تشرح لي؟»

خديجة حقًّا غاضبة!!

أخبرتها عمتها أنه وفي اليوم الرابع لغياب يسر ما زال فريد لا يتناول شيئًا يذكر، أو يخرج إلى العمل مع أبيه، طلبت منها أن تحضر إليه وتحاول معه.

حضرت وتركتهما معًا وحاولت كثيرًا لكن هي حتى لا تعرف إن كانت حزينة عليه أم تريده أن يتألم أكثر!!

ما تعلمه أنها غاضبة، بل لو كان الأمر بيدها وأطلقت لمشاعرها العنان لصفعته على وجهه ألف صفعة لكنها ما زالت تخشى إن فعلت أن يتركها، تموت إن تركها لتقف كما يقف هو الآن جريحًا مرفوضًا حزينًا..

أعادت عليه السؤال مرة أخرى لكن دون خنوع هذه المرة، أعادته بشيء من الغضب ورفع عينيه ينظر إليها قائلاً:

ـ أولاً هي ابنة عمي وليست عابرة، ثانيًا لست حزينًا، أنا فقط أشتم رائحة مكيدة يا خديجة.

سكت قليلاً كأنه يخشى أن يتهمها اتهامًا مباشرًا ثم عاد يكمل قائلاً:

ـ حين ذهبنا إلى القاهرة كانت رقيقة معي، في لحظة شعرت أنها بدأت تبادلني الحب.

في حدة قاطعته بصوت جريح تقول:

ـ تبادلك الحب؟!

عض على شفتيه كأنه ما كان حريصًا بما يكفي، وقال:

ـ هل أكره ابنة عمي؟! أصدقيني القول؟! هل طلبتِ منها الرحيل؟!

أتسعت عيناها وهي تنظر إليه، وقالت:

ـ وهل أطلب منها شيئًا؟ أنا؟! وهل إن طلبت تفعله؟! رأيت كيف كانت تكرهني، أموت وأبقى في قبري أذكر نظرتها يوم دخلت علينا هنا تدعوننا إلى الطعام.

صاح في جنون:

ـ أريد أن أفهم، ما كان لها أبدًا أن تفعل ما فعلت وحدها، ما كانت تجرؤ حتى من الاقتراب من بوابة البيت فأين وكيف تلاشت؟!

اقتربت منه خديجة تحاول أن تكتم ألمها وحقدها عليه وعليها لتقول:

ـ لن أحضر هنا مرة أخرى، ما زلت فقط أريد أن أعلم هل تموت هكذا شوقًا إليها أم غضبًا منها؟!

يريـد أن يؤلمها فهو يثق أنهـا إن لم تدبر الأمر، وتطلب منها الرحيل فهـي على الأقل تكاد تطير من سـعادتها كأمه، هو لا يملك أن يؤلم أمه لكنه لا يريد أن يتألـم وحده.

رفع عينيه، وقال:

ـ كلاهما معًا!!

قبل أن تغادر بيت الغنادرة نظرت إليه قائلة في ألـم:

ـ أنت تحفر قبرك بين ضلوعي يا حب العمر!!

* * *

ضحك ضحكة كبيرة صاخبة ثم قال:

ـ هل تعرفين مسافرين الـ VIP الذين تقلهم سيارة خاصة إلى باب الطائرة بعد صعود كل الركاب وجلوسهم على مقاعدها، هذه الأمينة فعلت معك ذلك، أنا وكل من حولك بقينا في حظائر التخزين أيامًا قبل صعودنا إلى الزوارق ووصولنا هنا، دفعت كثيرًا للتخلص منك، كيف خدعتك؟! أتمنى لو أراها، حقًّا تعجبني النساء الذكية؟!

في هدوء قالت:

ـ لم تخاطب عقلي لتختبر ذكائي، هي خاطبت قلبي واحتياجي ولهذا خدعتني!!

نظر عزيز إليها طويلاً ثم قال:

ـ كم عمرك لتقولي كلامًا كهذا؟!

أرخت عينيها، وقالت:

ـ عمري أم وأب ماتا، عمري حصار، عمري سرادق عزاء، وقفت فيه أتلقى العزاء وأنا طفلة تعلم أن أمها على قيد الحياة، ورغم هذا تردد من الخوف "رحمها الله"!!

لانت قسماته، ومد كفه يربت على كتفيها في إشفاق قائلاً:

ـ لا أحد يجهل الغندور الكبير في محافظة كفر الشيخ بأكملها، أنا من "العنانية" وأسمع عنه وعن ثرائه لكن يبدو أن الفقراء وحدهم هم البلهاء..

كانت قد قصت عليه قصتها دون تفاصيل قصة أمها، ومع كل جملة كانت تحكيها كانت تشعر براحة أكبر، حاولت كثيرًا أن تسأله عن تفاصيل قصته لكن ما قال لها سوى أنه الفقر..

قال "الفقر" هي الكلمة الواحدة التي تضم بين أحرفها ألف قصة وألف مرادف.

كلمة أكبر مرادفاتها هو اليأس، يأس عزيز من كل شيء في وطنه فرمى نفسه في البحر والمجهول علّهما يكونان به أرحم..

كل الرؤوس حولهم كانت متدلية على أجساد أصحابها، منهم من نام جالسًا ومنهم من وضع حذاءه في عنق جاره ومنهم من نام على كتفي رفيقه..

بالكاد أفسح لها مكانا ليلقيا بجسديهما، وناما هما أيضًا من الأعياء..

أخبروهم أن المركب تصل في الفجر القادم وغفت إلى جواره، ثم عادت تفتح عينيها تنظر إلى وجهه النائم..

أسمر ككل من رأتهم في دمرو، وجهه مستدير وسيم، في عنقه تبرز تفاحة آدم التي تحبها كثيرًا وفي صبيانية، وبعد أن ظنته غاب في النوم مدت أصابعها إلى عنقه تتحسس تفاحته..

تمنت أعوامًا أن تعرف كيف هو ملمسها، وفي اللحظة التي لمست أصابعها عنقه أطبق بكفه على يدها في قسوة وفتح عينيه كأنه يتأهب لهجوم كبير..

صرخت صرخة صغيرة تقول "إنه أنا"!

تراخت أصابع يده من حول كفها ورآها ترخي عينيها في خجل وعلم أنها كانت تعبث بتفاحته..

وضع أصابعها على عنقه وأخذ يحرك تفاحته تحت يدها، وهي تبتسم في خجل وفرح نسيت ملامحه منذ زمن!!

بعد لحظات مد لها ذراعه على أرض المركب، وقال:

ـ ضعي رأسك هنا ولننام!!

لا تعلم كم طال نومها لكنها استيقظت على قدم تركلها في ساقها، وحين فتحت عينيها وجدت ذات الشباب الثلاثة أمامها وقبل أن تفتح فمها، أو تمد يدها لتوقظ من توسدت ذراعه أشار أحدهم لها بأصبعه لتستدير وترى الآخر يضع سكينا صغيرة بجوار عنق عزيز..

كان يأمرها بالنهوض في صمت وإلا أقترب وأغمد السكين في عنقه، وكان الثالث يمد يده إليها لتستند عليها وتنهض..

كان الذعر يكسو ملامحها، وكانت تتمنى لو تتوسل إليه أن يترك عزيز وما أن أصبحت واقفة إلى جواره حتى همس في أذنيها:

ـ إن عدت هنا وحدك قتله، هيا بنا، سنعود بعد دقائق وعندها يبقى من تطلقين عليه أخاك حيًّا!!

***

انتفض سعد في فرح، وهو يراه يخطو نحو المسجد بعد غياب أيام وصاح:

ـ اشتقنا جميعًا إلى صوتك، كاد الجيران يقتلونني حين كنت أصلي بهم حتى عودتك..

ربت على كتفه في حنان ورفع آذان الفجر بصوته الرخيم وبدأت جموع المصلين تتوافد على المسجد وعلى وجوههم سعادة حقيقية بعودة غريب..

بعد أن أنهي صلاة الفجر وقف يدعو دعاءه الذي اعتادوه ويحبون سماعه وفي نهاية الدعاء تهدج صوت الغريب، وهو يتضرع بخشوع مخلوط بالدمع قائلاً:

ـ اللهم رد علينا من غابوا سالمين، اللهم استودعناك أحباءنا الذين فارقونا، احفظهم وارحمهم وأحنو عليهم فلا لنا ولا لهم سواك..

كان كل من أنهى صلاته باق في صفه يردد بعده في هدوء "آمين" ففي بيوت القرى غائبون كُثُر، وكان غريب يدعو كأنه لا يسمعهم، ولا يرى سوى وجهها الحائر الباكي يوم التقطت من كفه قرط أمها حين منحها إياه.

لا يرى سـوى وجهها، وهي تبكي في ألم يوم أخبرها بوفاة أبيها ولا يسمع سوى صوتها، وهي تغني في ذاك الحفل الذي ما دعت إليه سواه.

كان يدعو الله في خشـوع، رحل وحيـده، وماتت زوجته، وبقي هو يتألم على أمانة ما صانها وعلى فتاة أحبها كأنها أمه وأبيه..

لا تُسمعه عنها خبرًا يدمي قلبه، ما عاد في القلب عروق تدمى..

لا تكسرها يا إلهي، ما عاد في الروح روح تُجبر..

أعدها، أعنها، أجبرها..

ودون وعي منه قال بصوت يدمي القلوب:

ـ رب أمهلني في العمر عمرًا حتى أؤدي الأمانة إلى أهلها..

رب لا تردني إليك إلا وأنا عليها مطمئن، اللهم أعدها، أعدها عودًا أحمد.. كن معها، احفظها أنت خير حافظ وأنت أرحم الراحمين..

كان غائبًا يدعو ويتضرع وكان كل من خلفه يسـمعون بكاءه ودعاءه وفي لحظة أفاق على صوت أحدهم يقول:

ـ اللهـم استجب لدعـاء الرجل الكسـير، اللهـم أعد يسـر الغندور إلى قلبه بخير وسـلام، انصرها على الطمـع والظلم وانصرنا على الذل والفقر أجمعين!!

وبخشوع أكبر ردد الجميع في صوت واحد "آمين"!!

كان بـكاؤه مريرًا حقًّـا حتى أن مجموعة مـن المصلين التفت حوله تواسيه..

قدريـة نجحت في إفشـاء خبر هرب يسـر حتى أنه ما عاد سـرًّا على أحد، وحين هدأ الغريب قليلاً قال في ألـم:

ـ ما يبكيني أني كنت زمنًا أدعوه، وأرجوه الموت، ولـم يستجب لي، أخشى وأنا أرجوه اليوم الحياة ألا يستجيب أيضًا..

وضع أحد الشباب كفه على كتف غريب، وقال:

ـ يـا من جمعتنا على صوتك والصلاة خلفـك، لِمَ لا تقل إن الله لـم يستجب لك يوم طلبت الموت لأنه يعلـم أن يومًا تطلب فيه العمر آت!!

***

لا تعلم إن كان اختيارهم لمراحيض المركب كان لإذلالها أم فقط ؛ لأنها المكان الخاوي الوحيد في الفجر ذاك، وسقوط الجميع في النوم لكنها كادت تتقيأ في وجوههم حين دخل أحدهم بها إلى أحد حمامات المركب، وعاد بظهرها إلى الحائط في قوة..

كانت ما زالت من عودتها في النوم تتخبط وفي خوفها وذعرها الكبير هائمة عدا إنها لم تكن تبكي، أو حتى تشعر بالرغبة في البكاء..

كل ما كان يسيطر على رأسها هو كيف تصل بكفها إلى وجهه وتصفعه من جديد..

كان ممسكًا بكلتا يديها بين يد واحدة وأمسك بوجهها بقبضته الأخرى يهددها، وقالت:

ـ لا أخشاك، بل أخشى عليك، أنت في البحر، أين تهرب؟! دقائق وينكشف الأمر، دقائق ويأتيك أخي ومعه رجال المركب، هذه المرة سيلقونك في البحر..

كان ظهرها على الحائط، وكان ظهره هو إلى رفيقه الذي سمعه يئن ليجده طريح الأرض حين استدار إليه..

كان عزيز يقف، وفي يده عصا من الواضح أنه ضرب بها رأسه..

حين أفلتت من كفه ركضت من خلفه إلى خارج الحمام لتجد عددًا من ركاب مركبهم جاءوا مع عزيز..

في لحظة كانوا يقتادون الشباب الثلاثة في قسوة، وهم يصيحون جميعًا ليستيقظ البعض ويبقى المجهدون في سُباتهم صاح أحدهم من على المركب يقول:

ـ ألا تخافون الله؟! نحن نستجديه النجاة وأنتم تطلبون غضبه علينا، أين عمال المركب؟! فليقيدونهم ويلقونهم إلى البحر..

أكمل بعدها في خوف هيستيري:

ـ اللهم لا تؤاخذنا بما يفعل السفهاء منا، اللهم لا تصب علينا غضبك..

أرخى الشباب الثلاثة رؤوسهم إلى الأرض، كأنهم أفاقوا من اندفاعهم وجنونهم حتى إن أحدهم ما فتح شفتيه بكلمة..

تقدم عزيز نحوها ليضع ذراعه حول كتفيها يسألها إن كانت بخير، ثم قال:

ـ لهذا طلبت منك أن تنامي على ذراعي لأشعر بتقلبك، أو غيابك..

هزت رأسها في هدوء وأسندته إلى صدره في اطمئنان، كانوا على منتصف سطح المركب يقفون واستدار عزيز ينظر إلى وجوههم في ألم، يعرفهم ويعرف أسماءهم وعائلاتهم، كل سكان قرى كفر الشيخ يعرف أحدهم الآخر تقريبًا..

ليسوا أشرارًا، بل ربما هم أقل منه خطايا وذنوبًا، ماذا صنع بهم الخوف؟!

كان الرجل ما زال يهلل بالدعاء عليهم كأنه يريد أن يوقظ جميع النائمين علَّهم يقتلونهم معًا..

وصاح عزيز يقول:

ـ ساعات ونواجه المصير الكبير، ساعات قد ننجو بعدها وقد نموت، قد نعود من حيث أتينا إلى الموت والظلم الذي هربنا منه، ألا نستطيع أن نكون بشر ولو لساعات؟!

لماذا لا نفعل شيئًا مختلفًا، فليحكي كل منا قصته وليُخرج كل منا شيئًا من صدره علَّ صدورنا تتطهر..

اتفق الجميع على إبقاء أكف الشباب الثلاث مقيدة وليتحدث من شاء الحديث..

الحديث كالحب وكالنوم عدوى كبيرة وسريعة!!

ما أن بدأ أحدهم في الحديث حتى التقط الآخر أطراف الحكاية وسرد قصته هو الآخر..

حتى النائمون فتحوا أعينهم واستمعوا وأكملوا الحكايا دون حتى أن يشرح لهم أحد ما حدث..

الجميع على صدره تجثم قصته وأحلامه..

بدأت الأيدي ترتفع وأيد أخرى تمسح دمعًا سقط بعد الرواية وأيد أخرى تكتم شهقة وهي تسمع قصة تماثل قصتها..

الفقر.. اليأس.. الحلم والأمل!!

لا قصة قيلت دون أن يكون هؤلاء أبطالها..

كل القصص، كل الوجوه التي رضيت ذل وجودها على مركب كهذا في مواجهة مجهول كالقادم خلفها مربع الفقر واليأس والحلم والأمل..

وحدها يسر الغندور ووحده عزيز الفوال قصصهم تختلف ووحدها القصص المختلفة لا تُحكى ولا تُقال!!

* * *

كان قرب فجر اليوم التالي حين حانت ساعة الصفر..

لم ينم أحد أبدًا بعد أن أعلنوا اقترابهم من الحدود الإيطالية، البعض كان يظن أنهم قرب الشاطئ يهبطون والبعض ممن لا تجارب له كان يسأل في خوف وآخرون كانوا يكتفون بترديد الدعاء لكن كل العيون كانت مفتوحة، وكل القلوب لو أنصت سكان أوروبا بأكملها لحظة لسمعوا تسارع دقاتها وارتجاف نبضاتها!!

في لحظة ظهر أكثر من عشرة أشخاص صاح أحدهم في الميكروفون اليدوي الصغير يخبرهم أنها لحظة الهبوط، أخبرهم أن هناك عددًا قليلاً من سترات النجاة توزع على الأطفال والنساء، وعلى الباقين القفز إلى المياه والعوم باتجاه الحدود، كان من الواضح جدًّا أن الأمر قد حسم وأن على الجميع الانصياع للأوامر، سترات نجاة قليلة تم منحها للقلائل ومنهم زوجة أحمد وولدها، منحوا سترة ليسر التقطتها في صمت وذهول وهي ترقب البعض يعلن أنه ليس سباحًا ماهرًا، ورغم هذا لم يمنحوهم شيئًا..

كان القمر غائبًا والبحر كالسماء أسودان يلوحان بالخطر والموت!!

تدافع الكثيرون خارج المركب كأن كل من قذف بنفسه وصل إلى درجة من الإجهاد والخوف أفقدته حتى الشعور بالتردد..

كان الرجال العشـرة يصيحون ويأمرون الجميـع بمغادرة المركب، وكلمـا رمى أحدهم بنفسـه إلى الماء تبعه عشـرات، وفجأة علا صوت مجنون لأحد ركاب المركب يعلن في هلع أنه أبدًا لن يقذف بنفسه إلى الماء..

كان كمـن أصابـه مـس مـن جـان، أو جنـون يرتجـف ويصيح "لا أستطيع.. لا أستطيع".

دون كلمـات.. دون حتـى محاولـة لتهدئته كأنهم اعتـادوا مثل هذه الأمـور تقدم نحـوه اثنان من رجـال المركب وقذفوه رغمًـا عنه خارج المركب في قلب الماء..

حين سـقط عـاود محاولة الصعـود إلى المركب، وهـو يصيح باكيًا مـرددًا نفـس الكلمـات في جنون، وبـكل بـرود الأرض وغياب ضمير سـكانها رفع أحدهم عصاته الغليظة وهوى بها على رأس الرجل الذي كاد يدخـل إلـى المركب من جديد ليسـقط في المـاء مضرجًا في دمائه وصاح آخر يقول:

ـ لا وقـت للجبـن والجبنـاء، مـن لا يغـادر يموت ويلقـى خارجها ميتًا..

في لحظة، بل أقل من لحظة رأت يسـر بعينيها أحدهم يخرج بندقية آليـة يصوبهـا نحوهم في ثبـات ليتدافـع الجميـع للقفز في ميـاه البحر المتوسط وأمسك عزيز بكفها قائلاً:

ـ هل حقًّا تجيدين السباحة؟!

أرخت عينيها وهي تنتفض مما رأته قائلة:

ـ كنت أنوي أن أسألك السؤال ذاته..

في أقل من لحظات كان مئات الفارين في قلب الماء، وسمعت قائدهم يقول:

ـ أرسل إشارة استغاثة إلى خفر السواحل الإيطالي لينتشلوهم من الماء!!

في اللحظة التي كانت تقفز فيها إلى الماء سمعت آخر يصيح قائلاً:

ـ جهاز اللاسلكي لا يعمل، هل نطلب منهم العودة حتى نصلحه؟!

وقفت يسر على حافة المركب تنظر إليه هي وعزيز بعد سماع تلك الكلمات في خوف كبير ليرفع يده مشيرًا لها بمغادرة المركب..

ثم صاح يجيب زميله دون أن يتنبه أن "ميكروفونه" ما زال ينقل صوته لكل من قفزوا حول قاربه قائلاً:

ـ انتهت مهمتنا، حاول إصلاحه وليمت منهم من يمت وسيحيا من كتبت له الحياة!!

***

مـن يظنـون أن الظـلام هـو ذاك الذي نراه حين نستلقي في فراشـنا تحت أغطيتنا ونغلق جفوننا استعدادًا للنوم هم سذج دون شك! الظلام الحقيقي هو أن تُلقى في سواد الليل بين أمواج البحر محاصرًا بالخوف والمجهول..

الظـلام الحقيقـي هـو أن تـرى كبريـاءك يُسـفك دمه، وأنـت تبكي وتطلب "الرحمة" ممن يمتهن الوحشية!!

حين سمعوا ما قاله رجل المركب، حين بدأت السفينة تبتعد بضوئها الخافـت الذي كان شـعلة الأمـل الوحيدة صاح بعضهـم يأمر الآخرين باللحاق بالسفينة..

صاح في صوت مبحوح صارخًا:

ـ لن يستطيعوا قتلنا إن نحن جميعًا صعدنا، اجتمعوا والحقوا بها.

لا أحد يرى الآخر، لا أحد يسـمع سـوى صـوت الأمواج، وصوت الأذرع التي تضرب فيها بكل الخوف الذي لا يدرك أحد مداه سوى من عاش الظلام كما عاشوه..

في ألم همست بما لم تجد كلمة سواها قالت:

ـ عزيز..

شعرت بذراعه تمسك بكفها، وقال:

ـ إيـاك، لن نلحق بها، وإن لحقنا بها لن يسـمحوا لنا، وفرى طاقتك وجهدك ولا تتركى كفى أبدًا، سننتظر ضوء الفجر.

غابـت المركـب في الظلام بعـد لحظات قليلـة كأنها مـا كانت إلى جوارهـم، لا أحـد منهـم يـرى الآخر إلا مـن كان ملاصقًا لـه لكن كان هنـاك صوت صيحـات وهمهمات بالألم ممزوجة، هناك من يسـأل إن كان أحدًا يرى الشـاطئ، وهناك من يسـأل أين رفيقه؟ وهناك من بدأ في البكاء والعويل كأن الندم بدأ عليهم غارة كبرى!!

سـاعات قليلة طويلة ابتعد فيها من قرر تحـدي الظلام واقترب فيها من قرر الانتظار..

أنهكهـم الصـراخ، وذبحهم الرجاء فـي ظهور مركـب تلتقطهم، أو حتى شـرطة الموانئ الإيطالية للقبـض عليهم، أصبح الخلاص عندهم إمـا في ظهور خيـوط الفجر، أو الموت إن تهالكت قواهم وعجزوا عن الثبات..

الميـاه الباردة، الجوع والعطش والأقسـى مـن كل هذا كان الخوف الذي ينهش الأرواح دون رحمة..

من عساه في الظلام يقاوم كل هذا؟!

رغم ضعف صوته إلا أنها كانت تسـمعه في وضوح، كان ابن حنان يبكي وكان أحمد يصيح في هيستيريا يطلب من أمه أن تُسكته..

وحدها حنان لا أحد يسمع لها صوتًا..

في البداية كانت يسر مغتاظة من صراخ الرجل وحدته لكنها مع الدقائق علمت أنه أكثرهم ضعفًا وخوفًا.

أخذت تناديها وتطلب منها أن تتحدث لتصل إليها مع صوتها وأمسك عزيز بكفها وصاح أحمد على البعد يهذي بكلمات لا معنى لها يرجوها أن تصل إلى زوجته وطفله..

كانت تسبح نحو الصوت وعزيز إلى جوارها وبدا صوت الطفل على ضعفه أقوى من أصواتهم جميعًا، حين اقتربوا من صوت أحمد، حينْ أصبحت إلى جواره وتحسست ذراعها لتأخذ عنها طفلها ولتصيح بعد صمتها قائلة:

ـ لا أعرف ماذا أصابه، أنا حتى لا أعرف كيف أرضعه، سيموت، أريد فقط أن أموت قبله وأخشى أن أفعل ويحيا هو دوني..

أحاطته يسر بذراعيها وهي تبكي..

حنان على حق!!

لو قتلتها أوليجا قبل رحيلها ما عاشت الموت بعدها كل هذه الأعوام..

حاولت كثيرًا أن تساعدها على إرضاعه، وهم في الماء لكن كان الصغير يصرخ رافضًا حتى صدر أمه، انفجرت الأم تبكي في جنون كأنها بدأت تفقد سيطرتها على التفكير والعقل، وانفجر زوجها يصيح من جديد يؤنبها على حضورها معه ورفضها البقاء بصغيرها في قريتهم، حتى يسر كانت تبكي في صمت وتهتز أطرافها مع بكائها وهي تشعر أنها تبتعد عنهم..

في لحظة سمعوا صياح أحدهم على البعد يعلن غرق صديقه بعد فشله في إنقاذه وعلا صوت البكاء أكثر حتى كادت يُسر أن تشعر بتفتت أضلعها، وهي تشعر أن الصغير هو الآخر يكاد يلفظ أنفاسه على ذراعيها، ودون وعي منها تذكرت تلك الأغنية التي كانت أوليجا تغنيها لها كلما بكت، أو عصاها النوم..

ارتفع صوتها بالغناء رويدًا رويدًا وعلى عكس ما ظنت، لم يؤنبها أحد ولم يطلب منها أحد السكوت، حتى من كان يبكي موت رفيقه هدأ بكاؤه وسمعت عزيز يهمس بجوارها قائلاً:

ـ هناك أصوات تحيي الأمل، وتقتل الخوف وإن كانت من حنجرة محتضر!!

غني إن استطعت حتى ظهور الفجر..

كان صوتها رغم الدمع قويًا هادرًا حنونًا ابتلع مخاوفهم، وشد انتباههم، وسكت الرضيع عن الصياح، وصاحت أمه في ألم تسألها ماذا أصابه، وقال عزيز بعد أن تحسس كفه الصغير في لهفة:

ـ لا شيء سوى أنه على صوتها هدأ ونام!!

أكمل وعلى صوته قطرات دمع أعلى من هدير أمواج البحر والظلام يقول:

ـ هناك أصوات أحنّ من صدر الأم وذراعيها!!

***

وحده اليأس أصبح سيد الموقف وربان من لفظتهم سفينتهم التي دفعوا كل ما يملكون ثمنًا لارتيادها..

سقطت كل أقنعة الكبرياء الزائفة على اختلاف قوتها على وجوههم وصدورهم..

أصبح صوت الأنين عاليًا والاستغاثات أكثر ذلاً ومهانة، أصوات كثيرة تعلن عجزها وضعف سيقان أصحابها عن التحمل وانهيار قواهم عن الطفو على سطح الماء..

بدأت يسر هي الأخرى ترتجف بردًا وذعرًا، حتى عزيز شعرت به إلى جوارها ينتفض وفي لحظة أخبرها في سكون أنه يكاد يغرق، قال في ألم:

ـ اسمعيني جيدًا، أعاني من إصابة قديمة وغائرة، لا أظنني سأصمد أكثر من هذا..

مدت ذراعها في جنون إليه، وهي تخلع عن جسدها تلك العوامة التي منحوها، وقالت:

ـ ارتدي هذه، لا أحتاجها لكن أرجوك لا تتركني.. انظر إلى أين جرفتنا المياه.. أرجوك..

أسرع بكل ما بقي له من قوى يقول:

ـ ارتديها، مازلت بخير لكن إن حدث وفقدت قدرتي على المقاومة، في جيب معطفي ورقة مغلفة بالبلاستيك عليها هاتف صديق لي، حادثيه وأخبريه أن يساعدك..

بكت في جنون وهي تصيح:

ـ لِمَ تظنني أحيا؟!

عاد يقول كأنه يبكي:

ـ لأنه العدل، أنا أستحق الموت وأنت تستحقين الحياة!!

أصبح كل من يسمع الآخر في حالة يرثى لها من الجنون والصياح..

وسمعت أحدهم يصيح ويطلب منها العوامة التي حول جسدها، صاح عزيز ينهره وصاحت هي من جديد تتوسل إليه أن يرتديها، وقالت:

ـ أنا بطلة الجمهورية في السباحة لا أحتاجها، خذها أرجوك..

ابتسم عزيز ابتسامة لم ترها لكن سمعت صوته يقول متهكمًا:

ـ السباحة في النوادي ليست كالبحر، السباحة مع صيحات التشجيع وصفارات الفرح ليست أبدًا كالوقوف في الماء مع أنين المحتضرين وصراخ الظلمة واليأس، هناك فرق بين من يرسم بالألوان ومن ينقش بالدم!!

كأن حمى الخوف تفشت بينهم حيث عاد طفل حنان يصيح وصاحت أمه تخبرهم أن زوجها يكاد يغرق وعاد عزيز يحاول أن يتمالك ما بقي له من ألم وصاح يقول:

ـ من كان يسمعني فليقل اسمه ويتبعه برقم لنرى كم عددنا، وعاد يكمل والألم أصبح باديًا على صوته:

ـ أنا عزيز رقم (1)

وصاحت يُسر من جواره تقول:

ـ يسر.. رقم (2)

حنان أكملت وتلاها آخر وأصوات أخرى باكية حتى سكتت كل الأسماء والأصوات، وقال عزيز في ألم:

ـ كنا مئات وأصبحنا تسعًا وخمسين، فلنبق حيث نحن، الصبح قريب.

صرخة كبيرة كأنها صاعقة خرجت من حنجرة حنان تعلن أنها لم تسمع اسم زوجها ولا تجده إلى جوارها..

أسرعت يسر تحاول الوصول إليها من جديد..

هم يبتعدون أحدهم عن الآخر رغمًا عنهم، كانت تناديها وتطلب منها الاقتراب منها فهي تخشى أن تترك عزيز الذي بدأت تشعر بتهالكه وعادت حنان تصيح أن جثة إلى جوارها ولا تستطيع أن تتحسسها لتعلم إن كان هو أحمد أم سواه..

بـكل ما اسـتطاعه من قوة صـاح يرجو زوجها أن يعلـن عن وجوده وانطلقـت يسـر تضـرب المـاء بذراعيهـا تحـاول أن تصـل إلـى حنان وتخشـى أن تبتعد عنه وتشـعر أنها هي أيضًا رغم بطولاتها وقوة شبابها بدأت تضعف وتنهار..

حنـان غـاب صوتها وبدأ الجميـع في الأنين من جديـد.. كان عزيز يسـبح خلف صوت يسر واستطاع في لحظة أن يمسك بإحدى قدميها، وقال:

ـ لا تبتعـدي، انظـرى إلى السـماء، اقترب الفجر، اصمـدوا قليلاً!! اصمدوا ما استطعتم..

غـاب صـوت عزيز كأنه فقد وعيه واسـتدارت نحو كفـه التي كانت تقبـض على سـاقها تشـعر بها وقد بدأت تسـقط عنها ورمـت بذراعيها حوله تمنعه من السقوط تحت الماء..

كانت تصرخ تطلب أن يساعدها من هو منها قريب..

رغم كل شـيء لا تسـتطيع أبدًا أن تحمل رجلاً على ذراعيها لكن لا أحد يقترب، أو حتى يجيب..

أسـندت رأسـه علـى صدرها ولفـت حول ظهـره ذراعيهـا وبالكاد حفظت وجوههما فوق الماء وأخذت تصيح في أذنيه باكية:

ـ لا تتركني.. أفق يا عزيز.. الفجر قريب والصباح قادم!!

***

كان حقًّا على حق..

هـي ثوان قليلة بدأ بعدها الضوء يزحف على سـماء تلك السـاعات السوداء..

ثوان قليلة كانت تحمله فيها على صدرها وهي لا تعلم إن كان غائبًا عـن وعيه أم فـارق الحياة، أفاقت علـى صرخة عالية اسـتدارت بعدها تنظر حولها في ذهول..

كان هنـاك رؤوس قليلـة متفرقة بعيدة عنها لكن اسـتدارت جميعها نحـو تلك الصرخة الكبيـرة التي خرجت من حنان وهـي تحمل طفلها الصغير، صرخات كثيرة متتالية تمزق نياط القلوب تردد فيها:

ـ أحمد.. لمن تتركنا.. لمن؟!

صاحت يسر تخبرها أنها تراها وأنها ستأتيها لحظة يفيق عزيز الطافي على صدرها لكن حنان ما كانت ترى، أو تسمع..

كانـت كالمجنونة تطلق صيحـات ممزقة مبحوحة، اسـتيقظ طفلها علـى أثرهـا وبدأ هـو الآخر فـي الصياح والبكاء وصاح أحـد الأحياء الناجين يزجرها قائلاً:

ـ اسكتي يا امرأة، أنت وطفلك بخير، كل منكما يرتدي عوامة، اصمتي دعينا ننظر حولنا..

لا أحد في مواجهة الموت يهتم لشأن أحد..

وحدها يسر بقيت تنادي عزيز وتحاول أن تعيده إلى وعيه لتبحر نحو حنان..

في لحظة رأتها على البعد تمد يديها نحو العوامة التي تلف جسدها، وتخلعها عن جسدها في إعياء شديد، شعرت أنها فقدت سيطرتها على عقلها، وأسرعت تضع ذراعها الأيسر تحت إبط عزيز وشحذت كل ما بقي لها من قوى اكتسبتها من أعوام السباحة، وتمارينها وضربت بذراعها الآخر في الماء، وهي تسحبه خلفها وتصيح باسم حنان التي خلعت عوامة صغيرها في لحظة أخرى وضمته إلى صدرها ويسر تناضل المياه في اتجاهها ورأتها بعينيها تدخل بنفسها وصغيرها أسفل ماء البحر..

كل من كانوا حولها ويرون ما يحدث شحذوا ما بقي لهم من قوة وعاموا في اتجاهها ويسر ما زالت في كل ما استطاعته من قوة ترجوها أن تخرج رأسها ورأس ولدها من الماء..

في اللحظة التي وصلت كان أحدهم قد سبقها حيث اختفت فقاعات الماء الصغيرة وأخرج الرجل رأسه من تحت الماء يحمل جسد الطفل الصغير، وقال وهو يمسك بالعوامة الخاوية:

ـ قتلته وماتت!!

لم تتوقف يسر أبدًا عن إبحارها وهي ما زالت تسحب رفيقها بأحد ذراعيها وتبكي في جنون تنادي حنان..

حين أصبحت إلى جوارها ألقى إليها بعوامة بعد أن ارتدى الأخرى، وهو يقول:

ـ لا تحاولي، ماتت!! ضعي العوامة حول جسد أخيك إن كان حيًّا ولنفعل شيئًا..

ليت أوليجا قتلتها هي الأخرى قبل رحيلها..

ليت عصمت سقاها جرعة من المخدرات معه..

حنان على حق حين قتلت ولدها معها بعد غرق زوجها.

هناك أرواح إما أن تحيا، أو تغيب معًا..

بعد ساعات من ظهور أطياف ضوء الفجر وبعد أن سقط الكثيرون من إعيائهم وكادت هي أيضًا أن تفعل، صاح صوت يقول:

ـ أرى شيئًا يقترب، ارفعوا أذرعكم، صيحوا معًا!

حاولت أن تنظر، حاولت أن تسمع لكنها كانت ترتعش بين اليقظة والغياب، كان شعورها بجثة حنان وولدها يقتل فيها الروح..

هل هو الحب الذي جعلها تقتل ولدها ونفسها بعده؟!

أبدًا من لياليها إلى جوارهم عرفت أنها به ليست مغرمة، هو الخوف، هو الأمان!!

هو المجهول والعجز عن مواجهته!!

كان زوجها عندها هو ذاك الحائط الذي تظن بعض النسـاء أنه سـند وسكن..

إن ضاع السكن وسقط السند فالموت أكرم من الضياع..

ليست خطيئة حنان..

بـل خطيئة زوجها الذي علَّمها أن الحياة دونه موت، لهذا قررت أن تموت هي وذاك الصغير الذي لم يحيا بعد..

يجب أن تعيش..

كانـت تحيا أعوامًا دون أم وحتى دون أب، سـندها نفسـها، سـكنها أملهـا فـي رؤيـة أمها، يجـب أن تقـاوم، أملهـا ألا تحقق أمـل الغنادرة وتموت!!

فلترفع ذراعيها هي الأخرى وتلوح مع الناجين، من أجل عزيز الذي فرش لها ذراعيه تغفو عليهما..

مـن أجـل عزيز الـذي أعلنها أختًـا بينما لفظهـا عمهـا وزوجته، لن تستسلم!!

فتحت عينيها المغمضتين التي كانت تخشى أن ترى بهما وجه حنان وولدها، أو حتى زوجها ونظرت إلى حيث ينظر القلائل ممن شـاء لهم الخالق أن يبقوا أحياء..

زوارق صغيـرة بمحركات كهربية تتقـدم نحوهم وأصوات تتحدث في ميكرفونات..

ماذا يقولون؟ بأي لغة يتحدثون؟!

هل جاءوا ينقذونهم أم يقتلونهم؟!

في البحر ومع الضعفاء أنت لا تعلم هل تجذبك اليد الممتدة نحوك إلى الحياة أم تتلذذ ببكائك وأنت تموت..

ارتطمت عيناها بجثة حنان على الماء طافية وأغمضت عينيها في ألم وفارقت وعيها هي الأخرى!!

* * *

لـم تكن إغماءتها طويلة أبدًا، حين ظهـرت القوارب المطاطية التي تحمل رجال الشـواطئ الإيطاليـة، حين حملها أحدهم على ذراعيه من المـاء ليلتقطها آخـر على المركب فتحت عينيها فـي ذعر كبير ولـم تقل سوى عزيز!!

لم يفهمها أحد، ولم تنتبه أنها تتحدث لغة فارقت أرضها وأهلها..

حاولـت الوقوف على قدميها وهي تنظر من القارب الذي أصبحت على ظهره لترى عشرات من مراكب الإنقاذ الصغيرة..

سـمعت الأحياء يصرخـون ورأت جثثًـا طافية، وأخـرى يخرج بها البعـض من تحـت الماء، ركضـت إلى حافـة المركب ولحـق بها أحد رجال الإنقاذ حين شعر أنها تريد أن تلقي بنفسها في الماء..

أمسك بها من خلف ظهرها في قوة جعلتها تصرخ أكثر، كان يهمس بكلمات لا تفهمها لكن كان واضحًا أنه يحاول تهدئتها..

اسـتدارت برأسـها إليه حين علمت أنها أبدًا لن تتمكن من الإفلات منه..

قالت وهي تبكي:

ـ هل تتحدث الإنجليزية؟! الروسية؟! العربية؟!

أكملت بلغتها الإنجليزية تخبره أن أخاها في الماء حيًّا لكنه غائب عن وعيه..

كانت تصيح وتخبره أنها بطلة في السباحة، بل ما زالت حقيبتها الصغيرة خلف ظهرها وفيها ميداليات نجاحها، ارتخت ذراعا الرجل حول جسدها قليلاً لكنه لم يطلقها، وقال إنهم حتمًا سيجدون أخاها وإن زوارق أخرى حملت بعض الأشخاص إلى الشاطئ، وأنه بالفعل كان هناك بعض من جعلهم الإعياء يفارقون وعيهم..

قاطعته في جنون تخبره أن أخاها كان إلى جوارها على صدرها، على ذراعيها فكيف لا تجده، كيف لا تراه!!

رغم أن الزورق كان يبحر في المياه، وعليه بعض الناجين ممن كانت تعرفهم إلا أنها لم تستطع أبدًا أن تهرب من ذراعي الرجل..

ما بقي لها سوى عزيز، بل ما أصبحت تريد من الأرض سوى أن تكون إلى جواره..

عندما تجد شخصًا يقف معك في ضعفك، يحميك في لحظات عجزك وبنفسك يوصيك وهو يكاد يموت فهل حقًّا تريد غيره!!

كانوا يضعون الأغطية حول أكتاف الجالسين على الزوارق وكانت هي تنتفض بين ذراعي الرجل وتصرخ تطلب منه أن يتركها لتبحث عن أخيها..

شعر الرجل أنها بدأت تفقد السيطرة على نفسها وسمعته يقول كلمات بلغة لا تفهمها، وفي لحظة أدراها بين ذراعيه لترى الآخر يخرج شيئًا من حقيبة بيضاء صغيرة ليتقدم نحوها..

دون مقدمات أمسك أحدهم بيدها ليمزق عن ذراعها "كُم" ما ترتديه ورأت الآخر يمسك في يده إبرة طبية ليعلو صياحها أكثر..

صاح أحد من كانوا يعانون الموت منذ لحظات ينهرها قائلاً:

ـ لِمَ لم تموتي أنت والأحمق رفيقك؟! أخذوه يا بلهاء منذ..

لم تستطع أبدًا أن تفسر ما قاله من كلمات، كان الرجل قد غرس في ذراعها إبرته لتغيب عن عينيها الصور، وتمنت لو يتركوها لحظة واحدة لتسمع ما يقوله الجالس عن عزيز، لكن هناك ثواني لا نريد سواها من الحياة عدا أنهم لا يعلمون!!

***

رغم الدمعات الصغيرة التي كانت تتساقط على كتاب الله الذي كان بين يديه إلا أنه كان يقرأ دون حاجة لرؤية الكلمات، هو فقط توقف عند الآية التي تقول:

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[1]

لم يستطع أن يكمل أبدًا، انخرط غريب في بكاء حاد، وهو يتذكر وجهها يوم كانت تجلس إلى جواره في طريق عودتهم إلى "دمرو".

بالأمس أخبره صالح أن السلطات الإيطالية ما زالت تنتشل الجثث من المتوسط، أخبره أن عدد الناجين قليل..

كان ينظر إليه، وهو يعلم أن هناك معلومة ما يريد قولها، معلومة ليست سارة لهذا يحتفظ بها حتى نهاية الحديث، لم يستطع أن يتعجله ولم يستطع الآخر أبدًا أن يكتمها..

بعد دقائق أخبره في ألم أنهم انتشلوا جثة أنثى..

أردف يختتم كلماته قائلاً:

ـ يا غريب لا أظن أن سواها من الإناث كان هناك.

---

(1) الآية 83 سورة يوسف

حين بقي ساكنًا صامتًا يتلون وجهه بالحزن ربت صديقه على كتفيه قائلاً "عشرات البيوت أعلمتها السفارة بوصول جثث أبنائها، من يعلم ربما من قرية أخرى، أو من زورق آخر كان هناك امرأة سواها، الأمل في نجاتها ضعيف".

عادت دمعاته تسقط في سكون..

ماذا لو ظهرت أوليجا الآن؟!

ما عساه يقول لها؟!

ما عاد حتى يعلم هل الأمل هو ما يحتاج أم هو حقًّا بحاجة إلى اليأس..

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ﴾.

وقفت عيناه على هذه الكلمات ورآها بوضوح رغم غمامات الدمع..

ربما هي رسالة، ربما هي إشارة!!

أيًّا ما كانت، وإن كان الأمل وهمًا، ما بقي في قلبه شيء يصدق أنها على قيد الحياة، سيبقى على جمرة الحياة قابضًا بكفيه..

نهض عن مكانه وغسل وجهه بالماء، وعاد إلى مكانه في مسجد القرية يرفع صوته بأذان الفجر، توجه ليفتح باب المسجد الذي أغلقه على نفسه وعاد يجلس متربعًا الأرض وقبل أن يغلق المصحف نظر من جديد إلى ذات الكلمات كأن لا سواها في الصفحة المفتوحة ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

***

هو مبنى كبير من دور واحد به عنابر كبيرة نظيفة ومرتبة، حين أفاقت يسر من غيبوبتها ذاك اليوم وجدت حولها نساء وأطفالاً لا عدد لهم، بعضهم من فلسطين وآخرون من المغرب العربي..

الجميع من أرض العرب وظلم حكام العرب وقوانينهم هارب!!

حين انتفضت من فراشها الذي وضعوها عليه ونظرت في وجوههم صرخت أيضًا باسم عزيز..

لم تمر ثوان حتى ظهر أحد رجال الشرطة الإيطالية على باب العنبر يناديها باسمها في ثبات، حين عاودت النظر حولها في دهشة كأنها تسأل كيف عرف وكيف جاء رأت إحدى السيدات تشير لها بابتسامة إلى أحد أركان سقف الغرفة، كاميرات كثيرة مثبتة على حوائط الغرفة.

ذهبت إليه وهي حافية تنظر في دهشة إلى الجلباب الأبيض القصير الذي لا تعلم من وضعه على جسدها، أو كيف خلعوا عنها ثيابها..

كان الرجل يتحدث بعض العربية وفي سكون تبعته إلى حيث اقتادها، حين دخلت الغرفة التي أخذها إليها وقفت تنظر في ذهول حيث رأته في زيه الرسمي يجلس خلف مكتب متوسط الحجم وإلى جواره شاب يجلس إلى مكتب صغير.

نهض الرجل عن مقعده ومد يده يصافحها مبتسمًا، وقال في لغة لم تفهمها بعض الكلمات..

استدارت تنظر نحو الشاب الذي قال في لغة عربية فصحى:

ـ أترجم لك ما يقول.

كان الرجل ينظر نحوها في ودّ، ودون تفكير أخبرته أنها تتحدث الإنجليزية وأيضًا بعض الروسية إن شاء.

اتسعت ابتسامة الرجل وأشار لها على المقعد المواجه له لتجلس.

أخبرها أنه يجري معها تحقيقًا روتينيًّا لتتخذ السلطات بشأنها قرارًا، إما ترحيلها إلى بلادها، أو دراسة حالتها إن كانت تستحق الحصول على حق لجوء سياسي، أو ديني.

أخبرها أن لا شيء يعقد الأمور سوى الكذب، وأن كل من قاموا بترحيلهم وإعادتهم إلى أراضيهم كذبوا رغم أن السلطات أخبرتهم بأنها ستجري تحقيقًا دقيقًا لإثبات صحة ما يقولون.

أرخى رأسه لحظة ثم رفعها ينظر إلى وجهها قائلاً:

ـ أنت جميلة وفي عمر ابنتي، أستطيع الحكم على الأشخاص جيدًا لكثرة ما رأيت منكم، لست فقيرة، طالبة ناجحة متفوقة مثلك كيف ومن ساعدك على رحلة مهينة كهذه، أين أبواكِ؟!

كانت تنظر إليه في ذهول وهو يتحدث وحين قرأ دهشتها انحنى أسفل مكتبه ليعود بيده تحمل حقيبتها الصغيرة التي كانت تحملها على ظهرها.

في هدوء فتحها وأخرج تلك الميداليات الصغيرة التي أخذتها من شقة الدقي وفي سكون نسيت وجوده، نسيت شارات الاستفهام وطواحين الألم والخوف التي تدق في عروقها.

مدت أصابعها ودمعات صغيرة تزحف خارج عينيها الرمادية تتحسس حذاء الباليه الذي انكمش بفعل مياه المتوسط.

التقطت الصورة التي تجمعها بوالديها وضمتها إلى صدرها رغم أنها كانت شبه ممزقة وباهتة.

ضمتها إلى صدرها وأغمضت عينيها ليسقط منها زخات دمع، وقالت في ألم:

ـ أمي رحلت ومات أبي.

لم يتعجلها الحديث، بل نهض عن مكتبه، وذهب نحو ثلاجة صغيرة عاد منها بقنينة ماء صغيرة وقطعة كبيرة من "الشيكولاتة" وضعها أمامها وعاد إلى مكتبه يقول:

ـ أسمعك حتى الصباح، إن كنت جائعة أحضر لك وجبة من الطعام، هناك أربع وجبات توزع على الجميع.

في ذهول التقطت قطعة الشيكولاتة رغم دمعها تفتحها، والتهمت منها قطعة والرجل يراقبها في إشفاق كبير.

طفلة هي رغم كل شيء!

ما إن ابتلعت ما قضمته حتى نهضت عن مقعدها كأنها تذكرت شيئًا ما كان يجب أن تنساه.

قالت في تصميم ورجاء:

ـ أين عزيز؟!

ابتسم الرجل كأنه يعرف عن من هي تتحدث، وقال:

ـ هو أيضًا يبحث عنك، هل تقولين الصدق إن أحضرته؟!

تفعل أي شيء وتقول كل شيء فقط لو رأته.

بعد لحظات وبعد طرقات صغيرة على الباب كان عزيز يقف داخل المكتب يرتدي جلبابًا كالذي ترتديه ونهضت عن مكانها، وفي ذات اللحظة نطق كلاهما ذات السؤال "هل أنت بخير؟!"

وحدها من تقدمت نحوه، وحدها من ألقت رأسها على كتفيه، تحتاج أن يعانقها أحد، تحتاج أن تشعر بأنفاس دافئة كأنفاسه وصدر كصدره وشعرت به يلف جسدها بذراعيه في تردد وهو يهمس:

ـ الحمد لله أنك بخير.

جلست وجلس عزيز على المقعد المقابل وتحدث الرجل.. أخبرهما أنهما ليسا سجينين، هما وكل من في المبنى الكبير تحت التحفظ.

الأبواب مفتوحة وخلفها حدائق كبيرة حولها سياج عال فقط إن حاولا تجاوزه يتم ترحيلهم إلى السجون، هم قيد التحفظ حتى انتهاء التحقيقات، منهم من يتم ترحيله ومنهم من تسمح له الحكومة بالبقاء.

عاد يردد "الصدق يختصر المسافات"

مد عزيز يده يربت على ركبتيها، وقال:

ـ أخبريهم كل شيء، هم بنا أرحم من البحر وبلادنا.

في خوف قالت:

ـ لا أريد أن أعود..

في ألم نظر إليها عزيز قائلاً:

ـ جئنا من بلاد لا قيمة فيها لما نريد، أو لا نريد، تحدثي إليهم، هو أملك الأخير!!

أنا أخبرتهم بالحقيقة وما عاد يعنيني سوى الاطمئنان عليك، حتى إن وضعوا الأصفاد في يدي لن أغيب قبل الاطمئنان عليك، هل تصدقينني؟!

في تهالك نظرت إليه، ما أتعبها سوى أنها صدقت من لا يصَدقُون أبدًا!!

استدارت بعينيها وجسدها بأكمله نحو الرجل الجالس خلف مكتبه تقول:

ـ هل تمنحني أشيائى إن أخبرتك الحقيقة؟!

بيديه وضع الأشياء داخل حقيبتها ومنحها إياها قائلاً:

ـ لا نعذب أحدًا، خذي ذكرياتك وامنحيني الحقيقة علني أساعدكم!!

* * *

أما كان هذا هو حلم العمر؟!

أمـا كانت تحلم بهذه الليلة منذ خطـت خطواتها الأولى على أرض العمر؟!

ما الذي تغير إذن؟!

لا يقتلنا التغير، ما يقتلنا حقًّا هو الإدراك والبصيرة..

مـا يذبـح فرحتها ويحيل ثوب عرسـها الأبيض إلى ثـوب حداد هو الحقيقة التي رأتها وأدركتها..

خديجة رأت رؤى اليقين حقيقة فريد.

رأت كيف في لحظة باعها وتبع ابنة عمه، ودلى أمامها رأسـه وأذنيه كجرذ صغير.

رأت كيـف أصـر على إبقـاء غرفة النوم التـي انتقتها تلك الشـيطانة حمراء الشعر كاذبًا مدعيًا أنها من اختياره.

هي لا تنسـى أن عمتها أخبرتها يـوم وصلت الغرفة من مصر كم هو سيئ اختيار يسر وكم هو وضيع ذوقها.

ابتسمت يومها وأخبرته أن الغرفة تعجبها، لكن ما عادت هذه اللعبة بأكملها تعجبها.

رأت وجوههم على حقيقتها!!

فريد ضعيف لكنها ما زالت طوق نجاته، زواجه منها وحده يلملم كبرياءه المسكوب.

"دمرو" بأكملها علمت أن العروس هربت من ابن عمها ليلة عقد قرانها.

زواجها منه بعد أسبوعين من غيابها يريق بعضًا من التراب على دمه المسفوك.

قبولها هي وأهلها قصة حبهما القديمة، موافقة الغندور الكبير وهذه الموائد والذبائح كلها تدق مسامير في أعمدة كرامتهم المنهارة..

تمنت لو رفضت، تمنت لو صرخت في وجه فريد وأبيه حين أتيا دارهم التي لم يدخلوها منذ أعوام لا تذكر عددها..

تمنت خديجة لو أنها حتى استطاعت أن توافق على عقد القران وتؤجل موعد الزفاف.

لا تريد أبدًا أن تنام على صدر فريد وهو ما زال مسكونًا بوجه تلك الحمقاء لكن من يقول إن وجهها سيغادر وسادتهما وإن طال الانتظار؟!

لم تستطع أن تقل شيئًا سوى أن تهز رأسها بالموافقة.

ها هو حلم العمر يتحقق، وها هي ترتدي ثوب العرس، يفصلها عن صدره وداره لحظات لكن شرخًا كبيرًا انتصب بينهما يجعلها تشعر أنها في طريقها إلى مهمة رسمية..

مهمتهـا أن تصبح زوجة الغنـدور الصغير وتدخل بيتـه وتنجب منه أبنـاء ويصبح والدها الفقير نسـيب الغندور وتصبح أمهـا جدة الغنادرة الصغار..

حيـن انطلقـت الزغاريد وسـارت العروس إلـى بيت حبها القديم وحين استدارت لترى أمها ترقص فرحًا وسعادة وعمتها مزهوة بنصرها لم تفعل شيئًا سوى أنها ألقت رأسها على كف أبيها تقبله لتسمعه يقول على مرأى ومسمع من كل من حولهم:

ـ دَخلـتِ بيـت الغنادرة فكونـي ابنتهم وخادمتهـم واعلمي أنك لن تخرجي منه إلا لتنامي في قبرك.

أوجعتها الكلمات، وقبل أن تفيق من ألمها سمعت عمتها، تقول:

ـ قبلي يد عمك واصعدي مع زوجك إلى غرفتك.

لـم يمانع الغندور الكبير، لم يحاول حتى أن يسـحب كفه من تحت شفتيها كما يفعل أباها أحيانًا.

قبلت كفه ورفعت عينيها تنظر إليه..

يومًـا يموت ويومًا تموت عمتهـا وتجلس هي على مقعدها ويصبح هذا البيت بأكمله بيتها..

حيـن يأتي ذاك اليوم تتـرك كفها للغنادرة القادميـن يغرقونها قُبلات وابتهالات.

رأت فريد يقبل كف والده هو الآخر ويمسك بذراعها ليصعد بها غرفتهما.

على أعلى درجات السلام رمقت بطرف عينيها وجه والديها يجلسان في أدب ينتظران إعلان شرفها وابتسمت في مرارة.

ذبحت يسر الغندور كرامتهم وينتظرون منها ما يستعيد به الغنادرة شيئًا من رجولتهم الضائعة وسلطانهم المبتور!!

* * *

كان مضنيًا مؤلمًا لقاؤهما!!

كان فيه مرارة وتحدٍّ يحاول كل طرف منهما ألا يظهره.

خديجة رغم استسلامها بين ذراعيه إلا أن شيئًا في أنفاسها كان فيه تحدٍّ دفين وفريد رغم هدوئه وحنوه في أخذها إلا أن تسلطًا وقوة خفية كانت تنفث أنفاسها من بين أصابعه..

كل ما غاب عنه الحب أصبح يابسًا كالأرض الميتة!!

كان يتمنى لو أن يُسْر من كانت على هذا الفراش بين ذراعيه تغفو وخديجة كانت تتمنى لو أن فريدها القديم هو الذي يعبث بجسدها لا هذا الذي هزمته شيطانة أصغر منها ومنه.

كلٌّ منهما كان فيه جزء ضائع أضاع غيابه كثيرًا من زهوة لقائهما الأول، بل أضاع كثيرًا من نشوته بامرأته الأولى ونشوتها بانتقالها إلى غرفة أكبر من بيتهم مضافًا إليه عشرات البيوت ممن حولهم..

حين هدأ وضمها إلى صدره، ورمى برأسه على الوسائد المجاورة لها غطس رأسه فيها.

كيف ينسى أن يُسْرً اختارت الوسائد الناعمة، وحين ضحك يخبرها أنه اعتاد النوم على وسائد القطن اليابسة لم تقل شيئًا سوى أنها دججته باللوم والدهشة..

بقيت الوسائد وغابت من اختارتها..

بقيت الوسائد وجاءت امرأة أخرى تنام عليها.. امرأة كانت حلم عمره القديم وسمعها تهمس قائلة:

ـ هل تظنك حقًّا أحببتها؟!

انتفض قلبه عندما شعر أن زوجته كانت ترى وتسمع كل ما يدور في ذهنه ووضع ذراعه حولها ليأخذ رأسها على صدره قائلاً في ألم:

ـ أنت حبيبة الصغر، أنت زوجتي، هي ابنة عمي لكنها عابرة اختارت الهرب، هي كسرتني وأنت لملمتني، كيف أحبها؟!

ضحكة صغيرة مريرة خرجت من شفتي العروس، وقالت في ألم:

ـ ليتني أعرف كيف أصدقك!!

***

اعتادت أن ترافق عزيز إلى حدائق معسكر اللجوء قبل موعد الغروب كل يوم..

كثيرون هم من يخرجون إلى الحدائق وكثيرون من يقفون بجوار السياج العالي الذي يحيط بالحدائق كأنهم يخططون للهرب، بل في كل ليلة هناك محاولات للهرب نجح بعضها وعاد آخرون بعد القبض عليهم مرة أخرى إلى التخطيط والإعداد للهرب من جديد..

وصل اليوم وفد كبير من مجموعة قادمة من الشواطئ الليبية هذه المرة..

مؤلم جدًّا ما سمعوه، مات مئات منهم، ونقلت طائرات الصليب الأحمر عشرات من الناجين إلى المستشفيات، وانضم لهم عشرات من الناجين، ممن تسمح حالتهم بالبقاء في المعسكرات، قصص وبكاء وأنين، مخاوف وأحلام ووجوه خائفة قتلها اليأس وأفقدها الأمل صوابها حتى أقدمت على هذه الرحلات السوداء..

لو علمت يُسْر كل ما مرت به لربما فضلت الزواج من فريد والبقاء في دمرو.

أطرقت برأسها لحظات، ثم عادت تنظر إلى وجه عزيز الهادئ وابتسمت ابتسامة صغيرة مريرة..

ما كانت لتلتقيه أبدًا إن لم تقم بهذه الرحلة..

كان يخطو إلى جوارها وحين لمح وجهها يبتسم أمسك بكفها بين يديه وسار بها نحو أحد المقاعد الخشبية المتناثرة ليجلسا معًا في هدوء قال بعد لحظات منه:

- لو أعلم ماذا يرسم على وجهك الابتسامة لما توقفت عن فعله، رائع وجهك حين تبتسمين.

مالت برأسها على كتفه في هدوء ولف ذراعه حول كتفيها في حنان صادق.

ما الذي يربطه بها؟! لا يعلم!!

لم يقل لها كلمة حب ولا يظنه يفعل!!

هي صغيرة رغم كونها أنثى مكتملة، هي رقيقة كجناح فراشة رغم أنها قوية جريئة.

كأنها بسمة عميقة في وجه أقدار الأرض القاتمة رغم كونها لا تبتسم إلا قليلاً.

وضع كفه على شعرها كأنها ابنته، أو كأنها قطة صغيرة احتمت به.

ترى ما الذي جعلها تبتسم؟!

من على كتفه سمعها تقول بصوتها الهادئ:

ـ اقترب موعد العودة إلى الدراسة عزيز، كان هذا سيصبح عامي الأخير في المدارس ورغم هذا لا أفتقد في مصر شيئًا سوى صالة تمارين الرقص.

فجأة دون مقدمات انتفضت من على كتفيه واقفة ونظرت إليه تقول:

ـ هل تريدني أن أرقص لك؟!

أكل الذهول وجهه، لم يكن يتخيل أبدًا أنها ترقص، هي في عينيه أجلّ وأجمل!!

لم تنتظر أن يقول كلمة، بها للرقص رغبة كبيرة اليوم.

حين رأت وجوه القادمين الباكية، حين سمعت صيحات الأطفال وعويل النساء الذين مات رجالهم غرقًا في المتوسط شعرت بالخوف يسكن أطرافها من جديد.

لا شيء من الخوف والألم ينجيها سوى أن ترقص.

رفعت ذراعيها إلى الأعلى ودارت دورة كاملة حول نفسها، ثم رفعت إحدى ساقيها تلامس بقدمها ركبتها الأخرى وأخذت تدور وتنحني ثم طارت في خطوات سريعة راقصة كأنها تحاول أن تغادر الأرض.

كان ينظر إليها في انبهار.

كان يظنها تريد أن ترقص رقصًا شرقيًّا، لم يكن يعلم أبدًا أن هذا ما تعنيه.

دقائق وقف فيها كل من كان يسير في حديقة المعسكر يرقبها وهي ترقص، لم تكن ترى أحدًا منهم..

عزيز وحده يملأ عينيها حتى حجب عنها كل من هم سواه.

كانت تطير في السماء وتعود إلى الأرض، تدور وتنثني في خطوات رشيقة سريعة بعيون مغمضة على أحزان كبيرة وذكريات أليمة وشيء واحد يجعلها تشعر أن بإمكانها أن تفتح عينيها دون خوف طالما كان هناك لتبصره بعيونها.

دارت دورات كثيرة حول نفسها، كأنها تلك الفراشة التي تدور حول لهب نار لا تعرف أنها فيها ستسقط..

حين توقفت عن الدوران ورمت برأسها على صدرها وذراعاها مفرودتان سمعت تصفيق كل من كانوا في متنزه المعسكر..

لم تنظر حولها، لم تنظر لأنها حقًّا لم تكن ترى سواه..

إلى وجهه وحده نظرت وسمعته يقول كأنه غاب في طيات جناحيها الراقصين:

ـ هل تغنين لي تلك الأغنية؟!

رغم أنفاسها المتهدجة، رغم العشرات ممن كانوا حولها يقفون انطلقت بصوتها تغني تلك الأغنية التي غنتها في المتوسط لابن حنان.

سقطت دمعاتها وهي تغني عندما رأت وجه حنان تُغرق طفلها وتغرق معه..

علا صوتها أكثر حين رأت تلك الفقاعات تطفو على وجه الماء بعد غرقهما، وعاد صوتها يعلو أكثر وهي ترى تلك الرسالة التي كشفت لها خديعتها في أمينة وقدرية..

الغناء ليس مظهرًا من مظاهر الفرح..

أحيانًا لا نغني إلا ونحن مذبوحون!!

حين انتهت أغنيتها كان صوت تصفيق كل من في المتنزه أكبر من ألا تسمعه ورغم هذا ما نظرت إلا إلى عزيز، وقالت في ألم:

ـ لا أرى سوى وجه حنان وولدها.

أسرع بالنهوض إليها وأخذها على صدره وهمس في أذنيها يقول:

ـ لا تظني بقاءنا على قيد الحياة أهون من موتهم أيتها الفراشة!!

سكت التصفيق ومضى كل في طريقه وعادت إلى الجلوس بجواره، وهي لا تدرك أبدًا أن عينًا على البعد كانت تراقبها في ألم..

كان المحقق "ألترو أفرو" يراقبها في ألم عميق بعد أن رآها ترقص وغاب في طيات صوتها رغم أنه لم يفهم حروف كلماتها..

إلا إنه كان يراقبها هي ورفيقها منذ أجرى معهم التحقيق.

كل منهما قص عليه قصته، وكل قصة مزقت أوتار قلبه، حين رفع تقريره عنهما أوصى بمنحهم حق اللجوء الإنساني..

هو دومًا يتعاطف مع هؤلاء اللاجئين، بل كثيرًا ما تغاضى رجاله عن هرب بعضهم بإيعاز غير مباشر منه، بل ومن رؤسائه، لكن مع هذه

الصغيرة ورفيقها، مع اهتمامه بها وخوفه عليها، مع تعلقه بها وتمسكها به يوم أحضروهما غائبين عن وعيهما، وكما قص باقي الناجين قصتهم ما أصبح شعوره نحوهما إشفاقًا، أو تعاطفًا..

يشعر أنه يحبهما معًا..

لكن هو يتألم..

جاءت هذا الصباح كشوف القرارات!!

تم الفصل بشأن مهاجري مصر غير الشرعيين، منحوا حق اللجوء لأربعة منهم لتعرضهم للاضطهاد الديني.. وحق اللجوء الإنساني إلى فرد واحد منهم هو رجل فقد جميع أفراد عائلته في الرحلة، ثم أضرب عن الطعام والشراب، وتم نقله إلى مستشفى المدينة القريبة..

سيتم غدًا ترحيل الباقين أجمعهم إلى بلادهم من جديد..

غدًا يتم ترحيل عزيز الفوال ويسر الغندور إلى مصر من جديد!!

***

لن يغادر مكتبه قبل أن يفعلها!! لا يستطيع أبدًا ألا يفعلها..

ما عاد الأمر أبدًا ينحصر في إشفاقه عليها من رحلة الترحيل إلى وطنها والتي يعلم قسوتها، ولا عادت القصة إشفاقه على رفيقها الوسيم بعد قصته التي قصَّها عليه..

"ألترو أفرو" لا يريد أن تغادر هذه الزهرة جزيرة "لامبادوزا".. يريدها أن تبقى على الأراضي الإيطالية..

فتحوا أبواب المعسكرات للهرب أعوامًا كثيرة وطويلة.. ما يضير لو فعلها مرة أخيرة؟!

غدًا يوم عصيب لا يريدها أن تشهده، كفى هذه الصغيرة ما رأت..

لا يكره في عمله شيئًا قدر كراهيته ليوم ترحيل الناجين إلى بلادهم من هذه المعسكرات..

يرتفع عويلهم وبكاؤهم، تسقط آخر أقنعة كبريائهم وآدميتهم..

شهد بنفسه موت عشرات حين ينطلقون نحو أسوار حدائق المنتزه في جنون للهرب، منهم من مات ومنهم من تحطمت ضلوعه بعد قفزه ليحملوه بين الحياة والموت إلى المستشفيات قبل معاودة ترحيله..

غدًا يوم عصيب!!

تغيرت قوانين البلاد، وأصبح السماح بهربهم أمرًا مشددًا قد يحاسب هو ورجاله عليه لكن لا قطعة في روحه، أو جسده تنصاع له، أو تنهض به ليغادر مكتبه ويترك الغد يأتي وهي هنا..

إن جاء الصباح أصبح رحيلهما مستحيلاً..

تأتي قوات كبيرة مسلحة من الشرطة الإيطالية، كأنهم مجرمون يسوقونهم إلى السيارات المغلقة حتى المطار..

ألقى برأسه على مكتبه لحظات، ثم أخرج ورقة كتب عليها سطورًا كثيرة ونهض عن مقعده..

إن وجدها في المتنزه بجوار نافورة المياه كما يجدها في معظم الأيام وضع الورقة في يدها وإن لم يجدها خرج إلى بيته..

رفع وجهه الشرقي الملامح إلى نافذة مكتبه..

الأمر الآن متروك بين يدي الإله..

إن لم يجدها هي إشارة من السماء بأن يتركهم يعودون إلى بلاد لفظتهم ولفظوها ولينم هو هانئًا مستقر الخاطر والضمير..

في تثاقل نهض عن مكتبه وتوجه إلى طريق عودته إلى بيته، كان يكرر على نفسه أنه لن يقف لحظة ولن يبحث بعينيه ولو دورة واحدة، إن كانت حيث اعتاد رؤيتها فعلها وإن لم تكن خرج إلى سيارته ومزق الورقة قطعًا صغيرة ونسي الأمر برمته..

فـي كل خطوة كان يخطوها نحـو الفناء وفي اللحظة التي وقف فيها علـى باب المبنـى الصغير الذي يقع فيـه مكتبه كان يسـمع صوتًا خافتًا يخـرج من بيـن ضلوع صدره يقـول "كوني هنا يا صغيرتـي، من أجلي وأجله كوني" ..

اسـتجمع كل شـجاعة رجل التحقيقات القديـم، ورفع عينيه يبحث عنها ثم أخفضهما بسرعة كأن جفنيه خاناه..

ليست هنا، فليمض..

هي مشيئة السماء!!

فـي طريقه وبعد خطـوات رآها تقبل بخطواتها الرشـيقة نحو نافورة الماء وحين أصبح أحدهما في مواجهة الآخر تبادلا نظرة طويلة عميقة أخرج بعدها الرجل يده من جيبه وبسرعة خاطفة وضع ما فيها بين كفي يسر دون أن يترك لها لحظة واحدة تنبس فيها بحرف ومضى في صمت وسكون!!

***

لـو مـت أنا كما مات أبـوك ما واجهـت ابنتي ما تواجهيـن.. لكن ما بقيـت الثـروة والسـلطة فـي بلادكـم هي هاجـس حكامكم ووسـواس شـعوبكم سـيبقى البحر المتوسط يشـهد آلاف الهاربين ينتقي من يبتلع منهم، ويلفظ لنا من عجز لتخمته عن ابتلاعه..

صدر القرار بترحيلك ورفيقك إلى وطنكم صباح الغد!!

أغامر بشرف مهنتي بهذه الرسالة لكن أفضل أن أفعلها عن مغامرتي بعنق إنسانيتي..

بعد وجبة العشـاء ودخولكم أسرَّتكم اخرجي إلى الفناء وفي الركن الشـمالي وخلف شجرة "السـيكويا" العملاقة هناك تجدين في السياج بابًا صغيرًا سيكون مفتوحًا اعبريه ورفيقك الذي ستجدينه في انتظارك..

مزقي هذه الرسـالة قطعًـا صغيرة بعد قراءتها وانثـري كل جزء منها في مكان..

لا أريد ولا تريدين لي تهمة الخيانة..

إن ضاقـت بك الأمور اسـألي عـن مقهى الجزيرة الكبير وسـتجدين هنـاك من يهتم لأمـرك إن ذكرت له اسـمي، لكن لا تذهبي قبل أسـبوع على الأقل وحتى تُنسى قصة هربكما..

هذه الأوراق النقدية ليست معونة هي دين عليك..

حافظي على نفسك، واصنعي منها شيئًا وابني لها مكانة فأنت لا تعلمين متى أطلب سداد الدين..

أيتها الساحرة..

اتهمني صديقك أثناء التحقيق معه أننا بلا قلب أو مشاعر..

أخبريه أني أسهل أمر هربه لأثبت له العكس..

نحن أيضًا نظنكم في غربنا بلا عقول أو رؤوس..

أمنحك وصديقك الفرصة لتثبتا العكس..

فهلا تفعلان؟!

***

لم كذَّب نفسه حين أخبرته ألا يكمل تناول وجبة العشاء.. شيء ما في مذاق قطعة اللحم كان مختلفًا، حتى كوب الشاي الذي شربه كان به شيء يختلف..

كان جائعًا وحين نكون لا نتنبه للسم كثيرًا وإن فعلنا يخبرنا جوعنا أننا نتوهم..

الجوع يهدأ ونبقى نحن من يتألم!!

يشعر بغثيان كبير لم يعد بإمكانه أن يقاومه، نهض عزيز عن فراشه مسرعًا بخطواته نحو حمام العنبر الكبير الذي ينام فيه..

قبل دخول الحمام لمح أحد حراس المكان يتجول في هدوء..

أرخى رأسه، كأنه يلقى عليه التحية، وتقدم الرجل نحوه وأمسك بذراعه قائلاً في عربية ركيكة:

ـ هو مجرد شعور، لن تتقيأ شيئًا، ملابسك التي جئت بها من بلادكم مع رفيقتك الصغيرة ستجدها خلف الشجرة العملاقة في الركن الشمالي للفناء تنتظرك، إن تأخرت أعادوك وإياها غدًا إلى بلادكم..

كان عزيز يحاول أن يفهم ويحاول أيضًا أن يتحكم في رغبته في التقيؤ..

في لحظة نظر إلى الرجل وأدرك أن كل شيء مرسوم..

وضع له شيئًا في الطعام وانتظره هنا من أجل هذه الرسالة..

نظر إلى الجلباب القصير الذي يرتديه، وأعاد النظر إلى وجه الرجل الذي عاد يقول:

ـ إن تم القبض عليكم وأتيت بذكرى تموت هنا في اليوم التالي هل تفهم؟! امض الآن في هدوء كأنك تعاني من ألم أو أرق..

لـم ينتظر عزيز لحظـة أخرى، بل مضى نحو الفنـاء وعيناه تتجولان بحثًا عن الشجرة كأنه نسي مكانها وتقدم نحوها في ثبات..

مـا زال هناك بعض من لاجئي المعسكر يتجولون في الفناء.. منهم مـن يعاني من الخوف ومنهم من عصاه النـوم، ومنهم من هو بلا هدف أو غاية خرج إلى الحدائق..

حين أصبح بالقرب من شجرة السيكويا العملاقة استدار حوله ينظر فـي عدم اكتـراث خشـية أن يجد من يتبعـه، وفي لحظة اندس بجسـده خلف الشجرة ينظر في ذهول..

هناك بابًا صغيرًا مفتوحًا في السياج الحديدي الغليظ وسمع صوتها تهمس:

ـ أنا هنا..

كانـت تجلس خارج السـياج على العشـب الأخضـر، انحنى يلتقط منهـا ثيابـه وارتداهـا علـى عجـل، ثم طـوى جلبابـه في أصغـر حجم استطاعه، ووضعه على أحد أفرع الشـجرة وانحنى يخـرج إليها لتقف وهي تنظر إليه كأنها لا تصدق أنه جاء وسمعته يقول:

ـ لا أفهم..

رمت بنفسها على صدره قائلة:

ـ ألترو فعلها، هل نذهب إلى صديقك الذي منحتني رقمه من قبل؟!

أمسك بيدها، وهما يركضان في خفة ثم قال:

لا أصدقاء لي هنا، أردت يومها أن أمنحك شيئًا من الأمل..

حين شهقت ونظرت إلى ذاك الظلام الرحيب سألته في ألم:

ـ أين إذن نذهب؟!

ركض بها إلى حيث لا يعلم قائلًا:

ـ الهاربون لا يسألون!!

***

حين يكون نصيب امرأة من زوجها يقتصر على نصفه السفلي أصبحت معه في مهب الريح..

كيف كانت يومًا تملك كل ما فيه وأصبحت اليوم لا تصل إلا إلى أضعف ما فيه..

انكسر في فريد شيء كبير يوم هربت منه يسر..

بل ما عادت خديجة تظنه حبًّا، أو عشقًا، تكاد تجزم أنه كبرياء مذبوح يجعل منه هو الآخر نصف رجل..

عمتها أيضًا ما عادت كسابق عهدها معها، هي منذ دخولها بيتهم حريصة على أن تذكرها دومًا أنها وحدها سيدة البيت وصاحبة القرار..

الغندور لا يعنيه أمرها في شيء، بل كثيرًا ما شهق في استنكار حين تظهر أمامه كأنه نسي أن وحيده تزوجها..

سيدخل فريد إلى فراشها بعد لحظات دون حتى أن يتنبه إلى ثوبها، أو عطرها، سترى في عينيه رجاء أن تتركه ينام في سلام..

ينام دون قصص، أو شكوى، ينام دون أن تتحسس جسده كأنها تطالبه بمضاجعتها..

وضعت أصابعها في طيات شعرها تمشطه في ألم..

كان من الأجدر أن يسموها "وسيلة" لا خديجة، هي وسيلة أمها لتسحب من قدرية نقودًا وأطعمة وأثوابًا..

هي وسيلة والدها ليجلس بين علية "دمرو" كأنه يعلن أن الغندور ناسبه مرتين؛ لأنه لا يقل عنه شأنًا، أو مكانة.

هي وسيلة عمتها لإحكام السيطرة على ولدها، بل كانت وسيلة ولدها نفسه ليمسح في كبريائها ما أهدرته ابنة عمه من رجولة وكرامة..

هي "لا شيء"!!

حتى ذاك الحب تحول إلى مسخ يحاول كل طرف منهم أن يغمض عن دمامته عينيه..

لهذا حين يدخل إلى فراشها لن تتركه، حين يخلع ثيابه، حين يضعف أمام جسدها ويلهث، وهو يركض بين صدرها وشفتيها تشعر أنها قوية، قوة لا تستمر إلا لحظات لكنها تشعر أنها بها تثأر لكل ما تم ذبحه فيها على يد الغنادرة..

يومًا تقف أمام قدرية وتذلها، يومًا ترفع صوتها على الغندور حتى يبقى صدى صوتها يطن في أذنيه وإن غابت عن عينيه لا ينساها ويفاجأ بظهورها كما يفعل..

انزلقت قدمها في اللعبة ولن تتركهم يكسرون ساقها..

استدارت بجسدها كأنها أفعى حين رأته يلقي بجسده جوارها على فراشه..

أغمض عينيه في ألم، يتمنى لو تتركه حتى يشتاق إليها لكنها دومًا تستنفر فيه الرجل لا الإنسان..

يشفق عليها وعلى بقايا حبه لهذا كثيرًا ما يستجيب لها..

حين زحفت بشفتيها على وجهه وشعرت بتصاعد حرارة أنفاسه همست تقول:

ـ متى ننجب؟!

في حزن وتهكم مرير، قال وهو يخلع عنها ثيابها:

ـ لسنا في عجلة، أصبحت من الغنادرة ولستِ أبدًا في حاجة إلى ما يؤكد وجودك..

رعشة صغيرة سرت في جسدها وهي تسمع كلماته، يفهمها كما تفهمه، وقالت كأنها تتعمد إيلامه:

ـ ربما أريد طفلاً لتنسى تلك الطفلة التي قتلت حبنا..

أحيانًا نشعل النار بدمائنا فقط حين لا نجد شيئًا آخر نحرق به من آلمونا..

شعر كأن شهوته انطفئت لكنها عاجلته بقبلة جعلته يبتلع كلماتها، ويقسو على جسدها رغم ما به من ألم وقسوة الذكريات..

كيف حقًّا فعلت به يُسْر كل هذا؟!

كيف تركته ضعيفًا مفضوحًا مذبوحًا أمام هذه الفتاة التي تحمل من جبروت أمه الكثير؟!

أمسك بشعرها بين أصابعه في قسوة وتعمد أن يؤلمها في كل قطعة وصل إليها، وقال وهي تئن من ألمها:

ـ لا امرأة على الأرض عاد فريد يهتم لأمرها، أو يكترث!!

* * *

لا تنكأ علينا جراحنا القديمة إلا حين نظنها طابت!!

خانه الجرح القديم في المتوسط حين فقد وعيه وبقيت يسر على ذراعيها تحمله حتى انتشلتهم السلطات الإيطالية وها هو في الليلة الخامسة لهربهم يشعر بإصابته القديمة تشحذ قواها لشن غارة ألم جديدة..

أعياهم الهرب!!

رغم النقود التي منحها لها المحقق لم يجدا في أي فندق كبير، أو صغير على الجزيرة من يقبل استضافتهم..

لا أحد فيهما يملك إثباتًا لهويته، أخذوا من جميع الناجين تحقيقات شخصياتهم وجوازات سفرهم المبللة بماء البحر المتوسط، كان عزيز يضع جواز سفره في عدة أكياس من البلاستيك مع بعض الصور حول جسده، عند التحقيق معه منحه الرجل الصور ورفض منحه جواز سفره..

أربع ليال نامت فيها يُسْر على كتفه، أو ساقه في محطات حافلات البلدة، أو على مقاعد الشواطئ في الظهيرة، أربع ليال كلما أخبرته فيها أن يبحثا عن ركن منزو، أو حتى حظيرة مظلمة تنام فيها يكرر عليها أن أفضل مكان تختبئ فيه من القانون هو "قسم الشرطة" نفسه..

في النور لا أحد يبحث عنك، أو يفتش وجهك، في الظلام فقط يحشدون حشود الفضول والتشفي والدناءة بحثًا عنك..

أربع ليال بعد انقضائها كان يجوب محلات الجزيرة ومطاعمها بحثًا عن عمل..

لا يمانعون في إلحاقه بالعمل إن كان بقاؤه غير قانوني، بل على العكس يرحبون بذلك لأنهم في هذه الحالة يمنحونه أقل من ربع ما يأخذه نظيره الإيطالي، أو من له إقامة قانونية لكن لا أحد أبدًا يسمح له بدخول مكان عمله وإن كان نظير طعامه ونومه إن كان بلا هوية، ما منحه الرجل لهما من نقود يكاد ينفد..

بالكاد يشتري لها شطيرة خبز وقنينة ماء، يجب أن يفعل شيئًا حتى يمر أسبوع على هروبهما ويتمكنان من البحث عن المقهى الكبير واللجوء إلى مالكه..

هادئة هي يُسْر رغم ارتعاد أوصالها جميعًا..

تتظاهر بالمرح ويعلم أنها تكاد تسقط من الألم والإعياء..

ما كان يريد أبدًا أن يحمل مسئوليتها لكن كيف يتخلى عنها وهو يراها تتعلق به كالأطفال..

يذبحه أن تمسك بملابسه بأصابعها وهي نائمة كأنها تخشى أن يهرب منها..

ربما تشعر أنه لا يجيد شيئًا إلا الهرب!!

أغمـض عينيـه في ألم وهو ينظر إلـى وجهها النائم على سـاقه على أحد مقاعد الحافلات ثم مر بأصابعه على جبهتها..

لو اجتمع سـكان الأرض جميعًا وأقسـموا له أنه يومًا يترك أنثى تنام على ساقه بعد ما حدث لابتسم من غبائهم..

ربما لأنها طفلة!!

لا.. ليست طفلة!! هي امرأة صغيرة شابة ركبت البحر والمجهول؛ لأنها اختارت حريتها ورسم مصيرها..

أسوأ ما فيها أنها تبعته وأسوأ ما فيه شعوره بأنه بدأ يحبها..

أشاح بوجهه بعيدًا عن التحديق فيها..

لن يسمح أبدًا لنفسه بقتل امرأة أخرى..

يطمئن عليها ويرحل، عهد يكرره على نفسه كل ليلة..

شعر بها تجذبه بأصابعها المعلقة في قميصه وهي تحاول أن تستدير في نومها..

كأنها سمعت ما يقوله لنفسه وكأنه بحرارة أنفاسه أيقظها..

فتحت عينيها كأنها شـعرت بأنها تكاد تسـقط عـن المقعد المعدني وهمست:

ـ غفوت على قدمك من جديد..

حاولـت أن تنهض عـن مكانها، وأعادها بذراعيـه حيث كانت وهو يقول:

ـ لا تخشـي شـيئًا، أكملي نومك، أسـتطيع النوم وأنا جالس وإن لم أستطع أنام في الظهيرة على الشاطئ، نامي أرجوك..

لِـمَ يحـنُ عليهـا إلـى هذا الحـد؟! ولِـمَ تتعلق بـه كل ليلـة أكثر من سابقتها..

أهو الحنان؟! أم هو الاحتياج أم أنه الحب؟!

وما الحب إن لم يكن حنانًا واحتياجًا وأمانًا!!

في خِفة نهضت عن مكانها واستدارت تحضر الكيس الصغير الذي كان راقدًا خلفها..

أخرجت منه الشـطيرة التي اشـتروها معًا وقامت بقطعها جزئين غير عابئة به وهو يصيح:

ـ لا شهية لي، تناوليها وحدك..

ابتسمت تنظر في عينيه البنية العميقة، وقالت:

ـ ألا تمـل من قولهـا؟! ألا تصدق أني لن أبتلـع لقمة إن لم يكن في فمك نصفها..

عشـر دقائـق ويأتـي البـاص، ككل سـائق سـينظر إليهم كأنـه يتوقع صعودهم وينظرون إليه كأنهم يرجونه الرحيل!!

الجزيرة كبيرة رائعة وشـواطئها سـاحرة.. لكن هم دائمًا من خوفهم ينتفضـون، لا يدخلون حمامات محل واحد أكثر من مرة، لا يجلسـون

على مقاعد شـاطئ واحد أكثر من مرة، حتـى محطات انتظار الباصات يحاولون دومًا ألا تتكرر حتى لا يعرفون وجوههم، أو يثيرون فضولهم.

حيـن انتهوا مـن ابتلاع اللقمـة الأخيرة ظهـر الباص وكالعـادة نظر السـائق إليهـم وقبـل أن يمضي وقفت فـي جنون وتقدمـت نحوه وهو يتبعها في ذهول وسمعها في إنجليزيتها الطليقة تتحدث إلى السائق.

أخبرتـه أنهـا خائفة وأنهـا تريد أن تركـب الباص مـع صديقها دورة كاملـة وابتسـم السـائق يخبرها أن هذا يسـتغرق سـاعتين، نظـرت إليه وهي تمسـك بذراع عزيز الذي يحاول جاهدًا أن يجذبها دون أن يشـعر السائق، وقالت:

ـ لا نملـك مـالاً؟! هل بإمكانـك أن تأخذنـا وتعيدنـا دون أن ندفع شيئًا؟!

نظر السـائق طويلاً إلى وجهها وعاد ينظر إلـى وجه رفيقها لحظات أخرى ثم أشار بأصابعه إليهم بالصعود في صمت..

الفراشـة الرقيقة جذبته في قوة إلى سـلالم الباص دون أن يسـتطيع مقاومتها..

كانت تردد كلمات شكر كثيرة ما رد عليها السائق بكلمة..

رآه عزيـز فـي المرآة يرقبهمـا وهما يجلسـان متجاوريـن على أحد المقاعد بجوار النافذة..

ظـن أنها تنـام بعد أن يتحرك الباص، بل ظن نفسـه يسـقط في النوم لكن فتح كلاهما عينيه يرقب شـوارع الجزيرة التي ما استطاعا الوصول

إليها على قدميهما طوال الأيام الأربعة الماضية، شـوارع جميلة واسعة وميادين خضـراء مزهرة، المدينة بعيـدة عن منطقة الشـواطئ التي بقيا فيها، بل هي حقًّا تختلف..

صاحت تحادث سائق الباص الخاوي وسألته:

ـ أين هو مقهى البلدة الكبير؟!

ابتسم الرجل ابتسامة صغيرة قائلاً:

ـ فـي المحطـة الثالثة القادمة آنسـتي يقع أكبر مقهـى للبلدة، هو في أكثر مناطقها ازدحامًا، أما قلتِ أنكم تريدون العودة إلى حيث كنتم؟!

تبادلت وعزيز نظرة طويلة كأنهما أجريا فيها اتفاقًا، وقال دون وعي وهو يضع ذراعه حول كتفيها:

ـ أرجوك أخبرنا حين الوصول إليه، سنهبط بالقرب منه..

وضعت رأسها على كتفه، وقالت:

ـ نعم.. يجب أن نكون بالقرب منه، لا أظننا نحتمل انتظار أسبوع..

ذاك الهـدوء الـذي كانا فيه علـى أطراف الجزيرة ما عـاد له أثر حين وصلا إلى ميدان "لامبادوزا"..

محال صغيرة كثيرة متناثرة ومفتوحة حول الميدان وشـوارع صغيرة كأنها أزقة مضيئة ومشاة كثيرون يتجولون هنا وهناك..

تنهد عزيز، كيف ظن لغبائه أن الجزيرة تقتصر فقط على تلك الشواطئ وتلك الشوارع والفنادق، كأنها الإسكندرية، بل كأنها "محطة الرمل"، أو "ميدان العتبة" لكن بألوان ورائحة أكثر نظافة وتناغم..

حين وقف الباص واقتربا من سلالمه وقف يخبر السائق أن معهما نقود قليلة بإمكانه أن يمنحه بعضًا منها وابتسم الأخير يقول:

ـ أبرمنا اتفاقًا وعار أن يرجع أحدنا فيه..

كونا حذرين!! في هذه الميادين يكثر اللصوص وأيضًا يكثر رجال الشرطة!!

***

لم يكن المقهى كبيرًا لكن كان اسمه "المقهى الكبير"..

هو أقدم مقهى في قلب الجزيرة يطل على الميدان الكبير المزدحم من واجهته الأمامية حيث يقع البار الذي لا يغلق أبوابه أبدًا والمطعم الراقي الكبير في الخلف يطل على أكبر متنزه في الجزيرة ووحده يغلق أبوابه في الواحدة صباحًا..

حين دخل الهاربان وسألا عن صاحب المقهى قادهما أحد السقاة إلى الخلف حيث شهقت يُسر وهي ترى كم هو أنيق المطعم الخلفي، لم تستطع أبدًا رغم إعيائها الشديد ألا تقف وتنظر إلى الجالسين على طاولاتهم والموسيقى الهادئة تنساب في جنبات المطعم..

المقاعد كلها مكسوة باللون الأبيض كستائر المطعم وطاولاته وباقات الزهر الكبيرة في أركانه..

على كل طاولة صحون من أطقم "زاركاوزا" الغالية أيضًا، هناك قطعة صغيرة من الفضة مرشوق عليها بعض من زهر المشمش المنمنم تتلألأ ألوانه على تأرجح شمعة من نفس اللون..

حين اتسعت عيناها على ملابس النساء والرجال شعرت أنها تكاد عن وعيها تغيب..

استدارت تنظر إلى عزيز، وقالت مبهورة:

ـ لا يمكن أن يكون هذا مطعم عادي!!

ابتسم يمسك بذراعها ويقودها إلى الساقي الذي كان يقف على حافة سلالم ضيقة ناظرًا إليهما في ضيق لوقوفهما بباب المطعم، أرخت عينيها وخطت نحوه تتمتم بكلمات اعتذار كثيرة..

كانت الدرجات المصنوعة من الخشب ضيقة لكنها أنيقة وهبطوا عليها ليصلوا إلى الدور الذي يقع أسفل الدور الأرضي ووقفا على باب غرفة دخل الساقي وحده إليها ثم فتح لهما الباب بعدها بلحظات ليدخلا..

كلاهما شهق حين دخلا إلى المكتب الواسع الكبير وعلى المكتب كانت تجلس سيدة المقهى ومالكته..

لم تكن أبدًا بشوشة ولا أشارت لأحدهما بالجلوس..

رفعت رأسها ونظرت إليهما نظرة طويلة متفحصة، ثم قالت بالإنجليزية:

ـ أخبرني ألترو عنكما..

لم تمنح أحدهما فرصة للحديث، بل نهضت عن مقعدها بعد أن فتحت أحد أدراج مكتبها والتقطت مفتاحًا وضعته في جيب الجاكيت الذي ترتديه وخطت نحو باب الغرفة وأمرتهما باتباعها..

السيدة جميلة أنيقة، شعرها المصفف في عناية يفسر أناقة المطعم الذي حبس أنفاس يسر..

قادتهما في هدوء إلى سلالم أخرى أخذتهما إلى الدور الثاني تحت الأرض وفتحت لهما باب غرفة متوسطة الحجم بها سريرين معدنيين وخزانة ملابس خشبية تفصل بينهما واستدارت تقول:

ـ تنامان هنا وحين يأتي تفتيش على موظفي المقهى أعلمكما وتأتيا هنا حيث لا يصل أحد..

اقتربت من عزيز وأطالت النظر إلى وجهه وابتسمت ابتسامة صغيرة ساخرة ثم قالت:

ـ أعلم أنك ستبحث عن فريسة إيطالية تتزوجها، إياك أن تفعل داخل هذا المبنى، أو مع أحد رواده..

استدارت نحو يسر التي غاب وجهها في غيمة من الخوف والألم لتقول:

ـ لك أيضًا نفس الرسالة أيتها الجميلة!!

حاول أن يتحدث لكنها قاطعته قائلة:

ـ كل منكما سيعمل ثماني ساعات، أنت تفرغ حمولات سيارات الفاكهة واللحوم التي تأتي بعد الواحدة، وستجد من يخبرك ماذا تصنع، أما أنتِ..

نظرت يسر إليها في ذهول تسمعها تكمل:

ـ تعملين من منتصف الليل أيضًا وحتى الثامنة صباحًا في المطعم الذي وقفت ببابه، نظافته عليك مع آخرين، كلاكما ينتهي عمله في الثامنة وبعدها لا أرى وجوهكما.. لهذه الغرفة باب يقود إلى الأعلى، لكما ثلاث وجبات من المطعم وأجرة، تنامان هنا لمدة شهرين وبعدها لنا لقاء آخر نتحدث فيه من جديد..

قبل أن تخرج من الغرفة أشارت بيدها تقول:

ـ في الردهة الخارجية حمام. لا يعمل عندي أحد إلا ورائحته تفوح نظافة، أتكفل بالماء والصابون..

قاطعها عزيز هذه المرة قائلاً:

ـ لا ملابس لدينا، هل بالإمكان أن تمنحينا بعضًا من أجرنا..

قاطعته السيدة تقول:

ـ في الخزانة ملابس اشتريتها لكما خصيصًا.

بنظرة ثاقبة هادرة نظرت إلى يسر، وقالت:

ـ أرجو ألا تمارسا الجنس هنا وإلا رميت بكما إلى حيث أتيتما!!

انتفضت عروق يسر خجلاً وألمًا، وقال عزيز كأنه يئن:

ـ هي أختي!!

في سخرية ودون تفكير قالت:

ـ العرب والكذب!!

صاح كأنه يبكي قائلاً:

ـ أعني أنها في مكانة أختي..

مضت السيدة نحو الباب تقول:

ـ لا يعنيني ما تعنيه، ما يعنيني أن تفهم ما أنا عنيت!!

أراكما في منتصف الليل، وبعد لحظات تأتيكما وجبة اليوم، لن تأخذاها إلا بعد أن تتحمما وتغسلا ملابسكما..

قبل أن تمضي سمعت السيدة صوت الشابة يقول:

ـ بماذا نناديك؟!

بعد نظرة أخرى أكثر جمودًا وقسوة، قالت:

ـ السيدة بوسكيمي!! اسمي هو "إليزابيتا" لكن ليس لك الحق أبدًا في مناداتي به، هل أرضيت فضولك يسر؟!

لم تنتظر منها كلمة، بل خرجت وأغلقت خلفها الباب ليتبادل كلا الحائرين نظرة طويلة تقطر حيرة وألم!!

***

لا تعلـم كم أنـت متعب إلا حين ترى أمامك فراشًـا نظيفًا ووسـادة ناعمة غابت عنك زمنًا!!

مـا إن أنهـى كلاهما حمامه، وارتديا ما أحضرته السـيدة من ملابس ولقيمات الطعام حتى أصبحت عيناهما معًا لا تبرحان الأسرّة المعدنية لكن شيئًا في صدر كل منهما يمنعه عن الركض إليها..

في هدوء تنهد عزيز قائلاً:

ـ نمنا معًا على المركب، وغفوت أيامًا على سـاقي، وسـقطت على كتفيك.. لماذا نخشى النوم هنا على سريرين متباعدين ؟!

فـي حيـرة كبيرة رفعت رأسـها تنظر إليـه وأرخت عينيهـا دون كلمة واحـدة لينهض عن مكانه قائلاً في كل ما اسـتطاع سـكبه من مرح على صوته:

ـ هل تذكرين ما كان أحمد مظهر يفعله وسعاد حسني في ذاك الفيلم حين اضطرتهما الظروف للنوم في غرفة واحدة؟!

كانـت ترقبه في هـدوء وهو يفتح الدولاب الموجـود ليخرج ملاءة نظيفـة ليقوم بوضعها كسـاتر يفصل سـريرها عن سـريره، وأخذ يبحث عن مسمار يثبت به ما يحمله في يده..

لم تحرك ساكنًا، بل أخذت ترقبه وعلى وجهها ابتسامة نقية، وقالت:

ـ تقتلك السيدة بوسكيمى إن دققت مسمارًا وأقتل نفسي إن كانت قطعة من القماش هي ما تحميني منك.

حين سمع كلماتها تلك ارتخت يده وسقط منها ما تحمله واقترب ليجلس أسفل قدميها ونظر إلى وجهها طويلاً ومن خلف دمعة صغيرة ترقرقت في عينيه قال:

ـ يقول أبو بكر الصديق: "اللهم اغفر لي ما لا يعلمون واجعلني خيرًا مما يظنون".

في ألم شديد حاول أن يكمل قائلاً:

ـ لست أبدًا كما تظنين، أنا..

أسرعت تضع أصابعها على شفتيه، تقول:

ـ لا تقل شيئًا.. فلننس ما فعلوه بنا هناك، وما جعلونا نفعله بهم وبأنفسنا، لا تقل شيئًا أرجوك.

نهض، وقال مبتسمًا:

ـ نعم فلننس.. لكن أريد فقط أن أتذكر اسم الفيلم..

ألقت بجسدها على سريرها المعدني وأحكمت حولها الغطاء، وفي لحظة أغلقت عينيها وقبل أن تسقط في النوم ضحكت قائلة:

ـ "ليلة الزفاف"!!

***

أمام كل أمر تصدره قدرية تصدر هي أمرًا له ذات الصلف والغباء..

حين ألقت بملعقتها في صحن الطعام، ونظرت إلى وجهه في حدة تخبره أن مرور ستة شهور دون إنجاب هو أمر يجب أن يتخذ بشأنه أمر، وأنه من الضروري أن يجريا فحوصًا طبية أخبرته زوجته في المساء أنها ستجري الفحوص في القاهرة، ولن تقيم إلا في شقة الغندور الراحل..

شعر أنها تفعل ذلك لتؤلمه فهي تعلم أن يسر ما زالت تضرب تحت جفنيه بفأس غيابها وأن حضوره إلى بيتها يزيد من سوء الأمر ووحشية الألم لكنها ما تراجعت عن قرارها ولا قبلت رجاءه..

لا يستطيع أن يقسو عليها كما يفعل أبوه، بداخل فريد شعور عميق بالذنب تجاهها، حين تعبث بجسده يأخذها وإن كان كارهًا للدنيا بأكملها لا لممارسة الحب فحسب، حين تطلب مبالغ كبيرة يعلم أنها تمنحها لوالديها لا يعارض حتى باتت تظنه ضعفًا ويراه هو تعويضًا!!

أي تعويض ذاك الذي يكفي حبًّا إن ضاع وقصة إن ماتت، ضاع حب طفولتهم وماتت قصتهم تلك؛ لأنها ما خرجت من أرواحهم، بل فرضت عليها بيد قدرية فرضًا!!

وها هو يقف أمام باب البيت الذي دخله مع يسر قبل اختفائها ذات يوم لكنه يقف بيد ترتجف لا يعلم كيف يثبتها على ثقب المفتاح دون أن تلحظ خديجة ارتعاشتها وارتعاشة القلب بين الضلوع..

في هدوء وفي ابتسامة باردة متشفية وضعت كفها على يده والتقطت المفتاح وأدارته ليدخلا في هدوء وما أن وضعا حقيبتهما على الأرض وجلسا على أول مقعد وجداها حتى قال كأنه ما زال يرجوها:

ـ لا شيء يرغمنا على المبيت في بيت مهجور وأثاثه مدفون تحت التراب، هي فرصة للنزول في أحد الفنادق الكبرى.

باستهزاء لا تخطئه عين نظرت إليه ودارت بعينيها في البيت ثم نهضت دون كلمة تتجول في الغرف المغلقة..

وقفت عيناه على المكان الذي انهارت فيه ابنة عمه وسقطت على كتفيه، هل يشتاقها أم هو كبرياؤه الجريح الذي يتمنى عودتها ولو يومًا واحدًا يصفعها فيه صفعة كالتي طالت روحه وأجهزت عليها؟!

هل حقًّا يشتهيها أم هو غروره الذي يتمنى لو يضاجعها مرة واحدة ثم يخبرها أن خديجة أشهى منها ويبصق على جسدها وفيه ثم يمضي!!

ما عاد يعلم سوى أن نارًا اسمها يسر تشتعل في عروق رجولته ولا يطفئها سوى أن تعود ولو ليلة يثأر فيها منها ويهدأ، بل ربما عاد بعدها يشعر بزوجته وحبها من جديد..

كان صدره يتهدج وهو ينظر في الفراغ حيث كانا معًا يقفان، وأعادت خديجة نداءها أكثر من مرة قبل أن ينتفض ويتبعها إلى حيث قادته نحو غرفة حين دخلها استدارت نحوه لتقول:

ـ ننام هنا وتضمني إليك بعيدًا عن عمتي وعن أبيك.. أريد أن أنام على صدرك هنا قبل الذهاب إلى الطبيب وقبل أن أسمع شيئًا يكسرني أمامك..

لم يعلم كيف يهرب من عينيها، لا يريدها أبدًا أن ترى ألسنة اللهيب التي اشتعلت في صدره، هي غرفة يسر وهو فراشها.

زوجته تريد ذبحه، وإن كان الثمن مرور السكين على صدرها هي أولاً، بكل ما استطاعه من قوة جذبها إلى صدره، وهمس قائلاً:

ـ لا شيء يكسرك.. أيًا كان ضعفك ستبقين دومًا أقوى من الشظايا التي تقف أمامك!!

***

كان يرقبهـا في سـكون، وهي تقف علـى طرف البحيـرة تُخرج من كيسـها الصغير الذي أحضرته معها دوائر الخبـز الصغيرة التي تجمعها طوال الأسـبوع من بقايا خبز المطعم، وتكورها كرات صغيرة لتحملها يوم إجازتهم الأسبوعية وتقف لتلقي منها على بط البحيرة الملون..

اليوم وبعد أربعة أشـهر من حضورهـم الأسـبوعي رأى البط الصغير يتجمع تحت قدميها قبل حتى أن تخرج كيس الخبز من جيب ثوبها..

أصبـح البط يحبهـا وينتظرها ويشـتم رائحتها لا رائحة الخبز، سـتة أشـهر كاملـة ينامـان في غرفة واحـدة ويسـتخدمان حمامًا واحـدًا ولـم يجمعا قرشًا واحدًا..

ما تمنحهم إياه السـيدة من أجرة أقل من أن يدخرا منه شـيئًا، بالكاد يتناولان به طعامهما يوم الإجازة حيث لا وجبات لهم في يوم لا يعملان فيه، وإن كان عطلة، تلك كانت قرارات بوسكيمي..

بدأ عزيز في الانهيار، جرحه القديم بدأ يتمرد، لم تعد ساقاه تحتمل حمـولات الخضار والفاكهة التي يقف كل يوم ينقلها من وإلى المطعم والمقهى.

حين يأتي الصباح وينتهي عمله يرتمي على فراشـه متمنيًا لو يصرخ من ألـم سـاقيه، ما يقارب السـتة أشـهر وهـو يكتم ألمـه وصيحاته رفقًا

بهذه الفتاة، لكن هذا الصباح شعر أن الأمر يفلت من يديه، حين أيقظته للخروج إلى نزهتهم الأسبوعية شعر أن ساقيه ثقيلتان لا يستطيع الهبوط بهما عن فراشه، تلكأ كثيرًا وتذرع بأعذار كثيرة حتى شعر بها حزينة بعد أن طلب منها الخروج وحدها لتتركه في الفراش..

لم تعترض، رآها فقط تخرج كيس الخبز من جيبها وتقول:

ـ أنا أيضًا لن أخرج، في المساء نذهب لنأكل شيئًا، أو أذهب وحدي لشراء بعض الفاكهة..

حتى ساقيه المصابة لم تحتمل حزنها، تحركتا في ألم ونهض عليهما يخبرها أنه كان فقط يريد استثارة غضبها لا أكثر.

كل خطوة سارها إلى جوارها كانت تؤلمه، حين وصلا إلى البحيرة القريبة من المقهى ارتمى على هذا المقعد متظاهرًا بعدها بالنوم، وحين نهضت فتح عينيه من خلف ظهرها يرقب تظاهرة الحب الكبرى التي أقامها حولها البط وأفراخه.

نعم يحبها، لكنه حب من نوع آخر ليس أبدًا كذاك الحب..

في سخرية مريرة ابتسم يهز رأسه يسأل نفسه، هل الحب أنواع؟! أحمق من يقولها!!

الحب واحد، طرق التعبير عنه هي التي تختلف، هناك حب نعبر عنه بالكلمات والنظرات والسكون والأشعار ليُطلق عليه «حب عذري» وهناك حب تعبر عنه كل أعضائنا ليكون حبًّا «مكتملاً»، أو «مجنونًا»، هناك حب نريد به أن نغلق عيون من نحبه عن الأرض والسماء فلا يرى

سـوانا ليصبح «سيطرة وتملكًا» وهناك حب لكثرة ما يمنح ويفي يسقط إن رميناه بزهرة!!

لا فرق.. في الحب أنت إما عاشق، أو مخادع!!

يحبها لكنه يكمم شـفاه الحب ويوثـق عنها ذراعيه ليس خوفًا عليها لكن خجلاً من الحب ومن نفسه!!

يعلـم أنهـا تَفنَـى هي الأخـرى كل يـوم فـي تلميـع أدوات المطعم وغسـيل صحونه، لن ينسى أبدًا كيف رآها تبكي منذ أيام وهي تتحسس أصابعها المتورمة من مساحيق التنظيف والتلميع..

رفـع عينيـه الغائبة في الدمع ينظـر إليها وهي ما زالـت على البحيرة تقف وحولها تجمعات البط..

سـكين حادة تشـق ركبتيه وسـيف أكثر شراسة يشـق صدره ويشطر عروقه..

كلاهمـا ضعيف والحب الذي بدأ يتأجج في صدريهما هو الضعف الأكبـر الذي لا أحـد فيهما يحتمل وجوده.. الحيـاة على أرض الغرب تلفظ الضعف والضعفاء!!

* * *

متى تستدير وتعود إلى المقعد الذي يجلس عليه عزيز؟!

أكثـر مـن سـاعة وهـي تتظاهـر بإطعـام البـط وأفراخـه وتعجز عن الإستدارة إليه..

تخشـى أن يكـون مسـتيقظًا ويرى هـذا الدمع الـذي لا تعرف كيف تسيطر عليه، أو توقفه!!

تعبت، بل تشـعر أنها تكاد تموت من الألـم، ألسـنة عالية من اللهب تسـكن أصابعها وكفيها، جربـت ارتداء القفـازات الخفيفة لكن ما زال كفاهـا يؤلمانهـا، أخبرهـا أحـد رفقـاء العمل أنهـا بحاجة إلـى طبيب، الطبيـب بحاجـة إلـى نقود، لا نقـود لدى أحـد منهما، بالـكاد تكفيهما أجرتهما للخروج وشراء بعض قطع الحلوى التي يشتهونها..

تعبت يسـر من الألـم والأكثر ألمًا من الألـم ذاته هو أن تمنع نفسـك عن التعبير عنه..

لو أنها فقط تستطيع الصراخ والبكاء لربما ارتاحت قليلاً!!

جابا كل المحال والمطاعم بحثًا عن عمل بأجرة أكبر..

الجميع يمنح قروشًا قليلة لعمال «العمل الأسود».

أصبح هذا العناء والموت اسـمه عملاً أسـود في عرف البلاد ؛ لأنه من أشخاص غير معترف بدخولهم البلاد.

تعبـت وما عـادت تحتمل، تـزداد ضعفًا كل يوم إلا حيـن تعود إلى غرفتها وتجده غارقًا في الإنهاك والألم، عندها فقط تجد ابتسامة ترتسم وحدهـا على وجهها وتتقدم نحوه وتطلـق بعضًا من قصص ونكات لا تستمر سوى دقائق أصبح عزيز يغيب بعدها في النوم..

أحيانًا تشـعر به يتظاهر بالنوم ليسـتدير عنها بظهره ويبكي هو الآخر في صمت!!

ألقت بحبات الخبز الصغير المتبقية في كفيها واسـتدارت في جنون بـكل دمعاتهـا وكل خطوط الألم المرسـومة على ملامحهـا لتراه على المقعد يعض على شفتيه ودمعات أخرى تتسلل على وجنتيه..

تشتهي لـو يضمها، تشـتهي لـو يأخذها عزيـز بين ذراعيـه القويتين ويسـحقها حتى تصبح ذرات من التراب تتطاير ثم تسـكن أسـفل قدميه لكنه لا يفعل!!

لـم ينهض عن مقعده ولم تتقدم نحوه، بل دارت حول نفسـها دورة كاملة ورقصت كما لم ترقص يومًا قط..

كل زوار المتنزه وقفوا يرقبونها في ذهول!!

كانـت تطير في الهواء وتسـقط علـى أطراف أصابع قـدم واحدة ثم تنثنـي حتـى تلمس أصابـع قدميهـا وتنهض مـن جديد لتـدور دورات

سريعة كاملة وترفع ذراعيها لتفتح إحداهما في زاوية قائمة وترخي رأسها عليه..

كان واضحًا أنها تبكي وتحترق واختارت الرقص تعبيرًا عن البكاء والاحتراق!!

لحظات طويلة تهدج فيها صدرها واضطربت أنفاسها حتى انتهت رقصتها وسكنت حرائقها وصفق كل من تجمع حولها من زوار المتنزه وتقدم أحد الأطفال يمنحها زهرة بيضاء جميلة أمسكت بها بين يديها وهي تنظر إلى عزيز الذي بقي على مقعده يصفق لها ولا يبالي بوجه غسله الدمع..

تقدمت نحوه ومدت يدها إليه بالزهرة وحاول أن ينهض ليأخذها إلى صدره لكنه سقط على المقعد وأطلق صرخة صغيرة من الألم.

ساقاه خذلاه!!

اتسعت عيناها في خوف وهي تضمه إلى صدرها تسأله ما به.. كان يهدهدها ويطمئنها ويكتم صيحات ألم لو أطلقها لاهتز المتنزه ومات بط البحيرة خوفًا وهلعًا!!

بعد لحظات قال في ألم:

ـ أتعكز عليكِ حتى نصل إلى المطعم، لا أظنني أستطيع الحراك وحدي ولا أظنني على حمل الصناديق بت أستطيع!!

***

بعد طرقات صغيرة متوالية فتحت وحدها الباب دون حتى أن تسمع إذنًا بالدخول، كانت كل قطعة في جسدها ترتجف مع تساقط دمعاتها وانتفاضة ملامحها..

حين وقفت أمام مكتبها وحين رأت السيدة ترفع حاجبها وتنظر لها في غضب واستنكار كبير قالت:

ـ اعتذر سيدة بوسكيمى لكن عزيز بحاجة إلى طبيب، أنا لا أعلم ماذا أفعل، هو محموم وبالكاد وبمساعدة أحد المارة وصلت به إلى المقهى، أرجوك ساعديني، هو عن الوعي غائب.

بقيت لحظات ترمقها في غضب، ثم ودونما اكتراث ألقت ببعض الأوراق على سطح مكتبها ونظرت إليها من جديد تقول:

ـ هل أنت على استعداد لمواجهة ما قد يحدث إن أنا استدعيت له سيارة إسعاف تنقله إلى المستشفى؟! قد يطلبون أوراقه وحين يعلمون ألا أوراق لديه يعالجونه ولكن حين يتم شفاؤه يتم أيضًا ترحيله، هل أنت حقًّا على الحياة بدونه قادرة أيتها العاشقة الصغيرة؟!

دون تفكير وفي هيستيريا بكائها قالت دون تردد:

ـ فليفعلوا ما شاءوا فقط لا أريده أن يموت.

اقتربت من خلف المكتب نحوها وهي تكمل:

ـ كل من أحببتهم ماتوا، ما فائدة أن يموت إلى جواري، أريده أن يحيا وإن كان.

قاطعتها بوسكيمي في حدة قائلة:

ـ عودي إلى مكانك ولا تقتربي مني أبدًا حين تحادثينني، إن كنت لرحيله لا تبالين فأنا قانونًا أُجازى لتستري عليه وإلحاقه بالعمل عندي، خذيه واخرجي به إلى أقرب مستشفى لكن إياك والعودة هنا..

عادت إلى حيث كانت تقف في ذهول، وعادت تخبرها أنها عجزت عن السير به وهو في وعيه فكيف تخرج به وهو عن الوعي غائب؟! في كل ألم الأرض وتذللها طلبت منها أن تحضر له طبيبًا وأجابتها الأخرى بذات الهدوء:

ـ هو الحل الوحيد لكن هل تملكين أجرة انتقال طبيب إلى هنا؟!

كتماثيل الرخام الكبيرة المنتشرة في ميادين الجزيرة وقفت يسر لحظات وحين صرخت فيها بوسكيمي تأمرها بالعودة إلى حيث كانت نظرت إليها، وقالت:

ـ أملك أجرة الطبيب، إليك بهذا..

في هدوء مدت أصابعها المرتعشة تخلع قرط أمها من أذنيها ومدت به كفها تقول:

ـ هـو مـن الذهب والماس، هو آخر ما منحتـه لي أمي وأنا طفلة قبل رحيلهـا، بيعيه وإن لم يكف ثمنه أعمل لديك ما بقي من عمري، أعمل ورديتيـن، أو أغلقي باب الغرفة خلفي واحتفظي بالمفتاح حتى أرد لك الباقي، أرجوكِ سيدة بوسكيمي أرجوك!!

أشاحت السيدة بوجهها لحظات ثم استدارت تقول:

ـ ضعيه على المكتب واذهبي، سأحادث الطبيب!!

في طريقها إلى الباب سمعتها تناديها قائلة:

ـ إن قال الطبيب إنه يموت سأطلب من عمال المقهى إلقاءه بالقرب مـن بـاب أقرب مستشـفى، أما إن كان مرضًـا قابلاً للشـفاء تذهبين إلى عملكِ في موعده وتنقطع أجرته حتى يعود إلى العمل، هل تفهمين؟!

في سـكون هزت رأسـها وركضت خارج الغرفة نحـو عزيز، كانت تشـعر أنها تركت آخر ما بقي من روحها ملقى على مكتب بوسـكيمي، قـرط أمهـا كان آخر نَزع فـي روحها، ليته لا يموت علّها تسـترد الروح، وإن ضاع القرط وغابت الأم!!

***

سقط الصحن من يدها مرتين وفي كل مرة كان قلبها ينخلع من خلف ضلوعها خشية أن يُكسر، بعد أن التقطته في المرة الثانية مسحت بمرفقها قطرات العرق الغزيرة التي تصببت من جبهتها، شعرت بعدها بكف زميلتها تلتقطه من أصابعها وبيدها الأخرى سحبت أحد مقاعد المطعم وطلبت منها الجلوس قائلة:

ـ اجلسي لن يراكِ أحد، اهتمي بالمعالق والسكاكين، سأهتم أنا بأمر الصحون، أنت مرهقة ولن تستطيعي، إن كُسر الصحن لن تكفي أجرة الأسبوع القادم بأكملها لسداد ثمنه، اجلسي ولا تخافي.

رمت بجسدها على المقعد في تهالك واضح، عيناها متورمتان وجسدها تخور قواه..

أسبوع كامل منذ سقوط عزيز وحضور الطبيب ليعلن أنه يعاني من حمى قد تقتله ولا يعرف لها سببًا..

لا تنسى أبدًا تلك اللحظة التي حقنه فيها بخافض للحرارة وطلب منها أن تخلع عنه ملابسه الثقيلة..

صاح الطبيب وهي تسدل عليه الغطاء ممسكًا بيدها لتنظر حيث نظر وهو يتحسس ركبتيه يقول «ما هذا بحق السماء؟!»

كان على ركبتي عزيز آثار خياطة لجرح كبير يبدو أنه بقايا عملية جراحية أجريت فيهما، اقتربت منه وتحسست آثار الخياطة وزاد نحيبها وهي تخبر الطبيب عن الأثقال التي يحملها في عمله من صناديق الخضر والفاكهة وكراتين اللحوم والدواجن ومخلفات المطعم..

أسبوع وهي تركض إلى صالة المطعم لتقوم بعملها الشاق فيه وتركض في الصباح إلى الغرفة لتمريض عزيز ومنحه الدواء وكمادات المياه الباردة كما أمرها الطبيب..

أسبوع تنام فيه وتصحو وهي تجلس على حافة فراشه بينما يغيب في هذيانه ويعود ليفتح عينيه ويجدها تمسك بكفه، أو تنثني على جبهته بمناشف كماداتها الباردة.

كلما غلبها البكاء أمسكت بكفه وغنت «يا عزيز عيني».. تغني وتغفو لتصحو وهي تردد اسمه في رجاء وخوف..

أسبوع تورم فيه جفناها حتى أخبرها الطبيب في إحدى زياراته أنها من الإعياء الواضح عليها قد تسقط إلى جواره.

أخبرها الطبيب أنه توسل إلى السيدة بوسكيمي لتمنحها إجازة يومين لكن الأخيرة رفضت..

لا شيء يهم، بالأمس بدأ عزيز في التحسن، انخفضت الحرارة وذهب وحده إلى حمام الغرفة دون مساعدتها.. غدًا إجازتها الأسبوعية، ستخرج في الصباح بعد انتهاء عملها لشراء بعض الفطائر

والعصير وتعود للنوم، بل ربما لا تحتاج النوم إن كان يستطيع الخروج، ستصطحبه إلى البحيرة القريبة، لم تنس رغم كل شيء كرات الخبز، تريد أن تأخذه في موعدهم إلى البحيرة كأن هذا الأسبوع الأسود ما كان.

حين أنهت تلميع جميع أدوات المائدة تحاملت على ساقيها ونهضت تذهب إلى رفيقتها تخبرها أنها أفضل حالاً وستكمل معها تنشيف الصحون وإعادة توزيعها على الموائد، قالت في امتنان:

ـ أنا بخير، اللحظات التي قضيتها جالسة جعلتني أفضل، أريد العودة إلى عزيز..

سألتها الأخرى في حنان:

ـ أما قلتِ إنه تماثل للشفاء؟!

ابتسمت في ألم تقول:

ـ لهذا أريد العودة إليه، هو يوم إجازتي، إن كان يستطيع أصطحبه إلى البحيرة.

وابتسمت الأخرى قائلة:

ـ ظننتك تنامين!!

في حنان رغم الإجهاد أجابت:

ـ ننام لنرتاح، راحتي في إطعام البط وصحبته، أريد أن أراه يخطو على قدميه..

دون وعي منها تحسست أذنيها الخاوية من قرطها وأكملت تقول:

ـ أريد أن أنسى ما حدث كأنه ما كان..

انتفضت الفتاتان معًا كأن تيارًا من الكهرباء تخلل جسديهما حين رأيا السيدة بوسكيمي تدخل إلى صالة المطعم وتقدمت نحوهم في هدوء، وفي حدة طلبت من الجميع مغادرة الصالة إلا يسر وحدها..

حين أصبحا وحدهما انتفضت الأخيرة في خوف تسألها إن كان خطأ ما صدر منها وأطالت السيدة النظر إلى وجهها الشاحب ثم قالت:

ـ كدت تموتين في تمريضه بكل تكادين!

لم تكن أبدًا تحتمل الوقوف على قدميها، هي حقًّا تكاد تموت من إجهادها وتمريضه وحينما لم تجد ما تقول أرخت رأسها في سكون لتسمع الأخرى تقول في صوت أعلى قليلاً من عادته:

ـ هل تعلمين ماذا فعل حين التقط أنفاسه؟!

رفعت يسر وجهها تنظر إليها في ذهول لتسمعها تقول:

ـ جمع أشياءه وسرق نقودك ورحل!!

كانت عينا يسر زائغتين كأنها لم تفهم ما سمعته وأعادت السيدة كلماتها تقول:

ـ نعم رحل!! تعلَّمي الدرس أيتها الحمقاء.

استدارت كأنها تود أن تركض إلى غرفتها وصاحت بوسكيمي قائلة:

ـ ما زال على موعد انصرافك ساعة، إن خرجت الآن يُخصم منك اليوم بأكمله.

كانت تقبض على ذراعيها بقوة وتنظر إلى عينيها الغائمة خلف دموعها في قسوة، وقالت:

ـ أما وعيتِ الدرس؟! رحل منذ ساعات، لا يستحق أبدًا أن تضحي بأجرة اليوم وعنائه من أجل البكاء على فراشه الخالي أيتها الحمقاء!!

***

نظرت في ألم إلى الفراش الخاوي وأغلقت باب الغرفة في سكون وهي تحمل حقيبتها وتمضي نحو الباب الرئيسي..

كان أسبوعًا مريرًا لكن مرار ختامه يجعل من مرارة الأرض ذاتها شلالات شهد وسكر!!

أيهما المسكين حقًّا؟! هي أم فريد؟!

لم تخبر أمها شيئًا، ولا أخبر أمه شيء، لم يتفقا حتى على شيء يقولانه..

بالأمس وبعد أن علموا كل الحقائق وعندما غفيا على فراش تلك الحقيرة نظر إليها في مرارة وقال «لا أظنك بعد اليوم تتلهفين للجنس خديجة»!!

تمنت لو ترفع كفها وتصفعه ألف صفعة لكن كان على حق، منذ تزوجا وهي تراوده كل يوم حتى إن كانت لا رغبة لها فقط لتثبت له ولنفسها أن شبح يسر ليس بينهما وأيضًا لتحمل في أحشائها جنينًا ينتفخ به بطنها ليرى الجميع أن من وقع في غرام ابنة عمه، وحدها ابنة خاله تحمل منه طفلاً!!

ماتت كل الأحلام!!

نجت يسر من رجل عقيم وسقطت هي فيه!!

أسبوع من التحاليل والكشوفات المهينة لهما معًا..

أسبوع كامل من البكاء والخوف والرجاء ليعلن الطبيب بالأمس بعد أن تجول في أكوام الأوراق التي دفعوا فيها نقودًا ودمعًا وكبرياء أن فريد الغندور لن ينجب قط!!

«هي حالة Azo-spermia للأسف، السائل المنوي يخلو تمامًا من الحيوانات المنوية، حتى العينة التي تم أخذها من الخصية أثبتت أن خلايا ما قبل الحيوانات المنوية بكل أسف غير موجودة على الإطلاق"!!

نكس الطبيب رأسه لحظات، ثم عاود النظر إلى وجوههم الباهتة وأكمل في ألم:

ـ لا تحاول يا ولدي أبدًا.. اقبلا بالأمر.. ليس الإنجاب خيرًا في كل الأحوال!!

نظر إلى وجهها هي بالتحديد، وأكمل يقول:

ـ أعرف نساء بقين سنوات يجاهدن من أجل الإنجاب، وحين حدث ماتت الأم، أو ولدت أجنة مشوهة مريضة، الله لا يختار إلا الخير..

في كل غيظ الدنيا وجنونها نهضت عن مقعدها وقبل أن تتركه مع زوجها قالت:

ـ تحدث فقط عما تعرفه، لا تتحدث أبدًا عما تجهل أيها الطبيب!!

انتظرت زوجها كثيرًا في السيارة حتى هبط إليها، لم يقل كلمة ولم ينبس حرفًا سوى ما قاله في فراش يسر، وفي الصباح حين فتحت عينيها وجدته حزم الحقائب وأخبرها أن الأمر متروك لها إن شاءت يطلقها ويمنحها مبلغًا كبيرًا من المال، وإن شاءت بقيت لكن دون كلمة واحدة يسمعها منها.

قال في كبرياء ذبيح:

ـ لن أسمعك يومًا تتحدثين عن عقمي، أو احتياجك للأبناء، إن قلتها أطلقك في لحظتها!! إما الرحيل وإما البقاء دون كلمة واحدة.

لا شراسة كشراسة مذبوح في كبريائه ولكن من قال إنها ليست مثله!!

هل تتركه.. هل تبقى؟!

لا تعلم.. خديجة بحاجة إلى وقت تفيق فيه من هذه الصدمة وبعدها تقرر.

أغلقت باب الغندور الراحل وهي تتمتم بلعنات كثيرة، ليتها حقًّا لم تأت إلى بيتها، كان فريد على حق، ربما لو ذهبا إلى فندق لما أصابتهما لعنة يسر وعائلتها المسمومة!!

وهي إلى جواره في السيارة حادثت عمتها تخبرها أنهم في طريق العودة وسمعها فريد تقول في حزم:

ـ يحكي لك فريد التفاصيل ولكن اطمئني أكد لنا الطبيب أن كلانا بخير وأن الأمر متروك للأيام، أرجوك أن تبلغي أمي فهي لا تصدقني!!

حين أغلقت الخط استدارت تنظر إلى زوجها لحظات ثم قالت:

ـ هذا ما سنقول حتى نرى ما تقوله الأيام!!

هي ثائرة مذبوحة كل مشاعرها مختلطة لكن اليقين يسكنها أنها لعنة ابنة الروسية وبيتها لكن وحدها اختارت أن تدخله ووحدها من قررت النوم على فراشها الملعون!!

عندما يصيبنا القدر بطعنة لا نهدأ حتى نلقي التهمة دومًا على من نكرههم وإن كانوا وكنا نعلم أنهم أبرياء!!

***

لـم يكن يصدق أبدًا أنه سيلجأ إليه، ما كان يصدق أبدًا أنه يطرق باب أحد ممن يعرفون قصته لكن ما تركت له يسر خيارًا آخر..

مال بجسـده المرهق قليلاً وأخرج تذكرة الباص الأخير الذي يصل بـه إلى الدانمارك ليعيدها إلى جيبه بعـد أن ألقى المحصل عليه وعليها نظرة متشككة ومضى إلى بقية الركاب..

ثلاثـة أيـام قضاها فـي التنقل من بلـدة إلى أخرى ومـن ضاحية إلى أخرى مستعينًا بالنقود التي سرقها من يسر..

رأى السيدة بوسـكيمي تمنحها النقود ورآها تلقي بالمظروف الذي يحتويها على فراشها وهي تبكي في ألـم..

لابد أنها تلعنه في اللحظة ألف مرة!!

ليت ربها إلى دعائها عليه ولعناتها يستجيب، ليت هذا الباص الذي يستقله بنقودها تضربه صاعقة من السماء ويموت لكن حتى الموت هو يخشاه.. يذهب إلى الآخرة إن مات ما عساه لها يقول وكيف يفتح فيها عينيه..

هـرب من المـوت ؛ لأنه يعلـم أن اللحظـة التي يغلقـون فيها خلفه القبر ويمضون تأتي إليه مها والجحيم أن ينظر إلى عينيها بعد أن خذلها وتركها أمام عينيه تموت!!

الخـوف من النظر إلى وجهها وانكسـارها وحـده أبقاه حيًّا، وها هو الآن يكسر شابة صغيرة على وجه الحياة ما فعلت شيئًا سوى أنها وثقت فيه وسهرت على تمريضه حتى تورم جفناها ونحل جسدها..

سرقها ومضى!!

الهرب والتخلي أرحم مـن البقاء والخذلان!! ليتها تعلم، ليتها حقًّا يومًا تعلم!!

كيف يطرق باب "وليد"، لماذا لم يحادثه، معه رقم هاتفه فلماذا لم يحادثـه؟! لأن عزيـز ما زال خائفًا يرتعد من مواجهـة من يعرفون قصته لكن ما بقي أمامه خيار آخر!!

أن يسـقط أمام صديقه القديم أفضل ألف مرة من أن يبقى إلى جوار يسر ويرى نفسه يخذلها كما خذل زوجته.

حين يخذل رجل امرأة مثل مها فهو دون شـك مع سـواها يفعل وإن كانت مثل الفراشة!!

حيـن غـادر البـاص، وتجول فـي شـوارع "برانـدا" التي يقيـم فيها صديقه القديم شـعر أن كل شارع فيها يشـتهي رؤيتها، يشتهي خطواتها ورقصها وغنائها..

ابتسم في مرارة ودمعة تسقط على خده لم يقاومها لكنه كان من نفسه يهزأ..

الدانمارك بأكملها لا تعرف يسر حتى تشتاقها، أو تشتهيها وحده عزيز يفعل، وحده يموت شوقًا إلى فتاة صغيرة سرقها ودون كلمة هرب وتركها!!

حين أصبح أمام باب البيت، وبعد أن قرع الجرس مرات كثيرة أدرك أن صديقه غير موجود..

جائع هو وما زال مرهقًا وساقاه لم تتماثلا للشفاء بعد لكن لن يفرط فيما بقي من قروش حتى يعلم موقف صديقه منه..

قد يدعى أنه لا يذكره وأيضًا لن يحزن، بل وعلى أحسن الأحوال قد يعتذر عن مساعدته فزوجته سيدة دانماركية قد تكره من يأتي من ذاك البلد الذي هرب منه..

ألقى بجسده على سلالم البيت وانزوى في ركن منها لينتظر ما سيفعله به صديقه وأغمض عينيه وهو يتمتم في ألم "سامحيني يسر سامحيني".

***

في السادسة مساء قرر عزيز أن ينهض عن سلالم البيت ويذهب لشراء شطيرة من الخبز وبعد خطوات قليلة بعيدًا عن بيت صديقه رآه يغادر سيارته قادمًا نحو بيته..

كم يتمنى لو كان بإمكانه أن يبتعد قبل أن يراه.. ما زال لا يحتمل رؤية أحد ممن يعرفون قصته لكن هو متعب هارب وأيضًا جائع..

في صوت محشرج صاح يناديه ووقف الآخر يتلفت حول نفسه بحثًا عن مصدر الصوت وعاد في صوت أقرب للبكاء يقول:

ـ هنا يا وليد هنا.. عزيز، ألا تذكرني؟!

بقي الرجل ينظر إليه لحظات كأنه لا يفهم ولا يصدق ما تراه عيناه إلا أنه أفاق ليركض نحوه ويضمه إلى صدره في حنان وهو يصيح:

ـ عزيز!! متى وكيف أيها الصديق؟!

على كتفيه بكى قائلاً:

ـ هربت منها.. هربت من صورها وصوتها وأنفاسها وجئت هنا لأسرق وأقتل أخرى يا وليد، هل تساعد جبانًا مثلي؟!

سار به نحو سلالم البيت، وما زال ممسكًا بيده يقول:

ـ زوجتي أنيتا تقضي أسبوعًا لدى أهلها.. أسبوعًا كاملاً بإمكانك أن تصيح وتبكي وتنام وتفعل فيه ما شئت دون أقنعة.. الآن لا تقل شيئًا، الآن نأكل وتنام!!

عندما يمسك بأيدينا من يشفق علينا ويرحمنا يرفع الكبرياء عن أجسادنا وأرواحنا حصاره ونعود دون رتوش ودون خجل..

ليس هذا عزيز أبدًا الوسيم المفتول العضلات، ليس أبدًا الهادئ المتزن..

بل هو الضعيف التائه الباكي..

لا يُسقط عن وجوهنا الأقنعة إلا كف صديق!!

* * *

النســاء لا تشـيخ بعد بقائها علـى قيد الحيـاة أعوامًا طويلة، النسـاء تشـيخ عندمـا تضع قوتهـا وأحلامها في بناء حائط تسـتند عليه فيسـقط على رأسها!!

هـا هـي عجوز في الثامنة عشـرة مـن العمر، بل تقترب من التاسـعة عشرة وها هي بعض الخطوط ترتسم حول جفنيها كتلك الخطوط التي يشقها الزمن على وجه أربعينية في العمر!!

مـا يقـارب العام علـى هرب ذاك العزيز لم تبتسـم مـرة واحدة، عام تقريبًا وهي تنهي سـاعات عملها في مطعم المقهى وتذهب إلى غرفتها وتنام بعد أن تبقى ساعات بين الأسئلة والبكاء..

عزيز يسرقها؟ يرحل دون كلمة؟!

كل شيء مات بداخلها يومًا بعد يوم في العام الماضي..

كلماتهـا قليلة، ترى بعينيها جثث أحلامهـا وآمالها تطفو واحدة تلو الأخرى كل صباح.

حتـى أمهـا بات لقاؤهـا جثة لا يعنيهـا أمرها في شـيء، كيف تحلم بلقاء أوليجا وما حافظت على عهدها معها.

خلعت قرطها من أذنيها من أجل سارق سرق ما بقي من ثمنه الذي صرفته على علاجه وطبيبه، وكيف تحلم بلقائها وهي ما باتت تؤمن بكلمة "صدق" مع الغير كانت أو مع النفس.

حتى بط البحيرة ما زارته يسر مرة منذ عام، لا شيء يلتف حولك إلا إن كانت يدك مملوءة بشيء هو فيه يطمع.

أمينة ضمتها إلى صدرها فقط لتلقى بها في البحر.

عزيز ضمها إلى صدره فقط ؛ لأنه كان عاجزًا يحتاجها ويوم باعت قرط الذهب سرق ثمنه وهرب.

فريد رقص حولها يومًا شهوة وطمعًا!!

حتى غريب تظنه تخلى عنها فهي لا تصدق أبدًا أنه كان من الصعب عليه أن يطرق باب الغندور يومًا ليسأل عنها!!

لا أحد يلتف حولك إلا إن كان لديك ما يريد!!

حتى البط وأفراخه بعد أن انقطعت عن إطعامه زمنًا أصبحت تعلم أنه لن يقبل عليها إن وقفت على حافة البحيرة!!

ما عاد يعنيها أمر شيء ولا يربطها بالحياة شيء.

هي ككل هذه الوجوه تعمل وتأكل وتنام حتى يأتي يوم تنام فيه إلى موعد القيامة لتصحو وتسألهم جميعًا لماذا فعلوا بها هذا؟!

في ذاك اليوم لن يقوى أحد على الكذب، أمام الله لا يكذب أحد..

غدًا يوم إجازتها الأسبوعية، ادخرت في الشهر الماضي ما يكفيها لشراء كتاب جديد..

وحدها الكتب أصبحت الرفيق، رفيق كاذب تعلم كذبه فتخطو في أحشائه وأنت مطمئن الضمير قرير العين، صفحات تتجول معها لتقرأ أكاذيب منمقة عن الحب والسعادة وذاك الذي اسمه قيم وتلك التي اسمها مبادئ ثم تصل إلى صفحة النهاية لتلقيه بعيدًا وتعود إلى الأرض التي لا نهدأ عليها إلا لحظة نومنا تحت سطحها!!

كيف أصبحت عجوزًا في عام؟! كيف أصبحت مدرستها ورقصها وغناؤها كأنهم رفاق قرون بعيدة، كيف مات حنينها إلى كل شيء حتى ذراعي أمها!!

الخذلان لا يقتل في الروح روحها فحسب، بل تقسم أن الحياة بروح ميتة أسهل وأقوى من الحياة بأخرى حمقاء نابضة..

في هدوء صعدت درجات السلام التي تفصل غرفتها عن قاعة أشهر وأغلى مطاعم الجزيرة، دقائق ويبدأ موعد العمل.

حين استندت بأصابعها على باب المطعم وقفت عيناها لحظة على كفها، أصابعها متورمة من مساحيق تلميع الأواني الفضية لكن ما عادت حتى تهتم لأمرهم، اعتادت احمرارهم وتورمهم واعتادها ألمهم حتى يئس من الإلحاح عليها!!

منذ متى لم تنظر إليهم وتتفقدهم وتتحسسهم في إشفاق؟!

منذ أصبح النظر إليهم يذكرها بتلك الليالي التي قضتها في تحسس جبهته المحمومة ووضع كمادات الثلج عليها.

عمر الموت في حياتها قارب على العام!

أرخت رأسها وفتحت باب المطعم لتجد حركة غير معتادة، عمال كثيرون يحملون طاولات المطعم ويخرجون بها من الباب الخلفي له وآخرون يحملون "الجراند بيانو" من ركنه العتيد ويضعونه في ركن آخر..

لم تفهم وإن كان لا يعنيها أن تفهم، كل ما يعنيها أن تمارس عملها وتعود إلى غرفتها، على البعد لمحت رفيقة عملها الرقيقة وتقدمت نحوها لتقف إلى جوارها، وقالت هامسة في أذنيها "غدًا يوم بوسكيمي المعهود الذي تأخر بضعة شهور هذا العام"!

حين استوضحتها أخبرتها أنه في كل عام هناك يوم من أيام الربيع وفي إجازة المطعم الأسبوعية يتم إفراغ المطعم بأكمله من كل مقاعده وطاولاته لتترك فقط طاولة واحدة بالقرب من النافذة المطلة على النهر وهذا البيانو العملاق، أكملت تخبرها أنهم اليوم لن يعملوا وغدًا إجازتهم الأسبوعية هناك فقط ساقي واحد يأتي من المدينة القريبة ووحده يتولى تقديم الطعام والشراب إلى بوسكيمي وزائرها السنوي..

ضحكة صغيرة أطلقتها الشابة، وقالت:

- السيدة تقضي الليلة بأكملها في المطبخ لتعد ما تتناوله معه في الغد بيدها..

كانت تستمع في ذهول وهمست تسأل:

ـ هل هو حبيبها؟!

مالت الشابة على أذنيها تقول:

ـ عشيقها، يقضي ليلة الغد في فراشها، وبعد الغد ترتدي بدلة بيضاء، ليلة واحدة في العام ويوم واحد فيه ثم تعود إلى زيها المعتاد.. هيا بنا.. لا مكان لنا هنا!!

في ذهول سارت خلف رفيقتها، بوسكيمي لها حبيب، يزورها ليلة كل عام وترتدي ثوبًا أبيض.

جنون ما تسمعه وجنون أكبر أن تصدقه.

في الطريق إلى غرفتها خلعت المعطف الذي ترتديه فوق ثيابها حين تعمل، ستنام حتى الغد.

في ملل فتحت باب غرفتها لتنتفض أوصالها ويسقط معطفها عن ذراعها حين رأتها تجلس على حافة فراشها، وقالت في حزم:

ـ أخبروك النبأ؟

في تلعثم وهي لا تصدق أن بوسكيمي في غرفتها بعد عام بأكمله قالت:

ـ نعم، أخبروني أنه لا عمل اليوم، أو الغد في المطعم.

نهضت المرأة عن مكانها وتقدمت نحوها تقول:

ـ الرجل القادم ليس رجلاً عاديًّا! هل أخبروك من هو؟!

حين أصبحت أمامها استدارت وأمسكت بكفها بين أصابعها ومضت بها نحو خزانة الملابس وفتحتها تقول:

- أريني ما لديك من ثياب؟!

كانت كفها ترتجف بين أصابع بوسكيمي لكنها تركتها في هدوء وأرخت رأسها في خجل قائلة:

- ليس عندي سوى..

أغلقت الزائرة خزانة ملابسها وفي حزم قاطعتها:

- أنت من يتولى تقديم الطعام لي وللسيد "فيركال" غدًا، إن أسأت التصرف، أو إن خرج أحد أنفاسك عكس ما ينبغي تحزمين حقائبك وتلحقين بصديقك السارق، وإن أحسنت التصرف قد يكون لكِ شأن آخر..

لم تسمح لها بكلمة، بل اتجهت نحو باب الغرفة واستدارت ويدها على المقبض تقول:

- سير "بچاد فيركال" أكبر وأشهر موسيقى في أوروبا، نامي ملء جفنيك وفي الخامسة عصرًا تكونين في المطعم ترتدين الزي الذي يأتيك صباح الغد.

حين وصوله في الثامنة وحتى يغادر باب المطعم في الحادية عشر مساء أريني ماذا تصنعين وتذكري أن في هذه الساعات الثلاث إما رحيلك، أو مولدك من جديد!!

كانـت تقف أمامهـا في ذهول كأنها تغرق في فيضـان ما ألقته المرأة في أذنيها ولـم تجد ما تقول سوى أنها بصوت مرتعش كسير قالت:

ـ للسـقاة فن وآداب أنا لا أعرفها.. أخشـى أن أفسـد الليلـة، أو أثير غضب الزائر.

كان صوتهـا يتلـون بالدمـع والخـوف وأكملـت والسـيدة ما زالت تمسك بمقبض الباب تقول:

ـ لا مكان لي سوى هنا ولا أعرف أين أذهب، بل لا أريد أن أخرج، أعمل لديك بالمجان سيدة بوسكيمي فقط لا..

دون نظرة إشـفاق واحدة تقدمت السـيدة نحوها وأمسكت بذراعها لتكمل في إنجليزيتها قائلة:

ـ لا أحد بإمكانه أن يُفسـد قدوم الأسطورة السنوي إلى لامبادوزا.. كبير سـقاة فندق "كيمبينسكي" هنا كعادته، إن رأيتني أرفع يدي اليمنى لـكِ في أي لحظـة تطلبين منه أن يُكمـل ما بدأته وتحضريـن هنا لحزم أشيائك وتخرجين قبل أن يأتي الصباح.

ابتلعـت دمعها في ألـم، لـن تتذلل لها أكثر، هي امرأة لا قلب لها ولا روح فيها.

أرخت السيدة رأسها، وقالت:

ـ سـأخبر الساقي أنك سـتمضين الليلة معه في مكتبي وسأطلب منه أن يُعلّمك.. اسأليه ما شئت، هو معك حتى الفجر..

شـيء كالأمـل في صدر الصغيرة المذبوح وشـيء كالابتسـامة التي مـا عادت تذكر ملامحها بـدأ يهب على ملامحها وقبـل أن تنبس حرفًا عادت بوسكيمي ترفع كفها الأيمن وتقول:

ـ إن رأيتني أفعل هذه الحركة تنسـحبين فـي صمت ولا أراكِ بعدها أبد الدهر!!

***

مـا عاد يحتمل ما تفعله، ما عاد يحتمل أبدًا هذه النظرة الحقيرة التي ترميه بها في كل مرة تطلب مبلغًا كبيرًا من المال، أو تسجيل قطعة أرض باسمها.

يشـعر أنه يختنق، أخبر والده أنه وحده المسـئول عن عدم الإنجاب وأن خديجة تخلو من العيوب..

ثلاثة شـهور قضياها فـي "أوروبا" يجوبان المستشـفيات وعيادات الأطباء.

أخبـره الطبيـب الأخيـر ألا أمـل، هنـاك رجـال يمكـن اسـتخراج الحيوانـات المنويـة مـن أعضائهم التناسـلية لكن دون الرجـال جميعًا فريد الغندور رصيده منها صفر.

حين أعلن أنه كره خديجة، كرهها رغم الحب القديم، كرهها ؛ لأنها حين أصبحت منه أقوى أصبحت عليه بكل شيء تَمُن.

لا حاجة له بها وأصبحت في غنى عن كل حاجة هي ووالداها، يريد أن يطلقهـا، يريـد أن يتخلـص من هذه النظـرة التي يراها فـي عينيها إن اقتـرب منها، أو ابتعد، لكن الغندور الكبير أقسـم عليه ألا يفعل، أخبره أن نظرتهـا له ليسـت الألـم، الألم الحقيقـي لهما معًا هـو أن تفتح هذه الأفعى فمها وتخبر الناس بالأمر.

خديجة يخرسها الفتات، وهم في قمامتهم منه الكثير.. هي امرأة تفرغ فيها شهوتك إن اشتهيت وهي المسكينة التي تشفق عليها من الطلاق لعجزها عن الإنجاب كما نخبر الناس وهي أيضًا ابنة خالك!!

أقسم عليه ألا يطلقها أبدًا في الوقت الحاضر لكنه لا يحتمل.

يعلم أن والديه يموتان ألمًا.

انقطع الأمل في استمرار الغنادرة.

إن مات هو ومات والده ورثت خديجة وأهلها كل شيء.

أشاح برأسه بعيدًا، وهو يخطو في الشارع الضيق، يتظاهر أنه يسير على غير هدى لكنه يعلم إلى أين يذهب وفي أي موضع يضع قدميه.

يريد أن يصل إلى المسجد الذي يؤم فيه الغريب المصلين، ما زال الغريب وحده آخر آماله في الوصول إلى يسر.. وحده حبيبها ووحدها الآن من الغنادرة.

وحدها من أصبح بإمكانها أن تلد الغندور الأخير، وإن كان من ظهر غير ظهورهم.

أهي عدالة السماء؟!

أن يشقى بحبها وبعجزه وبانتظار ظهورها.

هل تظهر أم أنها ذابت وماتت كحلمه في أن يكون رجلاً يضع في أحشاء امرأة بذرة تُبقي على عائلة أطاحت رؤوسًا لتبقى ويبقى اسمها مدى الدهر!!

حين أصبح على باب المسجد يقف رأى الغريب بلحيته البيضاء التي أطلقها يجلس على الأرض وأمامه مصحف كبير.

خلع حذاءه ودخل ليجلس إلى جواره، حين رفع الغريب عينيه ورآه ما استطاع أبدًا أن يختار كلماته، ما استطاع أبدًا أن يحتفظ بقناع الغنادرة، بل وضع يده على المصحف، وقال كأنه ينهار:

ـ وحق هذا الكتاب أريد إعادة كل شيء إلى يسر علَّ الله يغفر لي، وحق هذا الكتاب إن كنت تعرف عنها شيئًا أخبرني.

من خلف طبقة كثيفة من الدمع تكونت على جفنيه قال الغريب:

ـ وحق رب الكتاب لو أني أعلم عنها شيئًا، لو أني أطمئن عليها لأغمضت عيني ورأيت ولدي!!

* * *

يعشق شوارع "ليجولاند" الدانماركية..

هذه المدينة التي يزورها منذ شهور وأصبح يقضي فيها جميع أيام عطلاته..

كل ما في المدينة على شكل قطع "الليجو" الشهيرة حتى شارات المرور، يومًا كان يحلم هو ومها بأن يشتريا كل أنواعها وأحجامها لطفلهم القادم ليبني منها قلاعًا وبيوتًا وسيارات..

انقبض صدره وهو يتذكر زوجته وذاك الذي كان يومًا يتكون داخل أحشائها..

أين يهرب من الذكرى، إلى ذكرى يسر؟!

توقف عزيز عن السير وجلس على أقرب مقعد خشبي له ألوان مكعبات "الليجو" وارتمى عليه..

عام منذ سرق نقودها وهرب..

هرب منها في اللحظة التي علم فيها علم اليقين أنها تحبه ويحبها..

في اللحظات القليلة التي كان يفيق فيها من تلك الحمى كان يراها وهي تسقط من الإعياء برأسها على صدرها وما زالت كمادات الماء البارد بين أصابعها..

حيـن علم أنها باعت قرط أمها لعلاجه، حين شـعر بجسـده يصحو وهي تمر بأناملها على جبهته..

يوم علا دبيب قلبه، وهي تضمه باكية وتهمس "كدت أفقدك"، حين تمنى وهو ما زال نصف محموم لو يقبّلها ويأخذها ويذوب في عروق جسدها أدرك أنه يجب أن يرحل!!

أكان يجب أن يسرقها؟! كان أضعف من أن يبحث عن عمل يوفر به مصاريف التنقل حتى الوصول إلى الدانمارك..

أكرمه وليد، أكرمه الصديق القديم، وبالأمس استخرج له إقامة عمل حين جعل منه شريكًا صوريًا معه..

أحبته زوجته وأحبها عزيز وأحب الحياة في هذا البلد.. حياة هادئة ميتة رتيبة عاد فيها رجلاً بلا رجولة، عاد عزيز كما كان قبل هربه من مصر لا شيء ينبض فيه حتى ألم ركبتيه..

كل يوم يفتح فيه عينيه يتمنى لو يرسل إلى يسر أضعاف ما سرقه منها..

كل صباح كهذا الصباح لا يعمل فيه يتمنى لو يضع نفسه في قطار ويذهب إلى رؤيتها ويتمنى لو يأخذها لتعالج أصابعها إن كانت ما زالت متورمة..

لكن إن فعل يعود إلى الحياة، إن رآها يصحو فيه الرجل وينبض فيه القلب..

يريد أن يكمل ما بقي من حياته ميتًا ويريدها أن تكرهه لتحيا..

هي أجمل وأنقى من أن يلوثها رجل له ماضيه..

هو يدخر من نقوده نقودًا ويومًا يبحث عن أمها، أو يذهب إلى مصر ويستخرج لغريب تأشيرة ويطلب منه زيارتها..

هذا ما قد يسعد يُسر وهذا وحده ما قد يجعله يصفح عن نفسه..

أغمض عينيه ورآها وهي ترقص على أطراف البحيرة.. سكتت كل أبواق السيارات وعلا صوتها في أذنيه يوم كانت في اليم تغني..

عشقها ربما أكثر من عشقه لزوجته..

عشق يعود بك إلى الحياة بعد موت طويل هو أكبر وأعمق من عشق كنت تحيا به يومًا..

لِمَ تنتصب في رأسه اليوم أكثر من كل أيام العام الماضي؟!

مصلوب هو بين امرأتين قتل إحداهما وسرق الأخرى..

مصلوب هو بين شوقه إلى امرأة ماتت هربًا منه وأخرى يموت هو شوقًا إليها وخجلاً منها..

***

رجـل واحد فقـط دون رجـال الأرض جميعًا هو من يسـتطيع بكل بسـاطة أن يمـد يده ودون أن يشـعر إلى صـدر امرأة ويخـرج منه بامرأة أخرى لا يعرفها أحد حتى ذات المرأة نفسها!!

هو ذاك الذي تعشقه المرأة بصدق!!

كادت تشـهق، بـل كادت تصيـح حيـن خرجـت تحمل علـى يدها اليمنى كوبي الكريستال على صينية الماء إلى بوسكيمي وزائرها..

كادت يسر تتعثر وتقع إلا أنها ابتعلت شهقتها وتقدمت في خطوات هادئة منتظمة تمامًا كما علمها الساقي الإيطالي ليلة الأمس..

ليسـت هذه المـرأة أبدًا التي تعرفهـا، هي امرأة أخـرى خرجت من حيث لا أحد يعلم..

امرأة أصغر وأجمل وأيضًا تبتسم.

هل يفعل العشق هذا؟!

أرخـت عينيها في هدوء لتضع كوبَي الماء أمامهما، وتعود بخطوتها إلى الخلف دون أن تسـتدير وتقف فـي مكانها كأنها أحد تماثيل "مدام توسو"!!

أخبرها الساقي أن تقف هناك دون أن يهتز لها جفن ولا تتحرك إلا لتملأ ما ينقص من الأكواب إن شربوا منها، أو إن أشار لها أحدهما وطلب شرابًا أو طعامًا!!

"لا تنظري إلى وجوههم، لا تصدري صوتًا، إن حدث وأتاك سعال، أو عطاس ابتلعيه وإن لم تستطيعي تعودين بظهرك كجنود قصر باكنجهام وتحزمين أشياءك وترحلين لأكمل أنا الليلة"!

تكتم سعالها وروحها ولا تتركهم، هي فقط تريد أن ترى الرجل الذي فعل هذا ببوسكيمي، تريد فقط أن ترى ملامحه..

كان ظهره لها، كل ما تراه منه شعره المجعد الذي يصل إلى نهاية عنقه..

بعيدًا عن مشاعرها تجاه سيدتها تمنت بصدق لو يبقى زائرها معها العمر كله..

كأن وجهها وحده من يضيء أركان المطعم، كأن ابتسامتها هي التي ترقص على أنغامها الشمعات الصغيرة المتناثرة في المكان..

حقًا هناك رجال رفقتها تحيي، ورجال رفقتها تقتل النساء!!

بعد دقائق من انتصابة ظهرها وأكتافها بدأت تهدأ ويهدأ جسدها، بدأت تتجول بعينيها في أركان المطعم دون خوف..

بوسكيمي لا تراها، هي لا تسمع، أو ترى شيئًا سوى همساته لها..

كانت على البعد ترى أصابعه وهي بين حين وآخر تعود بخصلات شعر رفيقته إلى الخلف، أو تراه يميل ويضع قبلة على عنقها ثم يعود إلى احتساء رشفة ماء كأنه يشرب لترتوي وتتورد أكثر..

بعد أكثر من نصف ساعة رفعت بوسكيمي أصابعها لتتقدم في هدوء وتعود بخطواتها إلى الخلف وتعود بعد برهة من الوقت تحمل صحني الطعام اللذين أعدهما الساقي لها..

من خلف ظهر المرأة وضعت الصحن الأول ورفعت رأسها لحظة تسترق نظرة إلى وجهه.

لم يكن ينظر إليها، بل كان يمسك بكف صديقته وضحك مهللاً بما يراه في صحنها.

أرخت رأسها بسرعة والتفت لتضع أمامه الصحن الآخر وتعود إلى حيث كانت..

ما رأته منه يكفيها..

هذا العبقري الذي خلق امرأة من وحش أصغر منها، هو في نهاية الأربعين وسيم ويبتسم!!

هل تراه مثل رفيقته وحشًا في باقي أيام العام ووجدها من صنعت منه الليلة هذا الطفل الضاحك؟!

وإن كان وكانت لم لا يتزوجان، أو حتى يحييان معًا؟!

من يكتفي بسـعادة يـوم وهو يملك أن يكون سـعيدًا باقـي الأيام؟!
لكن من قال إنهما حقًّا يملكان؟!

حيـن انتهيا من طعامهمـا وحين حملت عنهمـا صحونهما وعادت تنتظـر شـارة تقديم الحلويات رأت بوسـكيمي تميل علـى أذني زائرها وتخبـره شـيئًا وبعـد أن أجابها رفعـت أصابعها إلى يسـر لتتقدم نحوها وتسمعها تقول:

ـ أخبرنـي السـيد "ألتـرو" أن لكِ صوتًا جميلاً حيـن كنت تغنين في المعسكر، أسمعينا شيئًا.

لـم تكـن أبدًا تتوقع شـيئًا كهذا، ولكـن ألهذا اختارتهـا، لتقوم بدور الساقي والمطرب!!

أرخت رأسها في هدوء وهمست تسألها إن كان بإمكانها أن تجلس إلـى البيانـو وكأن بوسـكيمي القديمة عـادت، في غضب نظـرت إليها كأنها تخبرها أن البيانو تم نقله وتنظيفه هذه الليلة فقط لأمير الليلة لكن وللمرة الأولى رفع الزائر وجهه ينظر إليها، وقال:

ـ تعزفين أيضًا؟!

قبل أن تجيب أشـار بيده إليها أن تذهب وذهبت، جلسـت في تردد وما زالـت عيناها تنتظر موافقة بوسـكيمي كأنها جـرو صغير لا ينفذ إلا تعليمات مالكه.

لم تستدر إليها، بل في مكانها كانت باقية ورجلها يقف خلف مقعدها واضعًا كلتا ذراعيه حولها وهو يرقب الشابة في ابتسامة هادئة لا تخلو من السخرية!!

غنت تلك الأغنية التي غنتها في حفل المدرسة، وما أن ارتفع صوتها بعد ثوان تسأل "لماذا لا نكون أصدقاء" حتى رأت بعينيها كيف غابت السخرية من ملامح الرجل وكيف اعتدلت السيدة تنظر إليها في ذهول..

حين انتهت لم يبتسم أحدهما ولم يصفق لها كف أي منهما، من مكانه وكفاه ما زالتا تتحسسان عنق خليلته وشعرها سألها وهو يملأ عينيه منها كأنه الآن فقط رآها:

ـ من أي بلد أنتِ؟!

حين قالت "مصر" رأت يده تقف عن رحلتها في رأس السيدة، رأته هو أيضًا يتقدم نحوها كأنه يزحف على صخور من ألم، حين أصبح أمامها نهضت عن مقعدها لتسمعه يقول في لغة عربية لها لكنة لم تفهمها:

ـ غنّي بالعربية!

في حيرة نظرت إليه وفي هدوء وضع كفه على كتفها، وقال:

ـ أرجوكِ!

تلـك الأغنية التي كانت أوليجا تغنيها بعـد أن تعلمت العربية، تلك الأغنيـة التـي حفظـت كلماتها وهـي طفلة فقـط لتتذكرهـا عندما تكبر وتفهم معانيها، لا شيء سواها يطن في أذنيها.

أشار لها بالجلوس أمام البيانو من جديد وعاد يهمس:

ـ أرجوكِ!

لا تعرف موسيقاها لكنها نقرت في هدوء بما يشبه موسيقى الرحبانية وفي لحظات كانت تقول:

سنرجع يومًا إلى حينـــــا ونغرق في دافئات المنـى..

سنرجع مهما يمر الزمـــان وتنأى المسافات ما بيننـا..

سنرجع.. خبرني العندليب غداة التقينا على منحنـــــى

بأن البلابـل لـــم تـــزل هنـاك تعيش بأشـــعارنا..

فيا قلب مهلاً ولا ترتمـــي علـى درب عودتـــنـــا!!

سنرجع.. ما زال هناك مكان لنا!!

حين تلون صوتها بالآهـة الفيروزية الطويلة رأته يتقدم خلف البيانو لتنهض وتترك له مقعدها..

فـي لحظـات كان الرجل يعـزف كأنه هـو الآخر من كتـب الحكايا جاء..

عزف لحـن أغنية فيروز وحين حاولت أن تخطو أمسـك بكفها بين أحـد كفيـه يرجوها أن تغني، أكملت وحيـن قالت "يا قلـب مهلاً ولا

ترتمي على درب عودتنا" رأت أصابعه تطير من جديد ويعيد اللحن من بدايته لتعيد غناءها أكثر من أربع مرات، نهضت بوسكيمي بعدها ترقبهم في ذهول..

حين أنهى كل منهما ما يفعله، كان وجهه بالدمع مغسولاً، وحين رأى لهفة حبيبته وحيرتها قال في الإنجليزية كأنه يريد يُسْر أن تفهم:

ـ لا شيء إليزابيتا لا شيء كالغناء عن الوطن وإن لفظنا أو قتلنا!!

* * *

لا شـيء يطفئ شـموع الحب ويقتل توهجه فـي لحظة إلا الحديث عن النقود وإبرام الصفقات!!

في لحظة ما عادا عاشقين، في لحظة أمسك فيركال بيد يُسْر وأجلسها على مائدتهم، وقال في إنجليزيته:

ـ أعلـم فيما تفكرين إليز وأعلم أنك على صـواب، إن أنتِ ألحقتها بالغناء في مطعمك تحققين أرباحًا هائلة، لكن ستسـتغرقين وقتًا طويلاً في استخراج أوراق رسمية لها، أنا أفعلها في شهور..

غابت كل ملامح العشق عن وجه بوسكيمي وهي تستمع إليه، أرادت فقط أن تُمتعه لكن لو كانت تعلم أن صوت هذه الجنية من السـماء قادم ما فعلتها لكنه على حق، سيدربها ويجعل منها شيئًا آخر..

في هدوء قالت:

ـ ألا تسألها رأيها؟!

دون حتى أن تستدير إلى الشابة أكمل يقول:

ـ موافقتكِ أولاً، أنتِ من قدمتها لي وأنتِ الباقية معي!!

حيـن أعلنت موافقتها، اسـتدار يحدث يسـر بعربيتـه التي ما عرفت أبدًا مسقط رأسها، أخبرها أنه سيأخذها إلى المدينة، سيجعل منها امرأة

ثرية، فنانة يأتي العالم للاستماع لها، أخبرها أنه سيمنحها أجرًا شهريًّا كبيرًا، وأنها ستقيم في جناح خاص في بيته الكبير..

كانت تستمع إليه في ذهول، أخبرته أنها لا تريد أن تصبح شيئًا كبيرًا، ماتت بداخلها كل الأشياء..

أخبرته أيضًا أن كل ما تريده هو الوصول إلى أمها..

من خلف دمعة طفت على عينيها، وفي طفولتها التي ما زالت رغم كل ما مرت به تسكنها أخبرته أنها تريد قرط أمها وفي لحظة أمسك فيركال بكفها في قسوة، وقال في حزم وحدة:

ـ اسمعي أيتها الصغيرة، الله لا يمنح المواهب الكبيرة للضعفاء واليائسين..

يلقيها الله في أقلامهم وأصواتهم وعقولهم ليساعدوا بها بؤساء الأرض وإن كانوا هم أكثر منهم بؤسًا وشقاء!!

هذا الصوت ليس ملكًا لك، الموسيقى التي يلهمني إياها الله ليست ملكًا لي، الروايات التي تبقى بعد رحيل كتَّابها لم تكن من صنعهم..

هي رسائل لتضميد الجراح، هي عود ثقاب لإشعال المصابيح في عتمة الدروب.

ليس خيارًا، بل هي رسالة واختبار، ما أتيتِ من مصر إلى إيطاليا عبثًا وأنا ما هربت من الجزائر جزافًا..

هل تفهمين؟!!

* * *

دونما أدنى اكتراث وفي قسوة كبيرة نظر إليها، وقال:

ـ هي اختيارك!! هي من أرضعته حبها قسرًا، لو أنه تزوج أخرى لكان لديك حفيد.

في جنون رفعت قدرية عينيها الغاضبة عن صحن طعامها وألقت نظرة على وجه ولدها وزوجته وصاحت تخبره أن ابنة أخيها كولده لا عيب فيها وأنهما فقط بحاجة إلى بعض العلاجات، أو ربما التعويذات.

وقفت على وجه خديجة الذي اعتادوا جميعًا شحوبه وجموده منذ أعوام وهي تصيح:

ـ لا أفهمك فريد ولا أفهمها، إن كان الطب يقول لا عيب ماذا ننتظر ولماذا نرفض بعض الآيات أو التعويذات؟! ماذا تنتظران بعد خمسة أعوام؟!

نهضت الزوجة الشابة عن مقعدها في سكون ككل مرة تثير فيها عمتها القصة وصعدت إلى غرفتها لتكمل الأم صياحها وتأمر ولدها بالتدخل، وعندها صاح الغندور الكبير:

ـ لو أنها يسر لربما كانت حاملاً، لو أنك ما أشعت في نفسها الخوف والرعب ما هربت ولكان لديه الآن زوجتان، إن لم تنجب إحداهما أنجبت الأخرى..

ما عادت قدرية تحتمل هذه الكلمات وما عادت أيضًا تحتمل مرور الأعوام وولدها لا ينجب، باتت تكره خديجة لرفضها كل الوصفات التي تؤكد لها النساء فعاليتها..

الحمقاء تخاف على نفسها من وصفاتهم، أصبح كل ما يهمها جمع النقود والبيت الذي كتبه الغندور لأبيها.

خمس سنوات، وهي تتظاهر بالرضا؛ لأن المال والبيت من نصيب أخيها لكنها اليوم لا تستطيع.

بيدها دقت على المائدة التي يجلسون عليها، وصاحت كأنها تريد أن يصل صوتها إلى من انسحبت في سكون، كانت تئن من تقريع زوجها، تئن من انكسار وحيدها، تئن من جمود زوجته، تئن من نظرات وأسئلة نساء وخادمات وحتى رجال البلدة.

صاحت تقول:

ـ أقسم عليك برأس أمك وأبيك أن تتزوج، اختر أي فتاة أخرى وإن قبلت ابنة أخي بقيت وإن لم تقبل فلتذهب وكفاها ما جمعته خمسة أعوام.

كانت ترتجف رغم صوتها الهادر، كانت تنتفض مع غضبها العاصف.

لم تنتظر لحظة أخرى، لم تنتظر كلمة من أحدهم، بل أسرعت إلى سلالم البيت تصعد إلى غرفة خديجة.

حين دفعت الباب الذي كان شبه مفتوح بكفيها رأت خديجة تقف في منتصف الغرفة تنظر إليها في تحدٍّ كبير.. تحدٍّ تراه قدرية ولا تفهمه، دومًا تُكذِّب عينيها فيه، وتختار له عنوانًا آخر لكن الآن وبعد أن قطعت هذا الشوط الكبير في تعبيرها عن غضبها لا تراجع.

قبل أن تجد ما تقول أشاحت خديجة بوجهها بعيدًا وسارت لتجلس على حافة فراشها تنظر إلى أصابع كفيها التي شبكتهما معًا لتقاسمها حيرة الأعوام الخمسة.

الغندور يُذلها، يتعمد القسوة في كلماته؛ لأنه يعلم أنها تقبض الثمن، تراه يراهن بحياته على صمتها ولا يعلم أنها ما عادت بالنقود ولا بحياتها تهتم.

ما عادت سعادة أبيها بالبيت تعنيها ولا زهو أمها بجدرانه وغرفه يكفيها، ما عاد أبدًا يعنيها أن آلافًا من الجنيهات باسمها وهي التي ما كانت على بضعة منها تحتكم.

عندما يضعون الأرض والسماء في كفة ميزان ترجح أبدًا الكفة الأخرى إن كتبوا عليها كلمة "أم"!!

انطلقت صرخة حبيسة من صدرها رغمًا عنها، تشتهي طفلاً، تشتهي أن تنتفخ أحشاءها وتتحسسها، تشتهي عينين حمراوين لا تنام

مـن صراخ رضيع وبكائه، تشتهي ما لا تشتريه ثروة الغنـدور ولا جاه بيت بالحرمان لوالديها اشترته.

صاحـت صيحة كبيرة محمَّلة بـكل زيف الجمود الذي على وجهها أعوامًا رسـمته، صيحة مخلوطة بدم كبريائها المسفوك على قدمى فريد في كل مرة يأخذها إليه رغم أنه ورغم أنها يعلمان ألا فائدة ولا أمل من لقائهما يرجى أو ينتظر.

فـي لحظـة مـدت يدها إلـى صدرهـا تشـق ثوبها عنهـا كأنهـا تريد التخلـص من مـرار الأعوام التي فـي الصمت معهم عاشـتها.. لم يكن صياحًا، بل هي صيحة واحدة عالية جريحة جعلت قدرية تنظر إليها في ذهـول، وخلفها كان الغنـدور وولده يركضان نحـو الغرفة على صوت ممزق حاد كأنه من الجحيم يستغيث!!

حين وصلا، حين رأيا صدر خديجة عار من ثوبها الذي شـقته عنها سمعوها جميعًا تصيح:

ـ طلقني، لا أريد شيئًا، أريد فقط أن أكون أمًّا.

استدارت تنظر إلى وجه عمتها الغائم، وأكملت تقول:

ـ ولدك عقيم يا عمتي، عقيم..

لـم ينتظـر لحظة أخـرى، بل غـادر الغرفة بعـد أن ألقـى عليها يمين الطلاق كأنه هو الآخر يتحرر من قيد ما بات عليه يقوى..

كانت تصيح وتبكي وتضحك بعد أن سمعت يمين طلاقها، وكانت الأم فـي ذهـول صدمتهـا غارقـة، وحده الغنـدور الكبير تقـدم نحو من

كانـت منذ لحظات زوجة وحيده وأمسـك بأطراف ثوبها الممزق بأحد كفيه في قسوة وأمسك بوجهها بالكف الآخر في قسوة أكبر قائلاً:

ـ حسنًا فعلت بتمزيقك ثيابًا ليست لك، عودي إلى أرضك وثيابك، عودي إلى مكانك فأنتِ لا تنتمين لنا ولن تفعلي، أحذرك، بل أعلمك، لن يتزوجك رجل من هذه البلدة، ستبقين محرمة على رجال المحافظة بأكملها، سرقت الغنادرة خديجة لكن لن تذليهم أبدًا!!

* * *

ترددت لحظات قبل أن تفتح المظروف الذي وقَّعت على استلامه، لا أحد تعرفه في الدانمارك لكنه باسمها، وعليه عنوان مطعمها.

حين فتحته وجدت ظرفين على أحدهما اسمها والآخر مكتظ بأوراق نقدية قامت بعدّها في ذهول وحين فتحت الآخر علمت مصدره..

هو من ذاك العزيز السارق يرجوها أن تقبل اعتذاره وتمنح يسر النقود.

أطلقت بوسكيمي ضحكة صغيرة مريرة، ومالت بجسدها لتغوص في مقعدها.

أربعة أعوام منذ خرجت يسر مع فيركال، زارها فيهم ثلاثًا من زياراته السنوية، وأخبرها في الأخيرة أنه وبعد شهور يرسل لها دعوة لحضور حفل يقيمه وتشارك فيه يسر، أخبرها أنها بعد أربع سنوات من الإعداد والتدريب آن أوان خروجها للناس.

بعد تنهيدة صغيرة أخرجت ورقة كتبت عليها سطورًا، وجمعت كل ما وجدته في المظروف الآخر لتضع معه الورقة في ظرف آخر كبير واستدعت أحد عمال المطعم، وقالت في حدة:

ـ إلى البريد فورًا على أن يدفع المستلم ثمن الرسالة.

***

سيد عزيز:

أحمق من يظن أن ضميره يستيقظ بعد خمسة أعوام من النوم..

الضمائر لا تنام لتستيقظ وإن أعيتهما صحوتها يومًا تغفو لحظات لتجلدنا بعدها في قسوة!!

نحن إما بضمير حي لا يغفو نحيا، أو بضمير ميت نبقى حتى نموت!!

ضَحيتكُ التي سرقتها ما عاد لها وجود هنا منذ أربعة أعوام..

هل اشتقتَ إليها؟! أم تراك تريد منها شيئًا ثمنه أكبر من ألفي يورو؟!

وكيف أصبح لسارق مثلك أن يضع مبلغًا كهذا في مظروف ويرسله إلا إن كان بضمير ميت جمعهم؟!

لا تدع ضميرك يخدعك..

هو ميت وفي مكاني هذا لا أرحب برسائل الموتى!!

إن أرسلت رسالة أو فكرت بالوقوف على باب مطعمي أستدعي لك الشرطة وأعيدك إلى بلاد تحيون فيها بضمائر ميتة وصدور عمياء!!

إليزابيتا بوسكيمي

***

آه من انتظار باب لا يدق ورنين هاتف لا يأتي.

ألف آه من التوسل إلى موت آتٍ لقليل من الانتظار..

أصبح الهاتف المحمول في كل يد وفي ثنايا كل جلباب، ورغم هذا مع كل رنة تأتي من حوله ينتفض قلب غريب ويمسك بهاتفه الذي لا يفارقه علَّ الرنين منه يأتي..

خمسة أعوام لم يرن فيه الهاتف الرنة التي يحلم بها!!

خمسة أعوام ما أقام صلاة ولا أنهاها إلا وهو يدعو الله أن يأتيه صوتها ولو مرة واحدة.

أكرمه الموت بالانتظار، لكن بدأ اليأس في نسج خيوطه حول قلبه العجوز وروحه التي غاب عنها كل من كانت بهم ولهم تتنفس..

يُسر ماتت كما مات عبدالرحمن وأمه..

فليعلنها وليمسك بهذا الهاتف اللعين، ويقذف به في قلب البحر لتتلقفه شباك الصيادين، أو يسكن جوف سمكة!!

في تثاقل نهض عن الصخرة التي كان يجلس عليها أمام البحر، وأخرج كفه من جيبه بالهاتف الذي لا يدق..

رفـع ذراعه بـه كأنه يهم حقًّـا بقذفه إلى البحر لكـن تيبس ذراعه في الهواء..

عدونا هو وصديقنا اللدود!!

هل يلقيه في البحر؟! أبعد بكاء وصلاة ودعاء يعلن يأسـه من رحمة الله؟!

أرخى ذراعه في سكون ورفع وجهه إلى السماء يستغفر خالقها..

هرم غريب فوق هرمه، رغم السـكينة والضوء الأبيض المريح الذي أصبح أكثر إشراقًا من وجهه ولحيته البيضاء لكن السكينة لا تشفع..

هَرِم الغريب وهَرِم الأمل في صدره حتى يكاد يراه في النزع الأخير!!

حين اسـتدار يخطو على رمال الشـاطئ في طريـق عودته إلى بلدته ومسجده استعدادًا لصلاة الظهر شعر بشيء في ثيابه يتحرك..

صدره لا يحتمل وروحه أيضًا لا تحتمل..

لحظـات كأنـه فيها يتحقق أنه مـا جُنَّ، لحظات أخـرج بعدها هاتفه الذي كان ومنذ شهور لا يدق..

هو اتصال خاطئ ككل المرات المتباعدة لكن عليه أن يجيب..

في خوف فتح الخط، وقبل أن يقل كلمة سمع صوتها تصيح:

ـ غريب؟! وصلت أرض مصر منذ لحظات أين أنت؟!

أين هي يسر؟ غريب هل تسمعني؟!

* * *

فتح باب التراس الكبير الذي يطل على بحيرة "كومو"، في هدوء وجلس على أحد المقاعد الوثيرة، وككل المرات رفع ساقيه يضعهما على سور التراس المنحوت في أناقة معمارية لا مثيل لها..

لا يستطيع أبدًا أن يمنع عينيه عن الغوص في ماء البحيرة الأزرق.. دار بعينيه إلى الخلف وابتسم في مرارة، بعض السياح يمرون بالقوارب في ماء البحيرة لالتقاط الصور لمنزله المنحوت في الجبال الخضراء من الخلف، وترقد عواميد واجهته الأمامية داخل البحيرة..

لا يظن الجنة أجمل!!

ثلاثة ملايين من اليوروهات دفعها ثمنًا لهذا البيت، رحم الله أباه لو أخبروه يومًا أن ذاك البائس الصغير يشتري يومًا بيتًا بهذه الملايين لمات قبل موته..

بيته ملاصق لبيت "جياني فيرساتشي" و "دومنيكو دولتشي" حيث تقف قوارب السياح لالتقاط الصور لبيته وبيوتهما ليس فقط لجمال البيوت، بل لشهرة سكانها!!

إيطاليا منحته الشهرة وملايين اليوروهات، أصبح حلمًا وقصة، بل أصبح أسطورة الموسيقى والأوركسترا، أصبح في كل حين له ليلة مع امرأة ما تنتظره، امرأة يصدق بين ذراعيها تصفيق جمهوره وانتفاضة

من يطلبون معه صورة، يحيا مع جسدها رعشة الأمل فيمن يحادثونه يطلبون حديثًا صحفيًّا، أو مقابلة تليفزيونية، ورغم هذا ما زال يشعر أنه طائر سنونو حائر كلما جلس على مقعده هذا أمام بحيرة "كومو"..

نساء تبقى أعوامًا، ونساء تتبدل كل عام، وهذا البركان الكبير بداخله لا يهدأ يومًا أو ينام!!

لماذا نحب أوطاننا رغم بخلها علينا، ووأدها لنا؟!

لماذا نشتاق إليها إلى هذا الحد، ونحن غاضبون منها فوق كل حد؟!

لأن الوطن كالأم يقتلك أن تكتشف قسوتها، ورغم هذا يبقى فؤادك يهفو لها مهما أشحت عنها بوجهك، أو أعلنت أنك منها بريء..

كان والده من قيادات الصف الثاني في جبهة مقاومة الاحتلال الفرنسي في الجزائر، تعرض للتهديد والاعتقال والتعذيب، وفي كل مرة كان يغيب، يظنونه لن يعود، وحين يعود مثخنًا بجراح تعذيبه كان يقسم عليه أنهم إن مزقوه أشلاء يجمع أشلاءه ليقاوم من جديد.

كان بطلاً وجاء ابن البطل ليعاني كلاهما ككل الأبطال من الفقر والجحود، حين أعلن معلموه في المرحلة الابتدائية أن جهة ما يجب أن تحتضن موهبته الموسيقية التي لا تتكرر أجيالاً طويلة مات أبوه البطل ركضًا وبحثًا عن من يتبنى موهبة ولده، ويسمح له بالالتحاق بمدرسة متخصصة أو ينال منحة دراسية تكفل له دراسة الموسيقى، نسي الجميع كفاح البطل وحقه، تنكر المسئولون لتاريخه الكبير، وسقط الخنجر في صدر والده عندما انهار يومًا أمام ولده يخبره أن

الوطن الذي منحه هو الروح يبخل عليه بمنحة دراسية لولده ينالها أبناء المسئولين دون موهبة!

أنـت أبـدًا لا تحب أمـك أو وطنك ليطعموك، أو يسـقوك لكن أنت تجن إن علمت أنهم ينكرون عليك حق الطعام وشربة الماء!!

مات البطل من الحسرة، رغم أنه لم يمت من التعذيب والاعتقال.

مات مـن خيبة الأمل، ويوم أغلق بچاد عليه قبره أغلق حقيبته وجاء إلى إيطاليا، لم يسـتطع أبدًا أن يتوجه إلى فرنسا رغم أن معظم أصدقائه وأقاربه على أرضها يعيشون.. لم يستطع أبدًا أن يفعلها!

شعر أنه يخون والده، شعر أنه قد يتناول شطيرة خبز من ذراع ضابط فرنسي يومًا عذَّب أباه، أو أحرق منزل من قاوموه..

فتحـت له البلاد ذراعيها، بعد أول لقاء له مع مدير أوركسـترا روما، وعده بمنحة في معهد الموسيقى الإيطالي..

شهور وأيام وأعوام أصبح بعدها "فيركال" أسطورة الموسيقى..

لـو أن إيطاليـا ما قدمت له كل هذا لربما ما اشـتعل كل هذا الغضب بداخله من وطنه..

وطن المليون شهيد ليس أبدًا وطن أبنائهم من الأحياء!!

عشرون عامًا لم يزر وطنه زيارة واحدة!

في حفله الموسـيقى السـنوي تأتي الجالية الجزائرية، بل يدعو كثير مـن أعضـاء الجاليـات العربية للحضـور، يسـمع تصفيقهم فـي أذنيه،

تصفيق له رنة أخرى غير سواه، يطلبون السلام عليه والتقاط الصور معه، يتمنون عليه إقامة حفل في الجزائر لكنه يعتذر.

كان فيها ولفظته، كان فيها، وبخلت عليه فلِمَ اليوم تريده وتدعوه؟!

لكن ما زال هناك وريد في جسده ينتفض كلما ذكروا اسمها، ما زال شريان في قلبه يرتعش كلما سمع كلمة باللغة العربية.

لا يعرف كيف يتحرر أبدًا من إشكالية الحب والغضب التي تسكنه.. في مرات كثيرة اشترى تذاكر لزيارتها، كان يحلم أنه يغلق حقيبته ويركب الطائرة ليصل ويتجول في شوارع مدينة "عنابة"، التي يرقد فيها جثمان أبيه، يموت شوقًا إليها ويحيا غضبًا منها..

غاضب حانق لكنه عاشق مشتاق إلى ثراها!!

يوم غنت يسر منذ ما يقارب الأربعة أعوام أغنيتها في مطعم بوسكيمي استيقظت قبائل الشوق في دمه، وحين علم أنها مصرية أشهرت تلك القبائل سيوفها في وجهه وسقط..

سقط فيركال أسطورة الموسيقى صريعًا عندما غنت "سنرجع يومًا"!

ثلاثة أعوام ونصف وهي تقيم في الملحق الصغير لبيته، أعوام من دروس الموسيقى والصوتيات والأوبرا واللغة الإيطالية وهي مستسلمة لا تقاوم وهو بها يزداد تشبثًا وعليها ينفق ولمولدها يرتب ويعد..

لأنها عربية مثله!!

لأن يومًا والده أخبره عن حبه لمصر وحب مصر للجزائر وأبطالها؟!

أم لأنها كسيرة مهزومة رماها وطنها بين كفي بوسكيمي الذي يعلم قوتها وقسوتها حتى وهي تتأوه تحت جسده وبين ذراعيه!

أم لإيمانه بصوتها وهدير غنائها!!

أم لعقدة قديمة يخجل منها ويريد أن يثبت لها ولنفسه أن في بعض العرب خيرًا وأنه "العربي" الذي يمد يده بالعون إلى ضعيف لا يملك المقابل!!

لا يعلم، لكن منذ دخول يسر إلى قلعته يزداد إصرارًا على أن يعلن لنفسه وللعالم أن هناك معجزات تولد فقط بعيدًا عن بلاد العرب رغم أنها منهم وعلى أرضهم تكونت وولدت..

بلاد العرب!!

لماذا لا يحتضنها؟! لماذا لا يحنو عليها؟!

أكثر من ثلاثة أعوام يلتقيها يومًا واحدًا أسبوعيًّا، كأنه طبيب يتابع تطور حالة مريضه..

أصبحت تتحدث الإيطالية، أصبحت تعرف عن الموسيقى ما يقترب مما يعرفه هو لكن ما زالت وما زال كل منهما يجهل ما في رأس وقلب الآخر..

أخبرها أن الأسبوع القادم هو موعد ولادتها على مسرح "تياترو ألاسكالا"[1] بميلان.

حفظت ما ستقدمه حتى أنه يظنها تعرفه أكثر مما تعرف عن وطنها وأرضها!!

رغم هذا ما زال وما زالت تغنيه أمامه كل ليلة!!

جزائري ومصرية..

موسيقى وصوت يعلم أنه بعد انطلاقه لن يقف أمامه صوت إلا وانحنى له احترامًا وتقديرًا..

هل يريدها حقًّا أن تنجح أم أن كل ما يريده حقًّا أن يرى العالم كيف الأوطان تقتل وكيف الغرباء يحيون!!

أيًّا كان ما بداخله، وأيًّا كان ما بداخلها.. لها صوت يستحق أن يعلو وهناك أناس لطيبها تستحق أن تستمتع به..

سيعلن الرجل الإيطالي الجزائري على تياترو ألاسكالا للعالم أن الله ما زال يختص بلاد العرب بهبات من جناته!!

ابتسم وهو يراها في الحديقة تجلس على العشب، وإلى جوارها كلبه الضخم..

---

(1) يطلق عليه أيضًا تياترو لاسكالا

رفع ذراعه يلوح لها طالبًا منها الحضور، في هدوء نهضت، وهي تربت على رأس كلبه الذي تبعها إلى السلالم الجانبية ليصعدا معًا حيث يجلس.

ركض الكلب نحوه ليأخذه بين ذراعيه، ويحتضنه في شوق، بينما وقفت هي مكانها في سكون، حين اعتدل بمقعده، وجلست بعد أن منحها الإذن بذلك رفع رأسه ينظر إليها..

كبرت في الأعوام التي تقارب الأربعة، زاد طولها واستدار جسدها وشفيت أصابعها التي جاءت بها متورمة وبقيت تحت العلاج شهورًا.

وضع كفه على رأس كلبه يمسح عليه، وقال في عربيته التي تحب لكنتها وإن كانت تجد بعض الصعوبة في فهمها:

ـ الوقوف على خشبة "تياترو ألاسكالا" يختلف عن مسارح المدارس، هل أنتِ حقًّا مستعدة؟!

أومأت بالإيجاب، ورأى كلبه ينهض من تحت كفه ليذهب ويجلس تحت ذراعها الذي رفعته لتضمه إليها..

نهض عن مقعده في طريقه إلى الداخل قائلاً:

ـ تتوقف جميع البروفات في الأيام القادمة، تأتين معي ليلة العرض إلى ألاسكالا في بروفة نهائية.

انحنى على رأسها، وهمس:

ـ تغنيـن الأغنية التـي أعددناها، وإن نجحت وصفـق لك الجمهور كمـا صفق لـي لك أغنية تختارينهـا وتغنينها دون موسـيقى، ولك أيضًا عندي مفاجأة لا تحلمين بها.. اجتهدي، اجتهدي كثيرًا ولن تندمين!!

اسـتدارت خلفـه واقفة تنظـر إليه في دهشـة ما زالت تسـكنها رغم انقضاء الأعوام، في صوتها الهادئ قالت:

ـ سيد بچاد!!

حين اسـتدار ينظر إليها أرخت عينيها في خجل، لا تسـتطيع أبدًا أن تخبره ما يدور في صدرها..

أربعـة أعـوام تقريبًا تحيا معه في ذات البيت لكـن ما زال كيوم رأته، هو السيد وهي التلميذ..

ضحك ضحكة صغيرة، وقال في صخب مرير:

ـ لا تقولي شـيئًا، غدًا أذهب إلى "ميلان دوم" وأشتري لك ثوبًا من "فرساتشي" لترتديه يوم الحفل..

لا تتعجلي الألـم يسر، لا تتعجليه!!

***

ظنـت أنهـا تركض نحو السـلام، فإذا بهـا نحو حـرب ظالمة كانت تسرع الخطى!!

ظنت أن رحلتها مع الألم والشـقاء في نهايتها وإذا بها كانت تتعجل ألمًا أكبر وشقاء بلا حدود!!

أعاد عليها القصة عشرات المرات، وبعينيها رأت عشرات الدمعات تسقط على لحيته البيضاء الكثيفة وهو يخبرها بكل التفاصيل والظنون، وحين أعياه طول صمتها، وفي صوت باكٍ قال غريب:

ـ سـيدة أوليجـا، الغنـدور لا يعرف شـيئًا، فريد مـا زال يزورني بين الحيـن والآخر ظنًّا منه أني أعرف عنها شـيئًا، لكن أشـعر أنها بخير، إن كانـت حقًّا على تلـك المركب فلقد نجت، وإن هربـت فهي أيضًا بإذن الله بخير.. لـم تكن هي المرأة التي ماتت على المركب اللعين.

مضى عليها أكثر من ساعة منذ دخلت بيته ورأسها ملقى بين كتفيها، وهو يحكي ويعيد ويكرر، ما حركت رأسها ولا رفعت عينيها..

لـم تتغير كثيرًا السـيدة أوليجا لكنها ازدادت جمودًا وصلابة فقط لو يعرف كيف يجعلها تتحدث..

نهضت عن مقعدها، واتجهت نحو باب الغريب، تبعها يقول كلمات كثيرة لا يظنها تسمعها وحين سألها إلى أين.. وقفت واستدارت تنظر إليه وتخبره أنها إلى الغندور تذهب..

أمسك بذراعها، وأقسم عليها ألا تفعل، الغندور ليس في أفضل أحواله، منذ طلق ولده زوجته وهو يزداد صلافة وتعالٍ، خاصة بعد ما تردد عن عجز ولده عن الإنجاب..

لا شيء من زيارته ستجنيه سوى الألم، هم لا يعرفون شيئًا..

انتفضت، وهي تشعر بيده تمسك ذراعها وصوته يرجوها، وقالت:

ـ إن كان لا يعرف عنها شيئًا فليعرف أني أتألم، فليعلم أنه كان سببًا في قتل عصمت حين تركه نصف رجل فقط لكي يتخلص منه.

صاحت تخبره أن الغندور يجب أن يعرف كيف قضت في السجن أعوامًا، وفي الذل والألم والحرمان، وأكملت تصيح:

ـ الغندور يجب أن يبحث عنها معي، ليس بماله لكن بمال أبيها لا أملك شيئًا يا غريب، استدنت ثمن تذكرتي التي اشتريتها قبل أن أغسل عن جسدي تراب السجن، فليمنحني من مالها ومال أبيها ما أصل به إليها، أو إلى اليقين.

صاح الغريب في ألم يقول:

ـ الغندور؟! لا يريد عودتها، يسر هزمته وفضحته هو وولده ليلة زواجه منها، ينفق جميع ماله ولا تعود..

لم تعد تملك السيطرة على نفسها، أو دمعها فصاحت تقاطعه:

ـ لم يطلقني عصمت، لي في ماله نصيب.

أرخى رأسه يقول:

ـ لم يكن يملك شيئًا، حتى بيت الدقي وشقة وسط البلد، كنت أدفع الفواتير وأعلم أن كل شيء باسم الغندور الكبير..

لا تريد أبدًا أن تصدق ما يقول، لا تريد أبدًا أن تيأس من أمل عاشت عليه لكنها صاحت كأنها تئن:

ـ أؤلمه إذن، أؤلمه بالكلمات والدمع علني أتشفى..

نكس رأسه، وقال:

ـ يا سيدتي وأختي وحبيبتي، هناك أناس خلقهم الله ليؤلموا سواهم، هم كالغندور بالألم لا يشعرون!!

أخذت أوليجا تتلفت حولها وهي تبكي ثم ألقت بنفسها على كتفي العجوز تردد:

ـ ضاعت يسر؟ فقدتُها هي وعصمت؟!

يومًا كانت تضمه كهذا العناق، يوم مات ولده ولحقت به زوجته.

أخذ يربت على كتفيها في حنان كيوم كانت تربت فيه على كتفيه وأخذ يردد:

ـ أنا باقٍ معك حتى تعود، كما أعادك الله لي يعيدها لي ولكِ، هو كبير يا أوليجا..

كبير وقدير!!

***

الشـيب والصبا كلاهما أقوى من أن ندَّعيهم مهما فعلنا، أو نخفيهم مهما حاولنا!!

انتقى لها ثوبًا أسود من الدانتيل الأسود، بأذنيها سمعته يخبر مصفف الشـعر والمكياج أنه يريدها أن تبدو أكبر سنًّا، بجاد لا يهمه ما تريد، بل هو حتى لا يتخيل أنها تريد شيئًا..

هو ككل العباقرة مجنون يرى نفسه على رسم خطوات وملامح أي إنسان أقدر من الإنسان ذاته!!

حين وقفت يسـر أمام المرآة تنظر إلى خط الكحل الأسود العريض فوق عينيها وإلى اللون الأحمر على شفتيها، حين رفعت عينيها ونظرت إلـى الخصـلات النحيلة التي تسـربت من رأسـها في عنايـة حول باقي شعرها المجموع فوق رأسها في بهاء ابتسمت في مرارة!!

ما زالـت تبدو صبية صغيرة في بداية العشـرينيات مـن عمرها، كان يراقبهـا كمـا نراقب لوحة رسـمناها، أو تمثـالاً نحتناه!! ليـس حبًّا ولا إعجابًا، بل هو تفقدًا وتفحصًا ورغبة في الكمال..

اسـتدار في هـدوء ليحضر صندوقًـا أبيض لم تره مـن قبل، وأخرج منـه حذاء من الدانتيل الأسـود مرصع بحجارة سـوداء صغيرة تبرق في جنون..

طلب منه أن تنهض عن مقعدها ودار حولها دورة كاملة..

الثوب جميل يصل حتى نهاية ساقيها وبه فتحة طويلة على منتصف ساقها اليسرى تكشف عنها حتى نهاية فخذها..

كان مبهورًا لا بشخصها لكن بما خلقه منها وما جعلها عليه، انحنى يضع الحذاء أسفل قدميها وفتح كفيه يشير لها أن ترتديه..

لـه كعب عال وهي سـوى أحذيـة الباليه لم ترتدِ لكنهـا تدرك أنه لن يسمعها إن قالت ولن يذعن إن اعترضت..

رفعـت قدميها ودخلت بهما في الحذاء لينحسـر الثوب عن سـاقها اليسرى وحتى أعلى فخذها، حاولت أن تلملم أطرافه حولها لكن دون جدوى، الثوب ضيق وسـتبقى سـاقها مكشـوفة وفخذهـا عاريًا كقلبها وروحها..

أمسـك بيدها، وسـار بها خارج الغرفة حتى وصل بها إلى مقعد في كواليس تياترو ألاسكالا وانحنى على أذنيها يهمس:

ـ حين أناديك تدخلين، لا تنسي أن مفاجأة رائعة بانتظارك إن أجَدتِ ما علمتك إياه.

ابتعد دون حتى أن ينتظر منها كلمة، رأته يحادث أعضاء الأوركسترا الكبيـر، وبنفسـه يتفقـد نوت الموسـيقى، ويصلح من ثياب السـيدات، وربـاط عنـق الرجـال، وحين دق جـرس اقتـراب العـرض رأت عينيه بالخوف تشتعل.. كأنه طفل في لحظة!!

رأته يغلق عينيه، ويقرأ آيات قرآنية بلكنته العربية، وغابت في حيرتها..

ذاك القوى يكاد يرتجف؛ لأن موعد دخوله إلى مسرح اعتاد الوقوف عليه قد حان، يرتجف بينما تجلس هي على مقعدها في ثبات دون خوف أو اكتراث..

عادت تنظر إلى وجهه الوسيم، وشعره الذي يصل إلى نهايات عنقه ويكاد يلامس كتفيه، إلى حلته الأنيقة والعصا التي يمسكها في يديه..

هو يرتجف خوفًا؛ لأنه عاشق لموسيقاه وعمله..

فقط عندما نحب نخاف!!

هي لا تحب الغناء لهذا لا تخشى ما هي عليه مقبلة، لو كان هذا عرضًا للبالية لربما وقفت كما يقف ترتجف خوفًا وترقبًا..

حين دقت الدقات الأخيرة رأته يفتح جفنيه ويتجه نحو خشبة مسرح قاعة تتسع لما يقارب من الثلاثة آلاف شخص، وقبل أن يدخل لمواجهة الجمهور نظر إليها كأنه يضع عليها ختم الموافقة وقال في هدوء:

ـ لن تخذليني بعد أربعة أعوام وأعدكِ أن مفاجأتي ستنال رضاكِ!!

***

ساعتان كاملتان تناثر فيهما يقود الأوركسترا الكبير الذي يعزف فيه موسيقاه حينًا ويشاركهم العزف حينًا آخر..

ساعتان جاءت بعدهما لحظة الحصاد حين بقي منحنيًا ما يقارب الربع ساعة أمام عاصفة التصفيق التي بدأت تهز جنبات "تياترو ألاسكالا" الشهير..

في هذه الدقائق طعامه وشرابه الذي يحيا عليه حتى الحفل القادم، في هذه الدقائق التي يقف فيها الجمهور على قدميه عاجزًا عن التعبير سوى بدق الأكف هو ينتشي..

يكاد برأسه يحسب عدد اللحظات وعلو التصفيق، في انحناءته تلك التي يرفع فيها رأسه لحظة يتجول خلالها بسرعة على الوجوه ويقرأ السعادة التي صبغ بها روحهم، ينحني بعدها من جديد لئلا يرى أحد تنهيدة صدره، وهي في ضلوعه تصيح:

"لا تخش شيئًا.. مازلت كما أنت في أعينهم"!!

قبل أن يتحرك الحضور من صفوفهم إلى الخروج وللمرة الأولى اعتدل فركال بجسده الطويل رافعًا كفه يستبقيهم ويطلب منهم الهدوء..

للمرة الأولى ربما في تاريخه الطويل يراه جمهوره يمسك بالميكرفون في يده..

هناك نساء حبست أنفاسها لا تصدق أنها سوف تسمع صوته لا موسيقاه، وهناك رجال رفعوا أكفهم كأنهم يتوسلون إلى الحضور سرعة التوقف عن التصفيق ليسمعوا ما سيعلن عنه..

لم يتحدث فور سكوتهم، بل كان سعيدًا بذاك الترقب والخوف على ملامحهم وفي صوته الهادئ الهادر قال:

ـ جئت إيطاليا منذ عشرين عامًا لتفتح لي ذراعيها، علمتني وضمتني ومنحتني كل ما أملك وما كنتُ لا أظنني يومًا أملكه، أو حتى أملك حق الحلم به!!

اليوم وبعد عشرين عامًا أقدم لهذه الأرض هدية، زهرة من أرض الشرق التي يلفظ ترابها دومًا أزهاره، قضيتُ معها أربعة أعوام، علمتها ما علمتموني، منحتها بعضًا مما منحتموني واليوم أقدمها لكم، وأدعو الله أن تتقبلوها مني!!

حين استدار وأشار لها بيده، حين نهضت عن مقعدها ودخلت لتقف في النقطة التي أمرها أن تقف فيها شعرت بخوف لم تدرك كنهه، رفعت عينيها تنظر إلى صفوف الحاضرين، ووقفت عيناها على الصف الأول لتجد بوسكيمي تجلس وإلى جوارها ألترو فرنو، أغمضت جفنيها في ألم، تذكرت كل ما مر عليها..

تذكرت أيام المعسكر ولحظات الهرب، تذكرت وجه بوسكيمي، وسمعت صوتها الساخر يقول "لا تمارسا الجنس هنا"..

رعشة قوية سرت في جسدها لتلك الكلمات، أو لبدء الموسيقى..

لا تستطيع أن تقاوم، هذا هو وجه عزيز الغائب عن الوعي، وهذه يدها تعتصر قطع القماش من الثلج، وتمر بها على ثناياه، وتنحني بين حين وآخر تضع على جبهته، أو شفتيه قُبَلاً لم يشعر بها..

الموسيقى خلفها يعلو صوتها وعيناها ما زالتا على وجهه وذكريات خيبتها مغلقة..

لا تستطيع أن تفتحهما، لا تريد أن ترى بوسكيمي، وجه هذه المرأة يجلب الألم والذكريات..

كانت تحاول أن تفتح جفنيها لكن عصياها، ومن عساه يقوى على تمرد الألم؟!

شعرت بنسائم رائحة بجاد تقترب منها كأنه ما وجد غير الاقتراب منها وسيلة تعود بها إلى ألاسكالا..

سمعته يهمس باسمها في قوة، انتفضت تفتح عينيها، وهي تسمع صوته خلف المسرح حين قال "لن تخذليني بعد أربعة أعوام".

فتحت عينيها لترتطم بعينيه الثائرة..

من تجرع الخذلان لا يسقيه كؤوسًا!!

الأغنية الأولى بالإيطالية، وأعاد بچاد موسيقاه من بدايتها، والتقطت أنفاسها واستعادت وعيها وبدأ صوتها يعلو بكلمات "أداچو"..

حين فتحت عينيها ما أصبحت ترى سوى وجه أوليجا، وهي تراقصها رقصات الباليه، ورغمًا عنها سقطت دمعاتها وهي تصيح بصوتها الهادر تغني وهي تشعر أنها لأمها تفعل:

"لا أعرف أين أجدك أو كيف أصل إليك..

مازلت أسمع صوتك وأشعر بك داخل جسدي..

تحيا في قلبي وروحي..

كل هذه الليالي بدونك

ومازلت أنتظر..

أعلم أنك في اللحظة المناسبة تعود وأسقط بين ذراعيك..

حاربت كثيرًا.. جاهدت كثيرًا وصليت كثيرًا

من الحرب والصلاة اكتفيت..

ما عاد عندي شيئًا أفعله سوى الموسيقى والغناء!!

عليك أنت أن تجدني قبل أن يموت الأمل وينتحر الدعاء..

لا تدع هذا الضوء يتلاشى

لا تدعني أفقد ما بقي من أمل وما أقتات من إيمان..

فلنعد معًا ولأسقط بين ذراعيك ولو لحظات!!"

حتى بروفة الأمس النهائية كانت لا ترى سوى عزيز، وهي تغني لكنها الآن وهي أمام هذا الجمهور الكبير لا ترى سوى ذراعي أمها ورائحتها..

هذه الدموع التي تزحف على وجنتيها وصوتها الذي يهدر في جنبات المسرح يقشعون الغمام عن عينيها..

عزيز وإن كانت ما زالت تذوب فيه خائن كعمها وولده.. كغريب وأيامه..

أمها هي الأرض والسكن..

مع الكلمات الأخيرة في الأغنية، انثنت على ركبتيها على أرض المسرح، وما زال صوتها يهدر رغم عاصفة التصفيق الهوجاء التي هبت على المكان..

لم يصدق أحد من الجمهور أن هذه الفاتنة الصبية لم تولد وتنشأ في شوارع إيطاليا، حتى لكنتها تؤكد أنها منهم..

وقفت بوسكيمي تصفق وتنظر إلى بجاد في انبهار..

خلقها من جديد في أربعة أعوام، ليست أبدًا تلك الفتاة التي لا تعرف سوى كلمات إيطالية بسيطة، ليست أبدًا تلك الكسيرة ذات الأصابع المتورمة.

هكذا تخرج النساء من تحت أصابع فيركال.

كان ألترو يصفق إلى جوارها، ويصيح لتسمعه يخبرها أنه لا يصدق أن هذه هي التي أرسلها لها لتغسل الصحون، وتمسح الملاعق والسكاكين..

لـم يكـن التصفيق يخبو، بـل كان يعلو ويطلب منهـا أن تعيد الغناء، واسـتدار بچاد إلى الجمهور يعلن أنها سـتغنيها ولكن بالإنجليزية هذه المرة..

إلى يسر ذهب ومنحها كفه لتنهض ونظر إلى عينيها الدامعتين، يعلم جيدًا أنها لـم تنحن راكعة تأثرًا بالغناء، أو الكلمات.

يسـر تعاني الحرمان والضيـاع وأحيانًا وحدهما من يصنعان العظمة والعظماء..

نهض بها وبقيا معًا حتى عاد الهدوء، وعاد صوتها يعلو بذات الأغنية الشهيرة التي غنتها "لارا فابيان"، وحين انتهت من إعادتها للمرة الثالثة شـعر فـركال أن جمهوره ما صفـق يومًا لفابيان كما صفق ليسـر، خلال موجـات التصفيق الحاد وما زال السـتار مفتوحًا نظـر إليها وأخرج من جيبه علبة صغيرة منحها إياها، وهو يهمس "تستحقينها وأكثر"!

دارت عيناهـا بينه وبيـن الجمهور الكبير ولـم تقـاوم، فتحتها وحين رأت ما فيها نظرت إليه في شـحوب كبير، وعادت تنظر إلى بوسكيمي، وكل من خلفها ممن يظنون أنه خاتم زواج وبكت كطفلة صغيرة.

ضمهـا إلى صدره في زهو نحّات يرفع الغطاء عن تمثاله، ضمها في قوة وسمعها من بين أنين بكائها تقول:

ـ أعد لي أمي كما أعدت لي قرطها.. أرجوك!

***

ضمته إلى صدرها في قوة وشعر أنها تودعه الوداع الأخير، ابتعد بها عن صدره ونظر إلى عينيها التي تقاوم دمعة، وقال:

ـ إليزابيتا، سأحضر دومًا في موعدي..

بابتسامة صغيرة مريرة نظرت إلى عينيه، ومدت كفها تمسح على شعره الناعم، واستدارت تنظر إلى يسر التي تقف إلى جواره ترقبهما، وقالت:

ـ لن أنتظرك ولن تأتي، لن تتركها أبدًا وتأتيني، هو الفراق، حان دورها وانقضى عهدنا أيها العبقري!!

لم تنتظر أبدًا كلمة منه، بل خطت نحو يسر التي كان ألترو يعانقها ويسكب قصائد انبهاره في أذنيها، وقالت:

ـ تجاوزتِ كل التوقعات أيتها الساحرة الصغيرة..

لم تستطع يسر أبدًا أن تدعي أنها لم تسمع ما دار بين بوسكيمي ورجلهما وفي كلمات بسيطة واضحة بالإيطالية أخبرتها ألا شيء بينهما، هو أستاذ وهي تلميذ لا أكثر..

ضحكة عالية صاخبة أطلقتها بوسكيمي، وهي تلتقط شالها الأسود من على المقعد الذي جلست عليه، وقبل أن تمضي أمسكت بذراعها تقول:

ـ بل هو طفل عبقري شَكَّل بأصابعه دمية، لن يتركك يسر، ولن تعرفي أبدًا كيف تتركينه..

الأطفال والعباقرة لا يتركون دمًى صنعوها من الهواء، وإن فعلوا لا يتركونها إلا حطامًا وقطعًا متناثرة!!

* * *

على حافة بحيرة "كومو" جلسـت كعادتهـا تنظر إلى مياهها الفضية في سكون..

أصبحت يسر الغندور سجينة داخل زنزانة من ذهب خالص..

سبعة أعوام مرت منذ دخولها مقاطعة فيركال..

أربعة أعوام من الدراسة والتعليم حتى ليلة غنائها الأولى على تياترو ألاسـكالا، وثلاثة أعوام منذ ذاك التصفيق الذي زلزل جنبات المسرح، وهز مشاعر الشعب الإيطالي بأكمله..

عشرات العروض بالغناء.. أرقام كبيرة ووجوه كثيرة تطاردها..

كان بچـاد فـي الشـهور الأولى بعـد ذاك الحفل يخبرها بكل شـيء يدور..

لـم يأخـذ رأيها يومًا، بـل وحده حـدد أجرها ووحده اختـار لها أي حفل تغنيه بعدها وأي أوركسترا تجلس خلفها، وحتى لون ثوبها وحده من يختاره ويقرره..

الشهرة والثراء جبناء إن عرفوا طريقك لازموك وطاردوك حتى تمل وجودهم، وإن كنت تكره غدرهم ورحيلهم..

ما زالـت تقطن الملحق الصغير، حين توالت شـيكات النقود عليها سألته إن كان عليها أن تنتقل إلى سكن مستقل، أو تدفع نظير كل ما فعله معها وما أنفقه عليها من دروس موسيقى ولغة..

ضحك يومها، وقال ما لم تفهمه إلا بمرور الأيام..

قال لها، وهل نأخذ ما صرفناه على أرض بور حولناها إلى بستان؟!

في الأعوام الثلاثة الماضية أدركت أنه يراها مفرش الحرير الذي من خيوط رخيصة متفرقة غزلناه..

يراها كتمثال من حجارة، وصخر نحتناه، ثم في ميدان كبير وضعناه ليـس أبدًا ليرى الـزوار والمارة جمالـه، بل ليرى الخلـق جميعًا قدرتنا وعظمة أصابعنا..

تشـعر أنها أجمل قطعة موسـيقية كتبها، تشـعر أنها عنده أغلى لحن قدمه على مدى أعوام عمره..

تنهـدت في ألـم، وهي تـرى "دونجو" يقترب نحوهـا ويجلس إلى جوارها..

مـدت ذراعهـا لتضمـه إلى صدرهـا في حنـان، أخـذت تربت على رأسه في حب كبير، واستدارت تنظر بطرف عينيها إلى غرفته الزجاجية الكبيرة التي يعزف فيها موسيقاه ويكتب الجديد منها بين زواياها..

مسكين هو، بل مسكين كل مبدع يكتب موسيقى، أو يُلقي شعرًا، أو يرسم صورة..

شهور تراه يتمزق خلف جدران غرفته، أحيانًا تراه يثور ويصرخ في ألم حين تعصاه الموسيقى أو يكره ما أضاع أيامًا وأسابيع في كتابته..

يبكي كالأطفال وهو يكتب حروفه الموسيقية، يبكي وهو ينتظر حفله السنوي وفي لحظة يضع قناع الكبرياء والجمود، ثم يخطو على المسرح ويرفع عصاه الصغيرة ليبدأ جمع الحصاد.. بائسة هي حياته وأصبحت حياتها أشبه بها..

ثلاثة أعوام مرت، أقامت فيهم سبع حفلات بأغنيات خاصة بها، وحده اختار كلماتها ومن يقومون بتلحينها ويتابع بروفاتها ويقف كالجدار الأصم بينها وبين المتعهدين والصحفيين..

لكنها سجينة مثله، سجينة داخل هذه الشهوة الكبيرة التي تسيطر على الناجحين..

شهوة البقاء في المقدمة!!

تعبت ولا تريد أبدًا أن ينتهي بها الأمر في بيت مجاور له ولكل المشاهير..

ما زال بداخلها طفلة تبحث عن أمها، ما زال بداخلها عاشقة تشتاق إلى رجل أحبته، وإن سرقها وهرب..

تخشى أن تنزلق الأعوام من بين أصابعها كما انزلقت الأعوام السبعة الماضية لكن كيف بالله تخبره وما البديل؟!

أصبح بإمكانها أن تسافر كيف شاءت، بل وبنقودها التي كسبتها ولكن إلى أين؟!

مصر؟!

غريب؟! من يعلم.. ربما مات وإن كان حيًّا.. ماذا من لقائه تريد؟!

خذلها يومًا، فهل تقطع كل هذه الأميال لتخبره أنها ما زالت تحبه؟ وهل تحتمل خبر موته إن مات؟!

الغندور؟!

هل تذهب إلى عمها وتريه كيف أصبحت ومن أصبحت؟! هل تبصق في وجه زوجة عمها وتخرج لهم أسطوانات حفلاتها ليروا كيف يصفق لها الناس؟ وكيف تنحني لها الرؤوس وتدمع من غنائها الأعين..

ما زالت تخاف الغندور!!

ما زالت رغم كل شيء تخشاه، وتعلم أنه سيشيح بوجهه عنها ويخبرها أنها فاسقة امتهنت الفجور والغناء كما كانت أمها تمتهن الرقص!!

بكفها ضغطت على رأس "دونجو" في قوة..

آه بحجم الأرض والسماء..

آه عميقة جريحة تقطر دمًا وحزنًا ودمعًا..

أمها!!

كتبت اسمها على شاشة الكمبيوتر ألف مرة ولم تصل إلى شيء..

تضرعت إلى بچاد ألف مرة ترجوه أن ينفق كل ما كسبته في البحث عنها، وأخبرها أنه لم يصل إلى شيء..

كل التصفيق لا يعني لها شيئًا.. كل الصور والأخبار عنها.. كل الجمهور الذي أصبح يصطف على باب مسرح تغني فيه وتمر من بينهم على وقع صراخهم وترديدهم لاسمها يساوي صفرًا كبيرًا إن جاء اسم أمها على رأسها..

تريد أمها أكثر كما تريد عودة عزيز ليضمها وتضم تفاحته التي تحب..

تريد أمها أكثر مما تريد الحياة التي ترى نفسها فارقتها يوم رأت حنان تموت غرقًا هي وطفلها..

هي وبچاد موتى برتبة مشاهير!!

كلاهما لا شيء أكثر من أدوات لإسعاد الآخرين..

هو لغروره يظن أنه وأنها يخلقون لهم حياة بالموسيقى والغناء لكن وحدها تعلم أنهم يمزقون أضلعهم ويفتتون أرواحهم ويُزهقون عمرهم من أجل حفنة نقود وبعض أنباء وصور!!

أبعدت يدها عن رأس رفيقها في هدوء ونهضت تقف على قدميها وأغمضت عينيها التي التقطت بهما بچاد في غرفته الزجاجية يلقي كعادته ببعض أوراق ما كتبه في سماء الغرفة ويرمي برأسه بين كفيه في ألم ويأس..

نهضت ترقص على ساقيها على أطراف البحيرة..

ما زال الباليه وحده أداة تعبيرها عن حزنها وفرحها وخوفها..

ما عادت أبدًا تريد احترافه..

عندما نحترف فنًّا نحبه يقتلنا، وهي تريد فنًّا من الموت والسجن يحررها..

رقصت كثيرًا وطويلاً.. دارت وطارت، انثنت وانحنت.

هذا الثوب لا يناسبك يسر!!

لا تنظري إلى من يجلسون على المائدة التي خلفك!!

حين يطلبون التقاط صورة يجب أن تكون ابتسامتك صغيرة فهي صورة رسمية..

لا تأكلي السكر فهو يؤثر على صوتك..

لا تسيري في الجزيرة على قدميك سيلتفون حولك..

كانت تسمع كل تعليماته في الأعوام الثلاثة الماضية وتتألم رقصًا وحزنًا وألمًا..

لا الفقر أسعدها ولا النجاح أنصفها!!

هي سجينة منذ الميلاد، وإن بقيت هنا تغني ستبقى حتى الممات!!

حين أنهت رقصتها الطويلة، حين رفعت ظهرها ووقفت بعد سقوطها على الأرض رأت مركبًا تحمل بعضًا من السياح ينظرون نحوها مبهورين يلوحون بأكفهم ويصفقون.. رفعت يدها تلوح لهم..

لم يروا سوى رقصها لكن لا أحد منهم يرى دمعها، أو رأى تمزقها وتفتتها..

استدارت تمضى نحو الملحق الذي تسكنه، ورأته من خلف زجاج صومعته يلوح لها..

وقفت مكانها تنتظره وحين أصبح أمامها نظرت إليه في إشفاق كبير..

هو يتألم ولا تريد أبدًا أن تفجعه في ما صنعه منها، هو أيضًا يعلم أنها تتألم لكن لا يملك أبدًا أن يتركها تهدم كل ما بناه وخلقه..

كان صدرها يتهدج، وأنفاسها تتلاحق بعد طول رقصها، ومد كفه يعود بخصلات شعرها إلى الخلف..

كيف لا يرى فيها سوى صوتها وموسيقاه..

كيف لم يلحظ أبدًا أنها أصبحت في السادسة والعشرين من العمر؟!

لكن هل رأى في نفسه شيئًا سوى الموسيقى؟ وهل حقًا يدرك كم أصبح عمره وهو ما زال وحيدًا بعيدًا عن وطنه إلا من كلبه وذكرياته!!

كانت دموعها ترقص ذات الرقصة في عينيه، وسألها في صدق:

ـ ماذا تريدين؟!

دون وعي، أو شعور رمت برأسها على صدره وهي تبكي في جنون تقول:

ـ لا أريد أن أكون مثلك، بل لا أستطيع.. لا أستطيع أن أكون مثلك.. لا أرى الموسيقى رسالة ولا الغناء نبوة.. لا أريد أبدًا أن أفيق لأجد رأسي مكسوًا بالشعر الأبيض كرأسك وأجد نفسي ما زالت سجينة..

أريد أمي.. وحدها وطني وحريتي!!

***

أتاه النبأ العظيم من شفتي طفلة!!

يسر أخبرته بالفاجعة..

"هو سجين.. هو عجوز، وهي لا تريد أن تصبح مثله":.

رفع رأسه المتدلي فوق عنقه ونظر حوله نظرة سريعة ثاقبة..

هـذا القصر الكبير الذي يمـرون من أمامـه ويلتقطون لـه الصور.. هذا التاريخ العظيم وهذه الموسيقى التي ستبقى إلى آخر يوم تدور فيه الأرض.. طاقم الموظفين ومواعيد السفر.. حسناوات وصل إليهن، وأخريات يحلمن بليلة بين ذراعيه.. كؤوس الكريستال وصحون الفضة وغرفة الملابس والأحذية.. آه يا يسر!!

كل هذا لسجين!!

لأنـه صنع منها آلهة للغناء.. لأنها لم تحفر طريقها في صخور الألم وخنادق الوجع.. هيأ لها السكن والدروس حتى وجدت نفسها في لحظة معجزة تتحدث عنها إيطاليا وسكانها..

لأنه ما زال حولها لكن لِمَ هو حولها؟!

لإيمانه بها؟! لحبه لها؟! لكرمه وطيبة معدنه؟!

أبدًا!!

الصغيرة على حق!!

فركال فعل كل هذا؛ لأنه سجين جنونه بنفسه..

جنونه بشعوره أنه من لا شيء يصنع كل شيء.. من الخيال يكتب موسيقى تهتز لها الأرواح، ومن تلك البائسة ذات الأصابع المتورمة خلق أسطورة الغناء..

هو سجين نرجسيته لكن ما اختارها، بل اختاره الله ليكون وتكون من بعده الموسيقى والغناء!!

إن كان الشعراء يطلقون على أنفسهم أنصاف آلهة، فهو يرى أنه تعدى النصف بقليل..

وطنه ووطنها لفظاهما!!

وطنه أوراق الموسيقى وحروفها.. هويته عصا الأوركسترا وآلاتها..

مع كل شعرة بيضاء تحدثت عنها خلق قطعة موسيقية يموت وتموت أجيال وتبقى هي صفارة الشفاه، وزاد الأرواح!!

ملايين البشر تولد وتموت.. تأتي وتذهب ولا يبقى بعدها سوى نقود ينفقونها، أو ثياب يتخلصون منها، أو حتى ذكريات يجترونها، لكن هو وهي تأتي الأجيال وتذهب ويبقى ما قدماه خالدًا لا يموت..

تريد أمها؟!

وعدها أن يجدها لها لكن يخشى إن فعل أن تتبعها وتمضي.. لا يحتمل أبدًا أن تمضي..

لـو أنها مضـت قبل أن تصبح مـا جعلها عليه ما اكترث.. لكن يسـر اليوم ملك له وحده..

هي صغيرة، وللصغار دومًا حلوى يذوبون فيها..

أخطأ حين ظن المجد يرويها..

عندما يكسوها الشعر الأبيض كما كساه به قد تكتفي وله قد تفي!!

لـن يتركهـا أبدًا تقتل ما خلقـه منها.. هو وهي معًـا الكمال في أجلّ صوره!!

فـي هدوء رفع سـماعة هاتف مكتبه وحادث أحـد أفراد طاقم عمله ليقول:

ـ نلتقـي بعد سـاعة فـي مقهى المدينـة.. فلتكن معك قائمة بأسـماء أشـخاص نختـار منهـم من يسـافر إلى روسـيا ليعـود بأنباء امـرأة أريد الوصول إليها!!

***

حيـن أُغلق باب الطائرة، وأعلنوا اسـتعدادها للإقـلاع، ومع ركض عجلاتهـا علـى أرض المطار شـعرت بدموعها تركض وهـي تنظر من النافذة الصغيرة إلى أرض مصر..

يومًـا جـاءت هاربة من تهمة قتـل ويومًا عادت فارَّة من استسـلامها وتمزقها واليوم تعود أوليجا كسيرة بعد موت عصمت وغياب ابنتها!

ممَ هربت في المرة الأولى؟! هربت من شوقها إلى زوجها وكبريائها الـذي تمنعهـا عنه.. هربت من تمزقها بين سـقوط الاحتـرام وانتصاب الاحتياج..

فرت من رفضها لاسـم أوليجا وشـوقها إلى اسـمها الحقيقي.. من موت عبدالرحمن وعجزها عن مساعدة أبيه..

كان في خزانة عصمت مبلغ كبير تركت منه جزءًا لابنتها مع غريب، وظنت أنها بالباقي تجد محاميًا يدافع عنها..

لحظة وصولها المطار تم القبض عليها..

ماتت أوليجا باريشـينكوف الحقيقية حسب السجلات، وظهر ذلك على شاشـة الكمبيوتر التـي وقفت هي أمام ضابـط المطار الذي يعمل عليها ليبتسـم لها ابتسـامة صغيرة، تم بعدها إلقـاء القبض عليها.. حتى

النقود التي سرقتها من زوجها أصبحت دليلاً آخر ضدها، اقتادوها إلى السجن لتنفيذ حكم المؤبد الذي سبق وصدر غيابيًّا..

في السجن سقطت كل الأقنعة التي ارتدتها على وجهها ومشاعرها..

علمت أنها ما كان يجب أن تعود أو تهرب..

علمت أن ذراعي عصمت على رائحة النساء التي تخرج منها أرحم بها من أذرع السجينات والسجانات حولها..

علمت أن الحرية ليست حكمًا بالبراءة، أو عودة إلى اسمها القديم، أو تحررها من خيانة رجل أحبته.. الحرية هي أن ترقص إلى جوار ابنتها وتضمها على فراشهما لتناما معًا في سلام..

سامحت عصمت في أعوام السجن، واستغفرت ربها كل ليلة عن تركها لصغيرتها لوهم التحرر والبراءة..

هم في بلادها لم يسمعوها، وعلمت أنهم لا يختلفون عن الغندور في شيء.. الأرض مسكونة بالظلم ولم يعد قاصرًا على دول وأشخاص!!

أحكام صدرت يجب أن تنفذ..

الغندور كان يراها روسية هاربة، وراقصة ماجنة، وبلادها تراها هاربة من حكم قضائي لا تستحق حتى الدفاع عنها..

في ظلمات السجن مات فيها الأمل، وانكسر الكثير من الكبرياء، ورغم ذلك بقيت في كل عام وفي كل يوم تحلم بابنتها وترسم لها صورة بملامح جديدة..

كتبت لابنتها رسائل كثيرة.. ظنتها تقرأها بعد موتها في السجن لكن شاء القدر أن يختلف اللصان اللذان سرقا المرأة، وحين تم القبض على أحدهما في جريمة مشابهة أبى أن يُسجن وحده واعترف على رفيقه بالجريمة القديمة وبكل جرائمهما معًا حتى لا ينال العقاب وحده..

لم تصدق أبدًا أذنيها حين أخبرها مأمور السجن بالقصة..

أبعد كل هذه الأعوام والتجاعيد؟ أبعد اليأس وانتظار الموت يعلنون براءتها ويطلقون سراحها..

رقصت في زنزانتها تلك الليلة رقصة فرح كبيرة، وعاهدت ربها أن تذهب إلى عصمت وترجوه أن يبدأ معها صفحة جديدة..

لا تظنه تزوج بعدها.. ولا تظنه رغم النساء نسيها..

في تلك الليلة، وحين سقطت في سجنها لتنام كانت تفتح عينيها كل لحظة والأخرى لتتأكد أن ما كان هو الحقيقة وليس حلمًا من أحلام السجن..

حين غادرت السجن أخبروها أنهم سيمنحونها تعويضًا كبيرًا.. ظنت يومها أن السماء تعوضها..

استدانت ثمن التذكرة، وبجوار نافذة كهذه في طائرة كهذه حلمت أن تجد عصمت، وقد غسل غيابها عن عينيه الغمائم ليأخذها هي وابنته بين ذراعيه..

بجوار نافذة كهذه في طائرة كهذه كانت تنتظر أن تلتقيه لتخبره أن نقود الغندور ملعونة وأنها ستأخذه هي وابنتها إلى بلادها، وبنقود

التعويض ينسى كل منهما ما كان ويبدآن ويسر معهما حياة جديدة لا آثام فيها ولا تهم!!

ها هي تعود إلى جوار ذات النافذة، وربما ذات الطائرة، وقد أصبحت بريئة من تهمة القتل وفي طريقها إلى مبلغ كبير يغنيها عن السؤال والتسول لكنها عادت أرملة كسيحة..

مات الرجل الذي أحبته، وقررت الصفح عنه، وضاعت الابنة التي ظنت أنها بها تصفح عن الظلم والسجن والألم.. لا تصدق أبدًا أنها حُرمت من يسر إلى الممات..

"الله ليس قاسيًا.. كتب على نفسه الرحمة"..

آخر كلمات سكبها الغريب، وهو يودعها على باب المطار ويخبرها أنه سيجد لها بيتًا في الإسكندرية تشتريه، أو تؤجره عند عودتها بمبلغ التعويض..

هل تعود؟!

وهل رغم شكها في ظهور ابنتها أو كونها على قيد الحياة تستطيع ألا تعود!!

هل الغندور الكبير سعيد؟! هل هو حقًّا بموت أخيه وضياع ابنته منتشٍ؟!

قلبها كهذا التراب الذي يكسو سماء مصر التي تحلق فوقها وبعيدًا عنها..

كتب على نفسه الرحمة.. فليرحم الابنة أينما كانت وليرحم الأم التي تحملها طائرة تلو الطائرة وما زالت لا تعلم أين المرسى!!

لمسة خاطفة سريعة شعرت بها على كتفيها لتنظر بعدها من خلف غمائم دمعها نحو المضيفة التي قالت:

ـ سيدتي.. هل أحضر لك شيئًا؟! هل أنتِ بخير؟!

أرخت أوليجا رأسها في انكسار وهزت رأسها بالنفي..

كل من حضرت من أجلهم غابوا.. والخير كله في الأمل..

الأمل في من كتب على نفسه الرحمة!!

* * *

كان واضحًا جدًّا أنها لم تنم لحظة واحدة.. حين فتحت باب غرفتها ترتدي ملابس الخروج انتفضت أمها في ذعر تركض خلفها وتمسك بذراعها، وقالت كأنها تبكي:

ـ مازلنا في الفجر يا ابنتي؟! أين تذهبين؟

نفضت يدها عن ذراعها، ونظرت إليها في غضب من خلف عيونها الغاضبة الباكية، وقالت:

ـ إليه.. إلى من دمرني.. إلى الغندور!!

رمى والدها بكوب الشاي من يده، وأسرع يلحق بها قبل أن تصل باب البيت، ووقف خلفه يمنعها عن الخروج قائلاً:

ـ لن تجني شيئًا أبدًا، كفانا فضائح وقصص.. فقدت أختي وما عاد أحدنا يطيق النظر في وجه الآخر..

قاطعته في جنون، وهي تصيح:

ـ فقدت أختك وقبضت الثمن، لكن أنا إلى متى أدفع ثمن ما قبضتموه؟ إلى متى يطاردني؟!

بقي واقفًا خلف الباب، وهو يردد في صوت دامع:

ـ الغندور لا ذنب له في فعلة عادل.

بكل الجنون رمت بجسدها على جسد والدها ودفعته بعيدًا عن باب البيت، وفتحته وهي تصيح:

ـ لست غبية فلا تكن ساذجًا..

انطلقت كالمجنونة في شوارع القرية التي بالكاد أشرقت عليها الشمس..

ثلاثة أعوام منذ طلقها.. ثلاثة أعوام لم ينظر رجل إليها، أو يطرق بابها..

لا تعلم كيف فعلها الغندور، في البداية ظنت أن عزوف شباب القرية عنها لكونها مطلقة، أو خجلاً من الغندور؛ لأنها كانت زوجة ابنه، أو ربما لظن سكانها أنها عاقر لا تنجب.. حين يئست من الانتظار نسجت شباكها حول عادل، فاشل فقير لكنه وسيم سبق له الزواج والإنجاب..

طاردته كثيرًا، وهي تعلم أنه ما كان ليصدق أنها وبعد أن أصبح لديها، وأبيها نقود وأرض وبيت تطمع فيه.. استجاب لها حتى ظنته بها مغرمًا، منحته مبلغًا من المال ومبلغًا آخر وآخر حتى يتقدم لخطبتها..

تريد أن تتزوج وتصبح أمًّا، تريد أن تنسى فريد وعمتها، وأسوار قلعتهم التي ذبحت أنوثتها وكبرياءها..

جاء عادل وطلبها منذ شهر، أخبروه ألا يذيع النبأ حتى موعد عقد القران، وبالأمس جاء يعتذر متعللاً بسفره.

كالعاصفة خرجت إليه، كالعاصفة أمام والدها صرخت تذكره بما منحته من نقود وما منحها من عهود..

كان وجهه كالحًا باردًا كوجه أفعى، نظر إلى والدها ونهض عن مقعده يرمي بيدها التي التفت حول معصمه، أخبرها أن ما منحته من نقود لم يبق منه مليم، أنفق كل ما منحته على تجهيز بيت الزوجية، لكن هي إرادة الله أن ساق له عملاً في بلد بعيد..

أخبر في مجون ووقاحة إنه يريد الزواج من امرأة تنجب له أطفالاً ليكونوا أخوة لوحيده من زوجته الأولى..

كأنها ما بكت على صدره مرات تخبره بقصة فريد، كأنها ما تناثرت شظايا على ذراعيه، ترجوه أن يعجل بالزواج منها لتنجب وتسترد كبرياءها المسفوك دمه أمام عائلة الغندور..

نفض عادل يدها التي منحته حبًّا ومالاً وثقة وخرج لتبقى وحدها لا تنام حتى أشرق الصباح..

لن تعود قبل أن تنهي حساباتها مع الغندور!!

حين وصلت بوابة بيتهم الكبير وقف عبدالجبار ينظر إليها في سكون، وهي تعبرها دون حتى أن تنتظر منه حرفًا واحدًا.. ما زالت تعرف كل شبر في هذا البيت رغم أنها ظنت نفسها نسيته..

حين طرقت الباب وفتحته لها أمينة دخلت دون حتى أن تلقى عليها السلام..

دخلت لتقف في ردهة البيت تبتسم..

لا شيء تغير، هم على حالهم.. على مائدة الإفطار يجلسون..

كل العتاة والظلمة على حالهم باقون!!

دومًا أيامهم واحدة وقواعدهم ثابتة..

شعرت بعمتها تنتفض، وهي تراها أمامهم شعرت بفريد يمتقع وجهه هو الآخر، وأدارت عينيها بسرعة إلى كبيرهم الذي ألقى بكسرة الخبز التي كانت بين أصابعه، وقال في برود:

ـ أهلاً.. هل تريدين مشاركتنا الإفطار؟!

صاحت كالمجنونة تسأله متى يرفع عنها لعناته، كانت تبكي وتلعن وتقسم ألا ذنب لها في أقدار ولده، فلِمَ يريد أن يكتب هو أقدارها..

نظرت إلى عمتها، وصاحت تسألها أما كانت يومًا تقسم لها أنها ابنتها، فكيف اليوم أصبحت معه تحاربها..

استدارت إلى فريد الذي نهض عن مقعده، واقتربت منه تبكي، قائلة:

ـ احتملت أعوامًا ثلاثة.. احتملت نوم يُسر بيننا، احتملت لوم عمتي وعباراتها، احتملت أسئلة أمي وبكاء أبي.. احتملت حياتي وأنا أرى حبنا ميتًا على وسادتنا ولا أريد شيئًا.. لا أطلب سوى أن تتركوني أحيا.. لماذا.. لماذا يجب أن أموت؟!

وحده الغندور الكبير اقترب منها، وأمسك بذراعها في قسوة قائلاً:

ـ لأنك قبضتِ الثمن، يوم علمت بقصة فريد بقيتِ تطلبين أرضًا وتكنزين مالاً وتشترين بيتًا!! لو أنك عند عودتك من طبيب مصر

أعلنت الحقيقة لاحترمناكِ، لعبتِ لعبة قذرة وقبضتِ الثمن كاملاً، ولن نزيدك عليه من هيبة الغنادرة أبدًا..

أعلنتك ألا رجلاً يتزوج بك بعده.. أعلنتك بها يوم خروجك والغندور إن قال فعل..

كانت كالمذهولة تنظر إليه، وعاد يقول:

ـ تريدين الزواج؟! أعيدي كل ما أخذتيه إن كنت صادقة.. أعيدي الأرض والمال والبيت؟!

هل يقبل والدك، هل تعود أمك إلى البيت القديم؟ بل هل أنت نفسك تفعلين؟ هل تعودين لافتراش الأرض بعد اعتيادك نوم الأسرة والوسائد الوثيرة؟

لا تظنها أبدًا تفعل، وإن فعلت وقبل أبوها تعلم علم اليقين ألا رجل في دمرو حينها يتزوجها..

أرخى الغندور يده عنها، وقال:

ـ إن كانت حاجتك رجل.. يعيدك ولدي إلى عصمته..

انتفض فريد يقول:

ـ بعد تمرغك بين ذراعي عادل لا أريد.. أخبرنا كل شيء!!

في قوة قال الغندور:

ـ بل إن شاءت تعيدها، ما زالت ابنة خالك، وما زالت زوجتك السابقة.. هل تريدين العودة إلينا؟!

في هدوء خطت نحو الباب..

هي الآن تعلم ما ستفعل وما تريد..

ما عاد أمامها سوى الرحيل عن دمرو بأكملها..

حيث يحيا الغندور لا حياة ولا أمل!!

***

مهـا وجنينها في الجنة.. يعلم علـم اليقين أنها هناك وما يدركه الآن أن وأده لعشق يسر بداخله ليس وفاءً لها، ولا عقابًا على نفسه ينزله..

هو لم يخطئ.. عجز عن حماية زوجته ليس لجبنه، أو تقاعسه لكن لأنه في نهاية الأمر ومنتهاه إنسان ضعيف..

ليـس حتـى من حقه أن يعيد على نفسـه ذات السـؤال الذي يجلد به نفسه منذ أعوام..

لماذا أصرت مها أن تذهب إلى القاهرة.. لماذا بقيت أسـابيع ترجوه أن يأخذهـا إلـى زيارة "الحسـين" وتنـاول الطعام لـدى "الجحش".. ولماذا لم يصر هو على رفضه..

لا أحـد يعلـم لماذا؟! حتـى إن علم ما عادت الإجابـة تغير مما كان شيئًا..

كان سـعيدًا وكان يريدهـا سـعيدة.. وضع مبلغًا كبيرًا مـن المال في جيبه وذهب بها إلى المحروسة.

زارت الحسين، سمعها تدعو له ولجنينها، وتتعهد أمام الله أن تطلق عليه اسم أبيه..

اصطحبها إلى "الجحش" ثم إلى المحال الكثيرة الساهرة، اشترى لها ولوليدهما القادم كل ما أرادت..

في طريق عودتهما إلى محطة مصر ركبا سيارة "ميكروباص" ليعودا إلى بلدتهما..

شعر أن سائقها ومن معه ليسوا بوعيهم.. شعر بزوجته تضغط على يده خوفًا من نظراتهم لها وله..

لم يعبأ.. ظن لغرور شبابه أنه قوي وأنها معه، وأنهم لن يفعلوا شيئًا..

هم مجموعة من الحمقى الواقعين تحت تأثير ما اعتاده شباب البلاد من مخدرات.

غضب حين سمعها تسألهم لماذا هو الطريق طويل ومظلم..

ابتسم في ثقة كأنه يعلم صدقهم حين قال أحدهم إن الطريق مغلق، وهم يأخذون طريقًا مختصرًا..

تحدث إليهم في بساطة، لكنه أدرك في لحظة أنها على حق..

حين وجدهم يقفون على أحد الطرق المهجورة، وحين حاول أن يفعل شيئًا أمسكوه كأنه قشة صغيرة، ألقوه خارج سيارتهم بعد أن أطلقوا عليه الرصاص وأفرغوا جيوبه..

لم يبتعدوا بسيارتهم كثيرًا، بقي يحاول أن يزحف على يديه ليصل إليهم.. كان يشعر أن ساقيه على خيطين صغيرين متصلتان بجسده، وكان يتمنى لو يعلم كيف يقص ذاك الخيط ويذهب لينقذها دونهما..

هكـذا فـي لحظـة أدرك أنـه ضعيـف، وأنها كانـت طوال الأسـابيع الماضية إلى هذه اللحظة السوداء تسعى..

كان يصـرخ كلما سـمعها تئن في ذاك الظـلام.. لم يكن صراخه من نزف سـاقيه، ولا ألمهما بل كان خجلاً من غبائه، وعجزه عن الوصول إليها..

ما عاد يذكر كم بقي وكم بقيت في الصراخ والبكاء؟..

كان يغيب عن وعيه ويعود، ويحاول أن يصل إليها..

ألقـوا بها خـارج سـيارتهم بعد صـوت رصاصة سـمعها، وفي ذاك الظلام كان يرجوها أن ترد لكنها ما قالت حرفًا..

هزمه الألـم، لـم يسـتطع أبدًا أن يصل إليها.. حتى صوته بدأ يخفت، وهو يردد عليها أن تصمد..

لا هي صمدت، ولا هو إليها وصل..

أفاق في إحدى مستشـفيات القاهرة، علم أنها ماتت بعد نزفها إثر ما فعلوه بها، وبعد إلقائها من السيارة..

لحظات قد تصل إلى الساعة لكن يبقى سكينها، وتبقى ذكراها حتى قيام الساعة.. ما عاد بعدها على النظر في وجه أحد يستطيع..

ما عاد على النوم في فراش بيته يقوى..

أجروا له أكثر من عملية، بقي على عكازات يسير..

قـرى دميـاط جميعهـا وقفت إلـى جـواره، وعجز هو عـن الوقوف بجوار نفسه..

حتـى قبرها ما اسـتطاع زيارته.. لـم يكـن هو مـن أغلقه عليها.. حين دفنوها كان غائبًا في مخدر العمليات والتحقيقات..

تـم القبض علـى الجناة ومحاكمتهـم.. وهل يعيدها أن يُسـاقوا إلى السجن ما بقي من عمرهم؟!

بقي كالشبح يسير في شوارع البلدة على عكازيه حين ينامون، وينام حين يصبحون..

ما منعه عن الموت سوى علمه أنها في الجنة، وأنه إلى النار يساق..

بـاع المحل، وحمل الثمـن كاملاً إلى تجار الهجـرة بعد محاولات كثيـرة مـع سـفارات أوروبـا انتهـت جميعهـا بختـم مربـع كتـب عليه "مرفوض".

وأي بلد تقبل زيارة ميت؟!

ماتت فيه الرغبة في الحياة، وأيقظتها يسر.. مات فيه شعوره بالحب والنسـاء وحين تحسسـت تفاحة عنقه، علم وأدرك أن الله ما زال يريده أن يحيا..

حيـن هـرب منها منذ أعـوام، وسـرق نقودها، كان يخشـى أن يبقى ويخذلها كما فعل مع زوجته..

مع نسائم هذه البلاد أصبح يعلم أن من حقه وحقها أن يحييان..

كانـت مها تصر على زيارة مصر؛ لأنها تسـعى إلى قدرها فلم يجب أن يهرب هو من قدره؟!

قـدره أن يحيـا رغم الرصاصـات.. أن يحب تلك الفراشـة الراقصة رغم موت قلبه ورحيل مشاعره..

الشـجاعة أن يبحـث عـن يُسـر.. الشـجاعة الحقيقيـة هـي الصفح وليست إذلال النفس لذنب لا يد لها فيه..

منـذ عادت رسـالة بوسـكيمي وبداخلها النقـود التي ادَّخـر منها ما ادخر، واستدان منها ما استدان من صديقه، وهو ممزق يتلوى بين ألسنة لهب الجحيم، لا يعلم كيف يموت، أو يحيا!!

عزيز لن يهدأ إلا إن وجدها.. لقاؤهما هذه المرة يختلف..

أصبح يعمل ويملك مالاً، أصبح يدرك أنه يحبها، ويوقن أن مها في الجنة أيضًا تغفر له..

يشعر أنه إن وجد يُسْر وأعانها على عودة أمها، وعودتها إلى الغريب واسترداد ميراث أبيها يجعله يغفر لنفسه، سيرتمي على قدميها، ويحكي لها لِمَ سرقها وهرب..

سيكشف لها عن الرصاصات النائمة في ركبتيه، ويستعيد معها تلك اللحظات التي كانت زوجته فيها تحتضر، وهو يعجز عن حتى الإمساك بكفها..

ستسـامحه ويسامح نفسـه معها، سيمنحها عمره، أو ما بقي منه وفي الجنة لا غلَّ في الصدور..

ستبقى معه هي ومها ووليده الذي قتلوه جنينًا في بطن أمه في تلك اللحظات..

لكن كيف يجدها وأين يبحث عنها؟!

لا يظنها أبدًا عادت إلى مصر.. هي في إيطاليا، في كل إجازة يحصل عليها من عمله يذهب ويجوب الشوارع بحثًا عنها..

سيدخر لها كل ما استطاع من نقود، ويذهب يوم يجدها ويشتري بغفرانها عنه صفحه عن نفسه وميلاده من جديد على كوكب الأرض قبل الرحيل إلى الجنة إن كانت الجنة حقًّا ستفتح له بابها!!

* * *

اعتذر في أدب جمّ، وأغلق هاتفه في ضيق..

تتوالى عليه المكالمات من كبار وأشهر مطربي أوروبا والأمريكتين طلبًا لتلحين أغنية لهم..

ما كان أحدهم قبل ظهورها يجرؤ أن يطلب منه أن يلحن له أغنية لكن لا أحد منهم يعرف الحقيقة..

يسر شيء آخر، هي معجزة حقيقية، توليفة سرية فيها من أم كلثوم هديرها ومن فيروز حنانها، فيها من "جلوريا مايكل" قوتها، ومن "ايدل" قدرتها على أن تبكيك إن شاءت، أو ترسم على وجهك بسمة إن أرادت..

هي معجزة لفظها البحر كما لفظته الجزائر.. فقط معًا يكتملان!!
لكن غناءها في الحفل الأخير لم يكن أبدًا كما يريد.. صفق الحاضرون كعادتهم لكن هي لم تكن كعادتها..

فيها شيء تغير، أصبحت أكثر ثقة وسعادة، منذ وعدها بالبحث عن أمها غاب عن صوتها رنة الألم العميقة تلك..

بالأمس أخبرته أنها حجزت تذاكر، وأنها أيضًا تخطط للسفر إلى روسيا لتلتقي من يبحث عن أمها..

منذ شهور، وهو يعلم أن أمها بخير، لم يكن الوصول إلى أخبار "ناتاشا بافلوف" صعبًا أبدًا على المخبر الذي استأجره..

المرأة قضت أعوامًا في السجن حتى شاءت الأقدار أن يتم الكشف عن الجاني الحقيقي ليفرج عنها..

سافرت الأم إلى مصر أسابيع، وعادت لتستلم التعويض، وتعود به إلى مصر لتستقر في مدينة الإسكندرية لتعمل كمدربة باليه في مدرسة دولية صغيرة..

في لحظة كان سيركض إلى يُسْر ويخبرها، بل كاد أن يحادث الأم، ويرسل لها تذكرة للحضور لكن بعد تفكير علم أنه سيفقدها إلى الأبد..

إن وجدت أمها، قد تتركه وتترك كل شيء وتعود معها.. حتى إن بقيت وبقيت معها ناتاشا يعلم أن شيئًا كبيرًا في صوتها يموت..

شيء وحده يجعل من صوتها معجزة، شيء وحده يجعل من موسيقاه أسطورة..

الألم والانتظار!!

إن ماتا بداخلها وداخله أصبح "فيركال" موسيقيًا عاديًا كآلاف الرائعين ممن يملأون الأرض أنغامًا وألحانًا وأصبحت هي صوتًا جميلاً نسمعه، ثم نعود إلى يومنا دون اكتراث..

موسيقاه وصوتها بالألم وبالانتظار يبقيان حتى بعد أيام وشهور في صدر من سمعهما..

لم يستطع أن يخبرها أبدًا بالحقيقة عن أمها لكن حتى كتمانه الخبر ما عاد يكفي..

زاد فيها الأمل عن الحد المطلوب، وعليه أن يعود به إلى معدله القديم..

المعدل المقبول للأمل في حياة العظماء هو الحد الذي يجعل منه ألمًا لا طوق نجاة!!

* * *

قد يبدو الأمر غريبًا كقصص الأطفال لكن حتى هي نفسها أصبحت تؤمن أن لكل شيء هدفًا وغاية..

الغنـدور ما حاربها ليأخذ ميراث أبيها، بل حاربها لتصبح على حافة صنع ثروة أكبر من ثروته!!

رصيدهـا وهـي فـي هذا العمـر يـكاد يقترب مـن أرصـدة الأثرياء، أصبحت نجمة، أصابعها التي تورمت يومًا في تلميع صحون بوسكيمي ترتوي اليوم من كريمات اللؤلؤ والأعشاب النادرة..

أصابع من يسمعونها وحدها تتورم من حدة التصفيق لها..

بـدأت تعتاد الحيـاة أمام بحيرة "كومـو" وبدأت تصـدق أنها تألف غياب تفاحة عزيز وبدأت تشعر بأن لها على بجاد حقًّا كبيرًا..

لا شيء بات ينقصها سوى أن يأتيها بأمها.. تثق أنه سيفعل..

مـن فعل كل ما فعله بإمكانه دون شـك أن يجـد امرأة غابت، ويعود بها إلى ذراعي ابنتها، أو يأخذها لتراها إن كانت في السجن ما زالت!!

سـتعود وأمهـا حين يطلقون سراحها بعد أن تجنـد للدفاع عنها كل نقودها إلى بيت الغندور..

بـل سترسـل إلـى فريـد ووالديه تذاكـر تدعوهم إلـى زيـارة إيطاليا وحضـور حفـل لها، وسـتكتب لهم فـي رسـالتها "إن رفضـوا منحكم التأشـيرة فلتأخذكـم أمينـة إلـى مراكـب الهجرة، أو أرسـل لكـم دعوة مني"!!

قـد لا تكون سـعيدة بالغناء لكـن بما وصلت إليه قانعـة حتى ظهور أمها..

مـا زال عزيـز فـي أوروبا، لابد أنه سـمع عنهـا، أو رآهـا.. تتمنى لو يفعل، بل تحلم بلحظة يعود فيها إليها..

وضعـت الثوب الذي كانت تحملـه بين أصابعها لترتديه في طريقها إلى الخروج لتناول العشـاء مع بچاد، نظرت من خلف النافذة على ماء البحيرة وأرخت جفنيها..

ماذا حقًّا لو عاد عزيز؟!

لِمَ تشعر أنها ما زالت تهواه؟!

ما زالـت تتمنى لـو يضمها كما كان يفعل.. ما زالـت في لياليها تمد أصابعها، وتحلم لو تتحسس تفاحة عنقه من جديد..!!

في هدوء أكملت ارتـداء ثيابها، ووضعت زخات من أحدث عطور "تـوم فـورد" علـى عنقها، وأطلقت شـعرها، ونظرت إلـى مرآتها في سكون..

"كوني صادقة مع نفسك لتجديني وأجدك"..

تحسست قرط أمها الذي أعاده لها، وابتسمت ابتسامة صغيرة اعتلت بعدها حذاء له كعب، وحده أيضًا من علمها كيف تجيد الوقوف عليه، خرجت إلى بوابة البيت الكبير حيث كان في سيارته ينتظرها، ابتسم حين رآها ككل مرة كأنه يهنئ نفسه عليها وعلى ما صنعه منها..

دخلت إلى جواره، ولا تعلم لماذا تذكرت كلمات بوسكيمي حين أخبرتها أنها دمية صنعها طفل عبقري ولن يتركها أبدًا إلا قطعًا صغيرة!!

***

حين وصلا إلى أحد أكثر المطاعم شهرة وأناقة.. حين تبعتهم الأعين والتقط لهم البعض الصور.. حين ابتسمت والبعض يطلب منها أن تكتب له كلمة، أو وهي ترى نساء كثيرات يضعن على وجنة فيركال قبلة بعد صورة، أو تحية هدأت..

هدأت على طاولة صغيرة في إحدى الزوايا اختارها بعيدًا عن باقي أرجاء المطعم..

تحادثا كثيرًا وطويلاً رغم أنهما في قلعة واحدة يعيشان، لكن هناك لا يلتقيان إلا في عمل، أو من أجل عمل..

وضع كفه على يدها، وقال في هدوء:

ـ في وقت قليل حققتِ ما حققته أنا في عمر طويل.. قد تكونين أصغر مني كثيرًا لكن أدرك وتدركين أننا أصبحنا وجهين لعملة إن غاب أحد وجهيها أصبحت لا قيمة لها..

كان أنيقًا وسيمًا جادًّا كعادته، كانت تنظر إليه في حنان وامتنان، وأيضًا ترقب كبير وأكمل يقول:

ـ ظننت أن تَنقلي بين النساء والموسيقى يكفيني لكن وجودك هذه الأعوام جعلني أزهدهن واحدة تلو الأخرى..

هو صادق رغم أنه يحمل لها في جعبته أكاذيب كبيرة، حقًّا يريد الاحتفاظ بها، ويريد الإبقاء عليها والبقاء بقربها ما بقي من العمر، وضع كفه على يدها البضة، وقال:

- أنتِ أجمل قطعة موسيقية في عمري وأريدك معي ما بقي من العمر.. هل نتزوج؟!

لم تشعر أبدًا أنه فاجأها ولم تشعر أبدًا أنها تطير فرحًا، في أعوام عمرها القليلة رأت من الأرض وسكانها والبحر وأسراره ما يجعلها لا تطير، بل ترنو إلى الرسو على مرفأ..

تريد أن تحتمي به، وتعلم أنه على ذلك قادر، تريد أن تستند إليه وتعلم أنه يمنحها ما لم يمنحه يومًا لأحد..

ليست مجنونة به لكن كل من جنت بهم ذبحوها..

هي مجنونة بعزيز لكن العقل في ارتباطها برجل صنع منها شيئًا والأهم أنه سيعيد إليها روحها التي تملأ صدرها بحلم عودتها.

في صوت هامس قالت:

- لا أجد على الأرض من هو منك بي أولى أو أحق.. فقط أريد أمي أن تكون معي يوم زفافنا!!

شحذ من صدره نفسًا عميقًا، وأمسك بكفها في قوة، وقال:

- حبيبتي، ما عاد عندنا سوانا، ماتت ناتاشا بافلوف بعد أعوام في السجن قضتها!!

حين غامت عيناها بالدمع، وشهقت وجدت نفسها رغمًا عنها تعض على شفتيها في قسوة، ما عاد بكاؤها أمرًا مباحًا!!

علمها بچاد وأحسن تعليمها، هي الآن محط أنظار ومنية صور وغاية قصص..

نهضت عن مقعدها وكل شيء يتراقص خلف دمعاتها ولحق بها في روية، لا أحد استوقفه يطالبه بحساب، أو نقود.. دخوله هو و«يوسر» كما يدعوها الإيطاليون في حد ذاته كنز كبير ويعلمون أنه سيرسل لهم شيكًا بضعف حسابه..

هم فقط جميعًا بأعينهم تبعوه وتبعوا الباكية حتى أصبحت خارج باب المطعم الشهير تقف..

ماتت أمها! ماتت آخر أحلامها وأكبرها!!

شعرت بكفه على كتفيها، وحين استدارت رأت في عينيه ألمًا صادقًا كبيرًا ورمت بنفسها على صدره تبكي قائلة:

ـ أمي؟! لو أني مرة عانقتها، لو أنها مرة سمعت غنائي، أمي..

كان يبكي معها على مرأى من كل من تجمعوا حولهم في سكون يحاولون أن يفهموا ما يدور غير مصدقين أن توأمي الموسيقى والغناء أمام أعينهم يبكيان..

ضمها إلى صدره في قوة كأنه يهم بتكسير ضلوعها، وسفك شعوره بالخزي والألم من كذبته الكبيرة..

ضمها في قسوة كأنه يقتل آخر ما بقي من ضميره الذي كان يرجوه أن يخبرها الحقيقة..

ضمها في جنون كأنه لا يفهم لِمَ يجب أن يعذبها ويتعذب بها ومعها إلى هذا الحد..

كانت له مستسلمة كأنها تريد ألمًا أكبر من ألم الخبر، كأنها تريد وجعًا ينسيها النبأ والوجع الذي استيقظ كالوحش في عروقها..

أبعدها عن صدره قليلاً، وأمسك برأسها بين كفيه ينظر إلى دمعها من خلف دمعه ولم يجد ما يربت على ضميره وعليها سوى أن قال:

ـ لم ترمني الجزائر سدى، لم يلفظك البحر جزافًا.. كان هذا لنلتقي.. لنكون معًا.. هل تسمعين؟! لن أتركك لحظة ونفس من صدري يخرج، أو إليه يعود، هل تسمعين؟!

كانت رغم الألم تحاول أن تتماسك، ورغم الحزن تحاول أن تفهم كالأطفال رجته ألا يتركها.. رجته أن يبقيها معه..

وحده بها من الأقدار أرحم!!

أعادها إلى صدره، وهو يبكي قائلاً:

ـ فلنتزوج يا حبيبتي!!

***

دق بعصاه التي أصبح يحملها في يده على الأرض في قوة ونهض عن مقعده، يقول:

ـ لا أحد سواي يشتريها، في السابعة نلتقي صباح الغد أمام مكتب الشهر العقاري، وتأخذ المبلغ الذي ذكرته.

استدار إلى ولده يطلب منه النهوض عن مقعده، وعاد جليسهم يقول في صوت مرتعش:

ـ لا أريد أن أبيع الآن سيد بهجت.. فلننتظر..

بذات القوة، ودون أن يهتز له جفن، استدار إلى طريق الخروج مرددًا:

ـ تبيع وغدًا موعدنا!!

حين خرج فريد خلفه، وفتح له باب السيارة حاملاً له ساقه إلى داخل السيارة ليعود ويجلس خلف مقودها ساد بينهما صمت كبير..

كل منهما في أفكاره غارق، الغندور الكبير غاضب؛ لأن جاره كان يريد أن يبيع الأرض للجار الآخر، وهو يرى أنه بها أولى، بل يعلم علم اليقين أنه بشرائه لهذه الأرض سيرغم الجار الآخر على بيع أرضه؛ لأنها

ستصبح كالقشة في كوم أراضيه، ربما كان هذا هو السبب الرئيسي في تردد جاره ورغبته لبيعها للجار البعيد..

ما زال الكثيرون في دمرو يحملون له الكراهية، يظنون أنهم يحاربونه ثأرًا لأخيه وابنته.. ثأرًا لهادي شقيق قدرية بعد هرب ابنته من البلدة، وبكاء أمها وعويلها في البيوت ولعنها له ولولده..

حمقى جميعهم، حمقى وأغبياء!

متى كان عصمت صديقهم؟! متى كانت يُسر حبيبتهم؟! وكيف أصبحت خديجة الآن ووالدها اللذان كانوا يأنفون السلام عليه قبل ما حملته إليه من ثروتهم صديقًا لهم؟!

هو الحقد.. هو الحسد.. هو دم دمرو وسكانها!!

لن يهزمه أحد.. هو بأرض هذه القرية أولى.. هو بدمه الذي لو فتحوا عروقه لوجدوه من ترابها وطمى أرضها بها من كل الكسالى والأغبياء أولى..

يومًا يكتبون إلى جوار كلمة دمرو كلمة "سابقًا" و"الغندور" حاليًّا!!

إن كان ولده عاجزًا عن إنجاب من يخلد اسم هذه العائلة، فليكن اسمها على أبواب القرية مكتوبًا!!

في قسوة أدار وجهه إلى فريد، وقال في قوة:

ـ كنت أتوقع منك أن تزجره، توقعت أن تهدده فلا أريد أن أقوم بالأدوار جميعها وحدي..

في جنون أوقف فريد السيارة، واستدار نحو والده يقول في صوت مبحوح جريح:

ـ لماذا أفعل؟! بل لماذا في كل يوم نكسب عدوًّا يكرهنا؟ من أجل من؟!

أشار بيده إلى رأسه، كأنه يجذب شعراته وعاد يصيح:

ـ يا أبي أصبح رأسي يكسوه الشيب، لِمَ نفعل كل هذا؟ من يرثك ويرثني؟!

يُسر هربت أو ماتت، خديجة تبعتها وذابت حيث لا نعلم.. لمن نقاتل.. ألا تكتفي؟!

ما عاد في دمرو من لا يشيح بوجهه عنك وعني.. لماذا ولمن؟! ما عدت حتى أطيق العمل وشراء الأراضي والمزارع.. ما عدت أعرف رصيدك، أو رصيدي..

لو أني أعرف طريق يُسْر لمنحتها نصيب والدها.. بل لو أجد خديجة أعدتها إلى أبويها ومنحتها ما تريد، وأحضرت لها زوجًا، ودعوت لها بالذرية..

صاح والده يقاطعه:

ـ ليست من الغنادرة.. هي رخيصة فاجرة!

قاطعه فريد، وهو يدير محرك سيارته صائحًا:

ـ نحـن لصوص، يوم نموت لن يترحم علينا أحد.. بصدق ما عدت أعلـم مـن يرث كل هذا لكن أثق أن من يرثه سـيبقى مـع كل مليم ينفقه يلعننا.. أصبحنا لعنة كفر الشيخ بأكملها..

التقط فريد كف والده وقبَّلها وأكمل:

ـ أسـتحلفك باللـه ألا نذهـب فـي الغد.. دعـه يبيـع الأرض لعائلة الطويل.. فليرث من يرث؟! لن يرث أحد من أعدائنا شيئًا.. يُسْر ماتت وخديجة أيضًا..

سـيموتون جميعًا قبله، عاش والده طويلاً وسـيحيا مثله.. لا يشرب المخدرات ليموت كأخيه.. سيبقى على قيد الحياة حتى تصبح أراضي القرية باسمه سيقاتل حتى اللحظة الأخيرة..

ليـس مـا نجنيه من المعارك هـو المهم أحيانًا، الأهـم أن نبقى نقاتل وننتصر حتى اللحظة الأخيرة..

في ألـم وقسوة نظر إلى وحيده قائلاً كأنه يصدق ما يقول:

ـ أرثـك أنا، وإن وجدت أن عليَّ الإنجاب أنجب من جديد غندورًا غيرك يستحق أن يحمل الاسم ويقاتل من أجله!!

***

لا شيء في هذه الحياة أسوأ من الاعتياد!!

هـو قيد يؤلمك ولا تملك إلا أنّ تحكم إغلاقه حول معصمك رغم أنك وحدك تملك المفتاح!!

اعتـادت أن تحمـل له طعام الغداء كل يوم حتـى أصبح قيدًا وفرضًا عليها، إن حاولت التملص منه اتهمها زوجها وأمه بإنكار الجميل..

ما زالـت أمه بين الحين والآخر ترمي لهـا بكلمات تخبرها فيها أنها صنعت فيها معروفًا كبيرًا حين قبلت زواج مطلقة هاربة لا أسرة لها من وحيدها الذي ينفق عليها وابنتها، بل وقبلت ان تحيا معهم!!

نظـرت خديجة إلـى بطنها المنتفخ وابتسـمت في مـرارة.. ربما أمه على حق..

عـام قبـل زواجهـا وهـي تتصيد رجـلاً يتزوجهـا في أزقة وشـوارع الإسـكندرية لتعود كل ليلة بخيبتها إلى الغرفة التي قامت بتأجيرها بعد هربها كالمجرمين من دمرو..

عـام كامـل التحقت فيـه بالعمل كمشـرفة على باص أحـد مدارس الأطفال، التقت شبابًا كثيرين.

لم يقبل بها أحد منهم؛ لأنها لم تخبر شابًّا فيهم أنها تملك نقودًا..

أم زوجها على حق.. هو معروف كبير أن تزوجها ربيع، وذهب بها إلى أمه لتحيا معهم نصف زوجة.. أخبرتهم كل شيء عدا الاسم الحقيقي لقريتها، وعدا أنها تملك مبلغًا كبيرًا، أودعته أحد البنوك.. لن تنفق مليمًا من هذه النقود إلا على جنينها حين يكبر..

أصبحت خطواتها ثقيلة، لكن ما زال خروجها بطعام الغداء إلى ورشة زوجها القديمة أرحم من البقاء مع أمه وأخته في البيت..

ربيع ليس سيئًا، ليس فيه من فريد شيء.. لماذا دومًا تقارنه بفريد، وتنسى كل من تمرغت بين أيديهم..

رغم كل شيء، وأي شيء يبقى فريد حب طفولتها ورجلها الأول..

رغم تسلط عمتها، وغرور الغندور، لم تنحن يومًا في بيتهم تمسح البلاط، أو تقف ساعات لتغسل أكوامًا من الثياب، أو الصحون..

عاشت رخاء ممزوجًا بالألم، واليوم تعيش فقرًا مخلوطًا بالذل والمَن..

ليست نادمة، بل تفعل أكثر مما تفعله إن كان عليها أن تفعل لتكون كما هي اليوم "مشروع أم"!!

لا يضير أن تموت المرأة دون أن تحيا في بيت كالذي عاشت فيه زمنًا، لكن تموت دون أن تحيا لحظة إن لم تشعر بحركة جنين في أحشائها، أو تعد ثوبًا صغيرًا وتنتظر من يرتديه وتحمله بالقرب من صدرها ليرضع منها حليبًا وحياة!!

عرض عليها زوجها كثيرًا أن يأخذها إلى أمها، أو أن يرسل في طلبها إليهـا لكنها تخجل أن تفعل.. تخجل أن ترى أمها كيف عادت تحيا في بيت أكثر فقرًا من بيتهم القديم..

لم تفهم أمها يومًا حاجتها لأن تكون أم..

غالبًـا تنسـى الأمهـات هـذا الاحتيـاج فـور حصولهـن علـى أبنـاء ويستنكرونه على سواهم..

ستذهب تحمل ولدها هي وزوجها عندما تلد.. ستدخل إلى دمرو تحمل طفلها ليعلم كل من يراها أن فريد الغندور عقيم، وأن أباه كاذب كبير!!

حيـن وصلـت إلى ورشـة زوجهـا الصغيـرة الضيقـة في أحـد أزقة الأنفوشي رأته يتصبب عرقًا مثلها وهو يقف على آلة الخراطة..

ورث الورشـة الصغيرة عن والده، تعلم أن دخلـه منها بالكاد يكفيه هـو وعائلتـه، وأن دخولها إليهم عـبء ما كان يحتملـه لكن هي صفقة ناجحة..

أصبـح زوجًا، وأصبح لأمه وأخته خادمة أكثر منهم تحضرًا ورقيًا، وأيضًا يصبح لهم حفيد..

التقـط بعينيه حبات العرق على وجهها الجميـل، وأغلق آلته وتقدم نحوهـا يلتقط منها "عامـود" الطعام ثم دفع بقدمه مقعد خشـبي صغير إليها لتجلس، وقال:

- تأخرتِ، ارتاحي قليلاً ثم عودي إلى البيت، أظن أمي تحتاجك هناك أكثر..

اعتادت أن تلبي لهم ما يحتاجونه دون أن يفكر أحدهم ماذا هي تحتاج؟ لكن كل ما كانت تحتاجه من الدنيا أصبحت في أحشائها تحمله..

السؤال الكبير الذي يلاحقها منذ خرجت هاربة من دمرو، هو هل يستحق جنينها حقًّا كل ما فعلته وتتركهم بها يفعلونه!!

* * *

ما زال يتجول كعادته في مدينة "ليجولاند"..

ادخر عزيز مبلغًا لا بأس به لكنه ما زال يتألم..

شفيت الجراح، وأصبح يهفو إلى النساء من حين إلى آخر، لكن وحدها الروح ميتة في الضلوع..

ما زالت قصة زوجته هي وجنينها تطارده في أحلامه على فترات متباعدة، لكن ما عادت كسابق عهدها تبكيه!!

ما زالت أصابعه تتحسس جراح ركبته لكن ما أصبحت نوبات الألم تهاجمه كسابق عهدها..

عمله الجديد لا يسمح لها أن تصل إلى حد التكشير عن أنيابها، ولا هو عاد بالشعور بالذنب يجلد نفسه كل ليلة..

الزمن يقتل صوت الضمير!!

الضمير صوته يخبو لكن الحنين والشوق يعلو صوتهما مع الأيام!!

عشرة أعوام مرت منذ ركب البحر، والتقى يُسْر، ثم سرقها وهرب..

عشرة أعوام بعيدًا عن وطنه وقريته التي ظن أنه لن يجرؤ يومًا على العودة إليهم..

بدأ صوت الحنين يغالبه حين بدأ صوت الضمير يخبو بداخله..

لو أنه فقط يعلم كيف يصل إليها..

معها قد يصفح عن نفسه، معها قد يصبح حتى للجنس الذي استعاد قدرته على ممارسته طعمًا آخر..

رفع رأسه، وأخذ يجوب بعينيه أركان المتنزه الذي يجلس فيه..

كل شيء في الدانمارك أجمل وأرقى، لكن هو كحديقة الحيوان التي ينقلون إليها الحيوانات..

الطعام متوافر، والحياة دومًا موجودة لكن الغابة دومًا تناديهم.. بمخاطرها.. بظلمتها وبالبحث فيها عن مأكل ومشرب..

الحرية في الغابة وإن كان الموت فيها!!

لو أنه فقط يعلم كيف وأين يجدها؟

سينثني على قدميه أمامها، ويقص عليها كيف قتلوا زوجته وجنينه؟ وكيف صوبوا رصاصهم إلى ركبتيه ليبقى عاجزًا عن إسعافها، أو حتى الوصول إليها ليمسك بيدها وهي تموت..

يُسْر لم تعد إلى مصر.. لم تعد إلى الغابة.. يشعر بأنفاسها في هذه القارة..

كيف يصبح من حق بائع الحليب أن يراها، ومن حق بائع الجرائد أن يتحدث إليها ومن حق أي إنسان أن يناديها باسمها، وتستدير لتنظر إليه، ويكون عزيز وحده أكثرهم لها احتياجًا وعن أي من هذا يعجز!!

هربها من مطعم بوسكيمي يخيفه.. ربما اضطرت إلى بيع جسدها وربما ما زالت تفني أصابعها في مسح وغسل أدوات مطعم آخر..

كيف يصل إليها؟!

عهد عليه إن وجدها أن يأخذها إلى مصر، أو روسيا ليبحثا عن أمها..

أصبح ما معه من نقود يكفي لشراء تذاكر إلى أحد البلدين، بل ربما كلاهما معًا!!

لو لم يسرق نقودها ما جاء ولا التقى وليد وأصبح لديه نقود..

يشتاق أناملها التي كانت تهوى مداعبة تفاحة عنقه.. يشتاق رائحة براءتها، وطهرها، وهي تنظر إليه في خجل ينام على سرير مقابل لسريرها كأنها تتمنى لو يدعوها إلى ذراعيه!!

لو أن الأيام تعود، والأعوام تمنحه فرصة واحدة لما تركها ليلة تنام على الفراش البعيد.. لضمها كل ليلة إلى صدره.. ترى على أي صدر هي اليوم تنام، وهل تراها حقًّا تعرف كيف تنام!!

لِمَ لا يذهب بنفسه إلى إيطاليا ويلتقي بوسكيمي.. إن كان ضميره غفا فلابد أن غضبها عليه هدأ..

سيخبرها أنه لا يريد سوى خيط إلى يُسْر يقوده..

هز رأسه في ألم..

لن يفعل.. يعلم أنه لن يفعل!!

هذا الحديث الذي بقي يكرره على نفسه كل هذه الأعوام غدًا وحين بداية الأسبوع سينساه، وسيأتي في عطلة الأسبوع القادم ليعيده من جديد، ويمضي عامًا تلو عام حتى يأتي اليوم الأخير في عمره..

لا هو وجد يُسْر، ولا أخذ بثأر زوجته..

هكذا يموت الناس جميعًا ينتظرون تحقق أحلامهم، وهم على مقاعدهم يتألمون!!

* * *

وضعت قدرية كوب الشاي أمامها كأنها تكاد تلقيه، أو تحطمه..

مـاذا جنت؟! مات أحد أخويها، وانقطع عنها الآخر بعد فجيعته في هرب ابنته بعد طلاقها منذ أعوام..

فريد كالشبح منذ هربت منه يُسْر، ولفظته خديجة!!

زوجها الذي كان كالمارد لا شـيء بقي منه سـوى نقود، لا يعرفون لمن ستؤول بعد أن غابت شهيتهم جميعًا في الاستمتاع بها..

بهجـت الغنـدور يـزداد نحولاً وشـحوبًا.. سـاقه المعتلَّة اسـتبدلها بعكاز يتوكأ عليه..

وهـذا النحـول الذي بدأ يدب في جسـده يحـاول أن يسـتعين عليه بمزيد من الأطعمة لكن لا شيء..

مـا زال عنيدًا عتيـدًا يرفض الذهاب إلى الطبيـب، ما زال كل صباح يصطحب ولده، ويتفقد أراضيه ويشتري المزيد منها..

هـي ووحيدهـا أدركا الحقيقـة لكـن مـا زال الغنـدور يحـارب في شراسة..

العمر لا يُحارب.. الشيب لا يُقهر!!

أقسم عليها ألا تذهب إلى أخيها لكن لا تريد أبدًا أن تموت، أو يموت هادي وهما على خصام.. ارتدت ملابسها واليوم تذهب وليفعل الغندور ما يفعله.. ما عاد شيء يعينها علَّ عودة الأخ تعينها!!

خديجة هربت واليوم تراها قدرية على حق!!

كسرها عقم ولدها.. شطرها نصفين لكن ما زالت كراهيتها لأوليجا وابنتها قطعة خرسانية كبيرة..

هي لعنتهم التي حلت بالغنادرة، ولحقت بها وبأخيها!!

ستذهب إلى أخيها، وليفعل زوجها ما شاء..

أصبحت حتى رؤيته، وهو يتحول إلى شبح تخيفها!!

حين نهضت من مكانها تشحذ كل قواها للخروج إلى بيت أخيها قبل حلول الظلام سمعت هاتفها الصغير يدق وحين أجابت ولدها سمعته على الهاتف يقول في ألم ودون حزن:

ـ سقط والدي ونحن الآن في مستشفى كفر الشيخ يبدو أننا نواجه مرضًا خطيرًا.. هل تأتين؟!

أخبرته بعد تردد أنها ستأتي ومضت نحو السيارة بعد استدعاء السائق في ألم..

حتى في اللحظة التي قررت فيها تحطيم أغلال الخوف والذهاب إلى أخيها بعد أعوام القطيعة والخصام يقف الغندور بينها وبين ما تشتهيه حائلاً، وإن كان بضعفه وما يدعوه ولدها مرضًا خطيرًا!!

***

حملت كوب الشاي بعد أن أطفأت فرن مطبخها الصغير، وخرجت من باب البيت الصغير الذي يقع على أحد أسطح العمارات القديمة بمنطقة "جليم" في الإسكندرية، جلست على المقاعد التي تناثرت حولها أصيصات الزهر والرياحين التي وضعتها لتصنع من "رووف" شقة قديمة متهالكة حديقة صغيرة رائعة تطل على بحر الإسكندرية من بعيد..

نصف ما حصلت عليه "ناتاشا" من التعويض الذي صرفته لها حكومة بلدها وضعته في هذا المكان وليست نادمة..

خمسة أعوام منذ عادت بعد تلك الليالي التي ظنت أنها تلتقي فيها زوجها وابنتها..

ما كان من الممكن أن تعود للحياة في روسيا أبدًا..

وطنها وضعها في السجن ظلمًا أعوامًا طويلة.. وحين اكتشفوا براءتها رموا لها بحفنة نقود ذاقت الأمرين حتى الحصول عليها..

ظلمها الغنادرة هنا.. ذبحها بهجت بأطماعه وتسلطه، وطعنها عصمت بخياناته واستهتاره..

حتى ابنتها تشعر بها ظلمتها يوم عودتها والبحث عنها!!

فلتظلمها هذه الأرض وسكانها كيف شاءوا.. ظلمهم أهون من ظلم الوطن!!

ما زال الغريب يحيا.. ما زال في عينيه لها حب وفي صلاته لها نصيب..

تجاوز الثمانين لكنه يزورها كل أسبوع في يوم إجازتها من المدرسة..

يأتيها دومًا محملاً بالفاكهة، وقطع اللحم التي تحبها، وتحب أن تشويها له ليتناولاها معًا ثم يصليا..

هو يصلي العشاء، وهي تصلي لربها وبعد أن ينتهيا تسمعه يردد دعواته بصوته الرخيم ووجهه الذي أصبح كقطعة من وجه القمر..

هذا الرجل كلما زارها تشعر أنه اقترب من الموت.. لا يمكن أبدًا أن تحتمل الأرض كل هذا النور الذي يزداد ضجيجًا في حضوره..

في كل مرة وبعد أن ينهيا طعامهما يخبرها مبتسمًا أنه لن يموت إلا بعد أن يرى يُسْر..

تصدقه ناتاشا، تصدقه حتى باتت في بعض الأحيان تخشى ظهور ابنتها؛ لأنها تعلم أن فيها غياب الغريب عن أيامها..

أيامها؟!

قتل السجن فيها أشياء كثيرة.. ما عادت على الرقص تقوى، ولا عادت تسمع الموسيقى، أو تشتهي الغناء.. ما بقي لها سوى تدريب أطفال مدرستها كيف يرقصون الباليه..

تُعلّم أطفال مصر أن الرقص من هذا النوع فنًّا وليس ابتذالاً.. هو تحرر وليس مجونًا!!

كل فن لا يثير فيك غرائزك هو رسول سلام ورقي!!

ما زالت ترى يُسْر ترقص بينهم كما كانت تعلمها، ما زالت تتنسم رائحتها في كل صغيرة منهم ترتدي "التوتوز"، أو تصلح لها ناتاشا "اليوبار" الذي ترتديه..

لا يقتلها سوى الإجازات الصيفية وغيابها عن غرفة التدريب وأذرع الصغار..

في العطلات الطويلة تشتعل ألسنة غضبها على الغندور، وتتمنى لو تذهب إليه وتنشب أظفارها في عنقه، وتصيح تخبره أن ابنتها ما زالت غائبة، وأنها عادت تريدها لكن الغريب دومًا يعيدها إلى عقلها..

عدم النظر إلى وجهه أفضل وحسابه مع خالقه أكبر..

ستبقى تعمل، العمل والحب وحدهما من يأخذاك من كل شيء تعجز عن الهرب منه، أو تعجز حتى عن مواجهته!!

هل تموت ناتاشا دون أن تضم ابنتها إلى صدرها؟!

لا تعلم..

رأته يقبل نحوها، وهو يلتقط أنفاسه الضائعة، ونهضت بسرعة تذهب إليه..

المصعد لا يصل إلى "السطح"، وعلى غريب أن يصعد بعض الدرجات الضيقة بعد الدور الأخير..

نظرت إلى لحيته البيضاء، وعينيه المغسولة بالحزن والرحمة، التقطت منه ما يحمله وضمته إلى صدرها في حنان ليستند عليها قليلاً، ويخطو نحو مقاعد حديقتها التي يحبها قائلاً:

ـ صنعتِ جنة من ذاك المكان يا أوليجا..

نظرت إليه في عتاب ليكمل:

ـ ما زالت ناتاشا صعبة عليَّ.. كيف أمورك؟

أخبرته ألا جديد، وغابت عنه تغسل قطع اللحم التي أحضرها لتضعها في "التتبيلة" التي جهزتها وعادت إليه لتجد أنفاسه هدأت، وبدأ ينظر نحو البحر البعيد، وقال:

"سئمت تكاليف الحياة ومن يعش.. ثمانين حولاً لا أبا لك يسأم"

وضعت على رأسه قبلة حانية، دومًا يردد أبيات "زهير بن أبي سلمى" ودومًا ترجوه ألا يفعل وقبل أن تقول سمعته يقول في صفاء:

ـ أريدها أن تعود.. في عودتها راحتي وأوان رحيلي..

قبل أن تفتح ناتاشا فمها بكلمة قال غريب:

ـ الغندور مريض.. شهور وهو يعاني أوليجا.. يدرسون سفره إلى الخارج.. أظنه يحتضر!!

دون وعي منها رفعت عينيها وفيهما بريق تشفٍّ وفرح ونكس الغريب رأسه قائلاً:

ـ حاولي أن تسامحيه علَّ الله أن يرد لنا ابنتنا!!

***

ضمتـه إلى صدرهـا في حنان، وانثنـت تفتـرش الأرض إلى جواره ترقب بحيرة كومو..

وضع رأسه على فخذيها في تراخٍ وكسل، ابتسمت يُسْر، وهي تربت على شـعره القصير، كان كلب بچادٍ لا يقترب من أحد، وأصبح يقترب منها، ويلتصق بها أكثر من زوجها..

أصبحت شهرتها كبيرة، وأصبح في كثير من الأحيان تخونه السيطرة على مشـاعره فيبدي غضبه من نجاحها الذي أصبح يضاهي نجاحه إن لم يكن أكبر..

هـو دومًا وبين الحين والآخر يخبرها أن الموسـيقى أرقى من الغناء لهـذا عدد من يفهمونها أقل، هو أيضًا دومًا يتهمها بالتبسُّـط المبالغ فيه مع المارة والمصورين والعامة والأطفال..

لا تغضب أبدًا من انتقاداته ولا تشعر قط أنها تنافسه..

رغـم احترافها الغنـاء ونجاحها العظيم فيه، رغـم تجاوزها الثلاثين ورغم استدارة جسدها وبهائها إلا أنها ما زالت ترى بعينيها الحقيقة..

دروس القـدر لا تقـاس أبـدًا بعمرها الزمني، صفعاتـه لا تقاس أبدًا بكثرتها، بل بقوتها وفي أي مكان تصيبك..

هناك أناس تصيبهم أقدارهم بصفعات كثيرة عشوائية متفرقة لا تترك فيهم أثرًا وهناك صفعة واحدة قوية موجهة نحو الرأس تقشع عنه الوهم ونحو القلب تطهره ونحو العين لنبصر، أو نعمى..

دروس القدر ليست أبدًا بتكرارها، بل بقوتها وتركيزها..

هناك محظوظون يأتون الحياة ويغادرونها، وهم يحاربون كثيرًا كالبلهاء، وتعساء قلائل يرفعون للألم قبعتهم ويرون الحياة على حقيقتها!!

كثيرًا ما يعاتبها زوجها حين يراها لا تكترث لكل ملابسها التي يشتريها، وتحلم نساء الأرض بمجرد المرور عليها بأصابعها.. كثيرًا ما يرفع حاجبيه حين يرى دمعة تتجول في عينيها وهي في قمة نشوتها عارية بين ذراعيه..

لا هو يفهم ولا هي تستطيع أن تجهل!

قست عليه الأقدار، وصنعت منه أسطورة، لكن جميع دروسها له ما أصابته في عين أو قلب!!

ليست ناقمة، بل هي هادئة، هو يتفتت على موسيقاه ويفنى ليبقى الأعظم أما هي ما زالت تتعلم كيف تستمتع بما يُلقى في طريقها، وتدرك أن كل ما هي فيه يومًا يغيب، وكل ما تظنه خالدًا لم يعد لها فيه أي حق!!

بؤساء من يدركون الحقيقة، إلا أنهم رغم بؤسهم هم دومًا إلى قلوب الناس أقرب!!

جالت بعينيها على البيوت والقصور التي تجاور منزلهما وابتسمت.. منذ أعوام اشترى "جورج كلوني" البيت المجاور لهم..

كثيرًا ما كان يقف حين تمر من جواره ليحييها، أو يبتسم في انبهار.. لا تنسى أبدًا كيف أرسل زوجها له دعوة للعشاء في منزلهم ليعلم الرجل أن يُسْر زوجته، وأن عليه أن يتعامل معهما كشخص واحد..

جاء "كلوني" يحمل هدية رائعة وقبَّل كفها، كانت وكان يعلم أنها زوجة فركال، ما عاد أحد من مشاهير أوروبا لا يعلم.. لكن على وجهها مسحة لا توجد على وجوه جميلات الأرض ومشاهيرها.. لمحة لا أحد يعرف كيف يفسرها..

يفسرونها بالبساطة، أو الطفولة لكن وحدها تفسرها بالألم..

رحيل والديها دون حتى أن تراهم، غدر عزيز وخديعة أمينة، رحلة البحر تلك، صرخات حنان ما زالت تهدر في أذنيها..

كلما أخبرها زوجها برصيدها الجديد بعد كل حفل كبير يقيمونه، أو كلما رأت صورها في الجرائد، أو شاشة التليفزيون، كلما وقف لها الناس في الشوارع التي يسمح لها زوجها بالسير فيها، ورأت كيف يشهقون حد البكاء عندما تبتسم لهم في حنان، أو تحمل عنهم أطفالهم وتضع على جباههم قبلاتها.

كلما حدث شيء من هذا شعرت أن شيئًا في رأسها يهمس أنها عن الناس تختلف لكن تنتصب أمامها كل الصور القديمة ودومًا أبدًا حين

يهــدر بــكاء حنان فــي أذنيها تعلم أنهــا أدركت الحقيقة ومــن يدركها لا يكون أبدًا في غرور بچاد، أو حتى زهو "كلوني"!!

نعــم تألــم زوجها، وترك أرضــه لكن ألمه جعله ناقمًــا على الأرض شاعرًا أنه أفضل من فيها!!

وحدها تعلم أن الأرض بكل من فيها فقاعة هواء في لحظة تتبدد..

ســعيدة هي بزوجها، ســعيدة دون شــك بحياتها لكن حتى الســعادة لهؤلاء الذين عاشوا الموت لها معنى آخر!!

فــي العــام الأخيــر زاد تمردها على أوامــره.. أصبحت تخــرج كثيرًا وحدها لتســير في شــوارع الجزيرة بصحبة كلبهم، أصبحت تتمرد على ثياب بيــوت الأزياء الكبيرة وترتدي ملابس بســيطة كأمها.. وأصبحت أيضًا أكثر خجلاً من نفسها..

ما زالــت تحلم بلقاء عزيز.. ما زالت تتمتم "يا عزيز عيني" ما زالت تسأل نفسها كيف تحب سارقًا، وتراهِ حتى وهي بين ذراعي زوجها..

جعلها خجلها أكثر رقة..

بل جعلها أقل حديثًا وأكثر إنصاتًا..

ليس استســلامًا، بل هو رضــا وقناعة.. زوجها يتولى أمر كل شــيء ودومــا يخــرج مــن يده كل شــيء في أبهــى صــوره.. يختار لهــا ومعها الكلمات والألحان، يقف حين تغني خلف ستار المسرح بذات الرعشة التي يقف بها قبل دخوله إلى تقديم عرضه الخاص..

الفارق الوحيد والكبير بينهما أنه يشعر بالزهو والسعادة حين يصفق له الناس مؤكدين له أنه معجزة وتشعر هي بالزهو والفرح؛ لأنها أسعدتهم حتى التصفيق..

كل الأشياء التي تسعدها غابت لتبقى تمنح وتسعد الآخرين!!

أزاحت رأس صديقها النائم عن فخذيها، ووقفت ترقص كعادتها كلما أنهكتها الذكريات..

أخذت تدور كالفراشة، وهي تذكر كلمات أمها الأخيرة، وصحن البيض الذي كان يصنعه لها والدها..

طارت في الهواء، وهي تذكر عناق عزيز وتفاحته، وكم عشقته وكيف بدناءته حرمها منه..

انثنت وتكورت وهي تذكر لطمات عمها على وجهها مرة يوم هربت أمها ومرة بالماء بعد موت أبيها!!

أخذت تدور دوراتها المجنونة تلك كأنها تسأل هل نسيها الغريب أم أنه بقي يذكرها ويذكر أمها حتى الموت!!

كل شيء يسعدها، ويحييها محرم عليها، وبعيد عن الأرض!!

يبدو أن من تلفظهم أوطانهم ويستعفف البحر حتى عن ابتلاعهم هم أشقياء حتى يأتيهم ملك الموت!!

كانـت هائمـة مغمضـة العينيـن ما زالت حـول ذكرياتها، وأسـئلتها تدور حتى شـعرت به يحاصرها بذراعيه، وفتحـت عينيها في ذعر لتراه يضمها، ويقول مبتسمًا:

جاوزتِ الثلاثين، ومازلت ترقصين كالمرة الأولى..

احتمـت بذراعـي زوجهـا فوحـده مـن جعل منهـا مصدرًا لإسـعاد الآخريـن، أغمضـت عينيهـا وأنفاسـها ما زالـت مـن رقصهـا ثائـرة، وهمست:

ـ بعد حفلنا القادم سأخبرك أمرًا كبيرًا..

أخـذ شـفتيها بين شـفتيه في قبلـة طويلـة كادت تغيب فيهـا عن كل شـيء، حيـن يقبلها، أو يمـارس معها الحب تشـعر به يفعلهم برأسـه.. بخبراتـه وبـكل تجاربـه.. يريد دومًا لكل شـيء أن يخرج مـن بين يديه ومن تحتهما حد الكمال.. رغم أنها يسـعدها ويطربها ويُنشـيها إلا أنها دومًـا تحلـم بعناق مبعثـر يتخبط في تلقائيته ويكتشـف وتكتشـف معه أغوار أنوثتها ورغباتها..

لن تفكر في عزيز، لن تفكر في المستحيل..

ضغطت رأسها إلى صدره، وعادت تلتقط شفتيه، وهي تهمس:

ـ أخبرك أمرًا كبيرًا هو بداية لعهد جديد..

كان صدرها يتهدج، وكان يشـعر أنها تريده، بل هو لا يشـتهيها قدر اشتهائه لها حين يثير فيها رغبتها وجنونها..

ضمها يقول:

ـ لا أكبر من حفل الشهر القادم، رئيس الوزراء الإيطالي والسفير الجزائري وأيضًا.. أيضًا..

نظرت إليه في دهشة، وقال في زهو مشيرًا إلى وجنته بأصبعه:

ـ ضعي على وجنة فركال قبلة من شفتيك لأخبرك.

قبلته قبلة مرحة ووضع ذراعه حولها يخطو بها إلى غرفتهما، وهو يقول:

ـ دعوت السفير المصري، سيأتي هو وعدد من الجالية المصرية.. أليس هذا شيئًا مثيرًا؟! فليصطفوا ليروا من أنت ومن هو فركال وماذا صنع منك!!

* * *

على باب أحد المحال القديمة في حواري "الأنفوشي" وقفت ناتاشا تشتري توليفة الأعشاب التي ترقد فيها قطع اللحم التي تتناولها هي وغريب في عشائهما الأسبوعي..

حين استلمت مطلبها ومنحته نقوده دون حتى أن تسأله مضت تخطو نحو الشارع العام تنظر حولها في دهشة..

هذه الأزقة المليئة بالمحال والورش لابد أن فيها ألف قصة كقصتها..

كل القصص جذورها الفقر والخوف والحاجة إلى الأمان..

لولا خوفها ما هربت من بلادها، ولا التقت الغندور، وفقدت حبًّا وعمرًا وابنة..

لولا فقرها ما اضطرت إلى الحياة مع تلك المرأة التي اتهموها ظلمًا بقتلها.. ولولا غياب العدل والضمير ما سجنوها ظلمًا، ولا فعل الغندور بها، وبابنتها ما فعل..

اليوم يأتي الغريب، وتسأله عن آخر أخبار بهجت.. ما زال يطربها أن تعرف أنباء مرضه وما زال يقرأ تشفيها في عينيها ويرجوها الصفح عنه..

ما زال وما زالت وما زال كل شيء كما كان عدا عمرها وعمره..

الغريب يموت، وهي تخطو نحو الشيخوخة.. اليوم تعبت في تمارين مدرستها، ارتمت على مقعدها تلتقط أنفاسها كما تفعل الآن، وهي تبحث عن ملامح الشارع العام لتوقف سيارة تعود بها إلى بيتها..

رغم أن عينيها كانتا زائغتين إلا أنها رأت المرأة الشابة التي كانت تحمل في يدها "عامود طعام".. رأتها تخطو باتجاهها، كان واضحًا أنها على وشك الولادة، أو ربما هي بالفعل تعاني آلام المخاض..

كانت تعض على شفتيها، وقطرات غزيرة من العرق تتساقط من جبهتها السمراء..

فلتعبرها وتمر من جوارها، ناتاشا لا تفتح فمها بالحديث خارج أسوار المدرسة مع أحد سوى الغريب وذكرياتها، قبل أن تمر من جوارها سمعت صرخة صغيرة تخرج من فمها ليسقط عامود الطعام كأنها ما عادت تحتمل الألم..

أمسكت بها بين ذراعيها في لهفة، وقالت في عربيتها الواضحة رغم لكنتها المختلفة:

ـ هل أنتِ بخير يا ابنتي؟!

نظرت خديجة إليها في ألم تقول:

ـ ابق معي.. حادثت زوجي وسيغادر ورشته ويأتيني.. كنت أظنني أصل إليه لكن..

صرخة أخرى صغيرة أطلقتها لتستند على ذراعي ناتاشا التي سارت بها حيث رآها البعض وأحضروا مقعدًا للمرأة الحامل التي رفعت رأسها تنظر إلى أحد الحواري، وأشارت بيدها تقول:

ـ هذا هو زوجي قادم..

صاح أحدهم يقول:

ـ ربيع.. تعال.. هي هنا..

ابتسمت ناتاشا في حنان تربت على رأسها، وتخبرها أنها ستكون بخير.. يسعدها كثيرًا أن ترى كيف يعرف المصريون أسماء بعضهم البعض، وكيف في لحظة الاحتياج يمدون يدهم، وإن كان لمن كانوا يناصبونه العداء.

حين جذب ربيع زوجته، وهو يتمتم بكلمات شكر على مسامع السيدة، ومضى بزوجته سمعته يسأل زوجته ماذا تريد؟ وأين عليه أن يذهب بها؟

سمعت بأذنيها زوجته ترد باكية:

ـ افعل ما شئت لكن أرجوك أحضر لي أمي.. خذ رقم هاتفها وحادثها.. لا أريد أبدًا أن ألد دون أمي!!

هناك أسئلة قد لا نعرف إجاباتها تمامًا كما هناك وجوه قد نلتقيها ولا نعرفها، أو تعرفنا رغم كل ما يجمعنا بها ويربطنا!!

أرخت رأسها، وهي تخطو نحو سيارة أجرة وقفت لها وشعرت بدمعة تطفق في عينيها..

ما تراها يسر فعلت كل هذه الأعوام بدون أم!!

***

لا يحب قضاء يوم إجازته في بيتهم، هو اليوم الوحيد الذي يتجول فيه عزيز في شوارع "ليجولاند" ويفتح صندوق ذكرياته ليجتر من الألم ما شاء لكن أصرَّ وليد اليوم على حضوره ليحتفل معه وزوجته بعيد زواجهم..

شكرته زوجة وليد على هديته وبدأت في التحضير لمائدة العشاء، يخجل أن يطلب منها خفض صوت التليفزيون الذي لا يفهم الكثير مما يدور فيه ولكي يهرب من الصراخ ليسمعوه أو يسمعهم دخل إلى المطبخ ليقوم بتقطيع خضراوات "السلاطة"..

قضى في هذا البيت شهورًا طويلة في بداية حياته في الدانمارك، كان وليد مع زوجته يعدان المائدة ليدخل إلى عزيز ويخرج ببعض الصحون ويعود إليه مرة أخرى..

ليت إحداهما معه، ليت مها عاشت لتأتي وليت طفلهما عاش ليأخذه إلى "الليجولاند" وليت يسر تعود، أو يعرف لها طريقًا وتقف هنا معه ويخرج بها إلى وليد وزوجته..

أضاع أغلى امرأتين إحداهما رغمًا عنه، والأخرى رغمًا عنها!!

يعلم أن يُسْر أحبته، بل ربما أحبته أكثر مما أحبها في تلك الأيام التي كان قلبه فيها يصارع فكرة دخول أخرى إليه..

الآن هو يحبها أكثر!!

كان صوتها في أذنيه، وهي تغني وأغمض عينيه لتسقط دمعة صغيرة منها رغم أن يده ما زالت بسكينها تهوي على قطع الخيار، لماذا لا يفهم كلمات الأغنية هذه المرة؟!

فتح عينيه، وهو يصرخ صرخة صغيرة، أصابته السكين بجرح صغير لكن ما صراخه لهذا أبدًا!!

كان ينظر حوله في جنون، صوت يُسْر لا يخرج من ضلوعه ككل مرة، صوتها من صالة بيت صديقه يأتي!!

كان وجهه باهتًا كأن قطرات الدم التي تسقط من إصبعه هي آخر ما بقي في جسده من دماء، ركض نحو مصدر الصوت، واستدارت أنيتا زوجة وليد إليه، صاحت حين رأت قطرات الدم ليركض صديقه يسأله إن كان بخير..

في ذهول أخبرهم أنه سمع صوتًا يغني، كان يبكي وهو يظن أنه جُنّ، أمسكت السيدة بإصبعه تضغط عليه لتوقف تسرب قطرات الدم، وقالت في عربيتها الضائعة التي تعلمتها من زوجها:

ـ هي من بلدكم لكن أنتم لا تعرفون.. حتى وليد لا يستمع إلى أغان، أو موسيقى.. ليست الأغاني، أو الموسيقى مجون، أو سد فراغ بل..

قبل أن تكمل نظر إليها يستجديها، وهو ينظر إلى شاشة أخبار التليفزيون في ذهول قائلاً:

ـ أين ذهب الصوت؟ أين؟!

أخبرته أنه كان خبرًا عن امرأة أصبحت من مشاهير الغناء في إيطاليا وأوروبا بأكملها وصاح يستجديها أن تجد له طريقة يسمع ما سمعه، أو يرى صورتها..

شعرت أنيتا أن القضية أكبر من إعجابه بصوتها الذي يأسر كل من سمعها، ونهضت قائلة:

ـ سأحضر لك جهاز الكمبيوتر.. لو أنكم أيضًا تستعملونه لما غاب عنكم شيء..

كان وليد يرقبه في ذهول، وحين عادت زوجته، وكتبت حروف اسمها كما يكتبونها، وحين أطلت رفيقة روحه على "اليوتيوب" تغني إحدى أغانيها باللغة الإنجليزية، بكى ومد أصابعه يتحسس شاشة "اللاب توب" في ألم، وهو يهمس:

ـ هي يُسْر الغندور!

ابتسمت أنيتا ابتسامة صغيرة، وأردفت:

نعم هي "يوسر"!! هل تعرفها؟!

من خلف دموعه سألها ماذا كانوا عنها في الأخبار يقولون، وأجابت:

ـ ستقيم حفلاً كبيرًا هي وزوجها بعد أسابيع!!

من عينيه فهمت ما يريد أن يسألها عنه، وأكملت تقول في خجل:

ـ هـي زوجة لبچاد فيركال أشـهر موسـيقي أوروبي.. معـه تحيا في جزيرة كومو عزيز.. أغلى مكان في القارة بأكملها..

كانت عيناه تتبعان أصابعه التي تتحسس وجهها على الشاشة، ونظر إلى صديقه قائلاً:

ـ أريد تذاكر لهذا الحفل، هل تساعدني؟!

في سكون أجابه:

ـ بإمكانك أن تشتريها "أون لاين" أليس كذلك أنيتا؟!

نهض عزيز، ونظر إليه يقول:

ـ بل تشـتريها لي أنت، أسـافر إلـى مصر غدًا لأعـود بالغريب إليها، وحده قد يجعلها تغفر لي ما فعلت!!

***

لم تعد أبدًا تستطيع أن تلعب دور القديسة "تيريزا"، لم تعد ناتاشا أبدًا تكتفي بأخبار الغندور التي يخبرها بها الغريب، أصبحت تحادثه كل يوم لتسأل عنه، يجب أن يعلم أنها هنا.. يجب أن يعلم أنها تعرف كم يتألم، بل تريد أن تخبره أنها فيه شامتة، ليس تشفيها فيه بغضًا، أو سوادًا، هو إعلان بقوة الله، بعدله وقصاصه..

بإمكانها أن تستشهد له بآيات من كتاب ربه، آيات هي فهمتها، وهو يقرأها كل يوم ولم يع منها حرفًا..

فلتذهب إليه، ولتتلو على مسامعه بعضًا منها، ولتملأ عينيها من ألمه، علَّ روحها الشريدة تهدأ..

أطرقت برأسها لحظات، ثم نهضت تفتح درجًا به أوراق أخذت بعضها، وجلست تمسك بالقلم..

لن تذهب إليه، تخشى أن يرق قلبها لحاله.. الغريب أخبرها أنه عاد من سفره وأجرى عملية كبيرة، أصبح بعدها كالشبح..

ستكتب له رسالة..

بدأت رسالتها بكلمة **بسم الله العزيز المنتقم..**

كتبت، واستشهدت بآية من القرآن الكريم الذي لو وعوا حرفًا مما فيه ما وصلت إلى أن تكتب وهي خاوية الذراعين من وحيدتها تخشى الموت على مشارف الستين..

حين وصلت إلى آخر سطورها التي قالت فيها:

تألم، تألم كثيرًا وطويلاً..

ثم تألم أكثر وأكثر علّني أشفق عليك وأخبرك عن الدواء..

دعنا الآن فقط نحتفل وننتشي كلٌّ بطريقته..

أنت بأملك في الشفاء، وأنا بألمك في الموت والانتظار..

هل عرفت من أنا؟!

توقفت لحظات عن الكتابة، وأعادت قراءة ما كتبته مرات عديدة..

صور كثيرة ركضت على السطور.. صور يُسْر وهي طفلة تبكي، صورها وهي في السجن وصورها يوم أطلقوا سراحها..

صورة الغريب، وهو على عصاه يتوكأ، وعلى ضوء وجهه يخطو ما بقي من أيام عمره..

كانت آخر وصاياها لابنتها هي الصدق مع النفس فكيف لا تكون مع نفسها؟!

لا تريد شماتة، أو تشفيًا، قصتها مع الغندور أكبر من أن تتولاها، أو تختمها برسالة.. هي لا تريد سوى ابنتها..

مـا زال بداخلها شـيء يتمنى لـو تُكمل السـطر الأخير وتقـول "أنا أوليجـا" لكـن مـن خلـف دموعهـا أمسـكت بالورقـة، ومزقتهـا قطعًا صغيرة..

يكفيه ما أصابه، ويكفيها ذل الانتظار!!

حيـن نهضت تحمـل قصاصات الـورق بين يديها سـمعت طرقات متتالية على باب بيتها، سمعت صوتًا من خلف الباب يصيح:

ـ أنا غريب يا أوليجا.. غريب..

ركضت نحو الباب في جنون، ويدها ما زالت على فتات كرهها مغلقة..

هو صوت الغريب، لماذا أتى وكيف وماذا أصابه؟!

حين فتحت الباب وجدت معه شاب وسيم نظر إليها، وقال في أدب:

ـ عزيز الفوال سيدة أوليجا..

نظرت إلى الغريب لتجده يبكي، وهو يقول:

ـ وجد يُسْر، وجدها..

فتحت كفها في سكون لتسقط رسالة الغندور من أصابعها في تداعٍ كبير!!

هي رسالة لن يقرأها ورسالة عوضًا عنها جاءتها!!

فلتلقِ من يدها رسالة لن يقرأها..

ولتفتح رئتيها وذراعيها لرسالة أعوامًا انتظرتها!!

* * *

انتهت الوصلة الأولى التي عزف فيها فيركال قطعة موسيقية جديدة، وبعضًا من مقطوعاته الشهيرة، هو في كل حفل تشاركه فيه يُسْر يعزف بجنون، ويقود أوركستراه بجنون أكبر كأنه في تنافس عتيد معها يدخل..

ترقبه من خلف الستار وتبتسم دومًا، هي لا تفعل مثله، هي فقط لا تغني إلا ما يلامس أوتار وجعها، وتترك الوجع يقود القصة، ودومًا الألم صوته حتى من العبقرية أقوى..

بعد وصلته الأولى قدمت أغنية جديدة باللغة الإيطالية.. ألح الجمهور في سماع أغنية "أداچو" بعد أن أنهت وصلتها التي استمرت ساعة..

شيء غريب تشعر به في جنبات "تياترو ألاسكالا" اليوم.

هل هو عصف التصفيق؟! أبدًا اعتادت أن تسمع هذه العواصف وتبتسم، لم تركز يومًا معها كما ترى زوجها يفعل كأنه يقارن دومًا بين حصاد ما سبق وحصاد الليلة، أو بين حرارة تصفيقهم لها ليقارنها بتصفيقهم له..

ما شعرت به على المسرح اليوم شيء لا تفهم كنهه، هناك نسائم لها رائحة لا تفهمها!!

هناك أعين تشعر بها ترقبها غير سائر الأعين..

هناك دقات عنيفة في صدرها لا تفهم سرّها..

بعد انتهاء الأغنية الأخيرة التي ستقدمها باللغة العربية بعد لحظات كتحية لكلا السفيرين الجزائري والمصري ستخرج هي وزوجها لتناول العشاء..

ستخبره النبأ العظيم!!

نعم تخشى غضبه، أعدت له خطبة كبيرة لإقناعه..

تريد أن تحمل في أحشائها جنينًا تطلق عليه اسم أحد والديها..

لا شيء يحيرها إلا ماذا تسميها إن كانت فتاة؟!

هل تطلق عليها أوليجا أم ناتاشا!!

يجب أن يقبل فكرة الإنجاب التي أعلن كرهه لها ورفضه، لن يضيره، أو يضير الناس غيابها عنهم عامًا لكن هي بحاجة إلى من تضمه وقت شاءت لا حين هو يقرر أو يشاء!!

في خوف انتفضت حين اقترب منها زوجها هامسًا:

ـ توقعت أن ينفض كثيرًا من الجمهور بعد الإفصاح عن كونك تغنين بالعربية، لا أحد ترك مقعده، هيا يا صغيرتي أري القادمين من بلادنا من نحن؟ وماذا أضاعوا منها ومنهم!!

نهضت تلتقط من يده الميكروفون الذي منحها، وتقدمت من بين الكواليس نحو المسرح..

كانت الموسيقى تعزف لحن الرحبانية وعينيها على حذائها الأبيض واقفة..

كان ثوبها الأبيض مطرزًا بأكمله بحبات لؤلؤ متدلية كدمعات على فراق أرضها ووالديها تتراقص حول جسدها في حيرة..

تزداد جمالاً وثباتًا رغم أنها تزداد شوقًا وضعفًا!!

كانت الإضاءة خافتة تكاد تكون مظلمة على صفوف الحاضرين، وعلى المسرح وخشبته..

دائرة الضوء الوحيدة كانت حولها، وهي التي تلتف حولها الأبصار، في هدوء علا صوتها يغني "ردني إلى بلادي"..

ردنـــي إلى بـــلادي — مع نســـائم الغـــوادي

مع شـــعاعه تغـــاوت — عند شـــاطـــئ ووادي

مرات وعـــدت تأخذنـــي — قد ذبلـــت مـــن بعادي

ارمِ بي علـــى ضفـــاف — من طـــفـــولـــة غدادي

كانت تظن أن عشرات "البروفات" التي أجْرتها ورددت فيها كلمات الأغنية ستجعلها أكثر ثباتًا لكنها ضعفت أمام ذكرياتها.. ضعفت أمام وجه حنان، وزوجها ووحيدها.. عادوا إلى وطنهم جثثًا وها هي هنا تغني ولا تعلم كيف تعود، أو هل تراها تدفن هنا..

تلوّن صوتها الهادر بالدمع، وهي تقول:

نهرها ككف مـن أحببت خـيـر الوصـادي

لم تـزل علـى وفـاءٍ ما سـوى الوفـاء زادي

شـلـح زنبـق أنـا اكسـرني.. اكسـرني

اكسرني على ثرى بلادي

بقيت تردد بيت القصيدة الأخير مرات عديدة حتى شعرت وشعر الجميع أن جنبات لاسكالا وجدرانه تهتز لهدير صوتها ومعها تكاد تردد و تصلي..

كأنها غابت وكأنهم جميعًا معها غابوا، ما صفق أحدهم حتى رأوها تستعيد أنفاسها، وتفتح عينيها ليبدأ ضوء خفيف يظهر على صفوف الحاضرين الذين نهضت إحداهن عن مقعدها وتقدمت في خطوات سريعة في الممر الذي يتوسط الصفوف..

رأتها وظنتها أحد أضغاث أوهامها، لكنها كلما تقدمت نحوها خطوة سكت هدير التصفيق في أذنيها، وعلا هدير الأمل في ضلوعها..

كان زوجها من بين الستائر يناديها كي تدخل؛ لكنها كانت تتقدم نحو حافة المسرح حيث وقفت المرأة أسفله، ورأسها مرفوع نحو ابنتها كأنها تستجديها ألا تُنكرها..

حـاول رجـال الأمـن المصاحبـون لوفدي البلديـن أن يطلبـوا منها العودة إلى مقعدها، وقبل أن تذعن رأت بعينيها الضائعة عزيز يقف إلى جوار أمها، ومن خلف دموعه هو الآخر صاح قائلاً:

ـ هي أمك يا يُسْر!!

لـم يجـد بـچـاد مفـرًّا من غلـق السـتار، وفي طريقـه إليهـا كانت قد تسـللت خارجه، والتقت التائهتان على سـلالـم المسـرح القليلة وسط سكون الجمهور..

قبـل أن تقـول إحداهما كلمـة كان يقف إلى جوار زوجتـه ينظر إلى وجه ناتاشـا الذي كانت تكسـح عنه الدمع بأصابعهـا التي مدتها بعدها نحـو أذنـي ابنتها تتحسـس القرط الذي منحتهـا إياه يومًـا!! ورغم هذا بقيـت يُسْـر تنظـر إليه، لم تـر في عينيه دهشـة، بل رأته يرخي رأسـه في خجـل وعلمـت أن الوحيـد الذي ظنته لـم يكذب عليها هـو وحده من اغتال من عمرها أعوامًا بأكبر وأقسى كذبة!!

في هدوء ألقت رأسها على صدر أمها، وقالت:

ـ أمي يا وطني وأرضي!!

***

أغلقت حقيبتها في سكون، واستدارت تنظر من خلف زجاج غرفتها إلى بحيرة "كومو".. لحظات وتتوجه إلى المطار مع أمها..

يجب أن تذهب إلى الغريب، رفضت ناتاشا أن تجعلها تحادثه، أخبرتها، وهي تكاد تبكي أنها تخشى أن يموت وحيدًا إن سمع صوتها..

ما بقي حيًّا طيلة هذه الأعوام من أجل صوت، يجب أن يراها..

حاول عزيز أن يشرح لها، أخرج لها مظروفًا، وأخبرها أنه أرسل لها رسالة فيها ما سرقه منها.. حاول أن يقص عليها قصته التي يومًا قصها على مفتش المباحث فهيأ له الهرب، حين بدأ قصته يخبرها أنه فقد زوجته وجنينه أمام عينيه، ولهذا جَبُنَ عن البقاء معها والاستسلام لمشاعره، رفعت كفها في وجهه، ونظرت إلى تفاحة عنقه، وهي تسمع بكاء عروقها تستجديها لو تضع أصابعها عليها مرة أخيرة..

هناك قصص يجب أن تبقى مجهولة، وإن كنا نريد معرفتها، وهناك رسائل تُكتب ويجب ألا تصل أبدًا كرسالة أمها..

طلبت منه ألا يكمل أبدًا، ابتلعت جيوشًا من دمعها، وقالت:

ـ لو أنك لحظة فكرت في كم احتياجي لك، لو أنك لحظة سألت نفسك هل أحتمل غيابك لعلمت كم هو الجرح عميق، والحاجز كبير..

كان حقًّا يبكي، وهو يرجوها فقط أن تصفح عنه، يعلم أنها زوجة ويعلم أنها بالقطع تحب زوجها، هو فقط يريد كلمة..

مسكين عزيز، ومساكين من يظنون الكلمات سهلة!!

انتفضت، وهي ترى بچاد يقف أمامها في عينيه حيرة وألم.. لا أحد يدرك كم هو صعب عليه أن يعترف بخطأ، أو ذنب قدر ما هي تعلم..

رأته يرخي رأسه في سكون، ويقول:

ـ كنت أعلم أنها على قيد الحياة، نعم كذبت.

لن أبـرر، فلا أظنك تفهمين أسـبابي.. فقط سـأخبرك أني أخطأت، وأني أعتذر، وأني أرجوك أن تصفحي وتعودي..

في ألم نظرت إليه، وقالت:

ـ نعـم صنعت مني شـيئًا كبيرًا، لكن غنيت مـن أجلك.. لم أكن أبدًا أريد أن أخذلك.. وحدك خذلتني بل قتلتني.

سكتت لحظات، وأكملت في هدوء:

ـ حانت ساعة الصدق مع النفس..

ما جمعك بي لم يكن حبًّا.. كان إنجازًا وستصنع سواه..

ما جمعني بك كان عرفانًا وثقة، وأحمل جثة كليهما على يدي..

هو الفراق، ولنبقى أصدقاء كما لم نكن!!

من صوتها علم أنه قرار، وأنه لا عودة..

أرخى عينيه، وابتعد عنها، وأرخت عينيها عندما سمعت صوت أمها يناديها..

حملت حقيبتها الصغيـرة، ومضت تقف في الحديقة تحتضن كلب زوجها في صدرها، وعادت تفكر..

لا معروف يطوق عنقها تجاه أحدهما !!

أحدهما صنعها، والآخر أعاد لها الروح!!

خلق منها يجاد امرأة ناجحة وشهيرة لكنها أشبعت فيه ذاك المارد المجنون لشعوره بقوته..

أعاد لها عزيز روحها، لكنه ما كان ليفعل أو حتى يملك ثمن شراء تذكرة الحفل إن لم يسرق نقودها..

بضعفها وحبها شُفي هو من ضعفه وحبه.

بين طرفي رحى تقف!

الكذب والخذلان!!

أيهما تختار؟ وهل نتبع القلب إن خذلوه أم نستسلم للعقل إن هم في ذكائه أهانوه!!

قررت أن تتحرر منهما معًا..

فقط تريد أن تغتسل من غضبها..

تريد أن ترتوي من أمها والغريب..

هناك حب هو الحياة، وجميعهم من الموت اكتفوا!!

أفاقت على كف أمها تربت عليها، واستدارت تضمها إلى صدرها بقوة ما مرت به ومر عليها وقالت:

ـ ضميني كثيرًا.. امنحيني من الصدق ما يكفيني لأنسى الكذب..

امنحيني من الأمان ما يقتل بداخلي هدير البحر واليأس والموت..

أريد أن أولد معكِ من جديد عَّل الصدق يجدني أو أجده!!

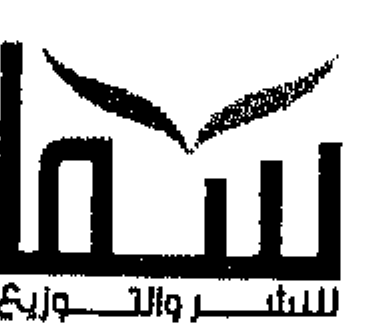
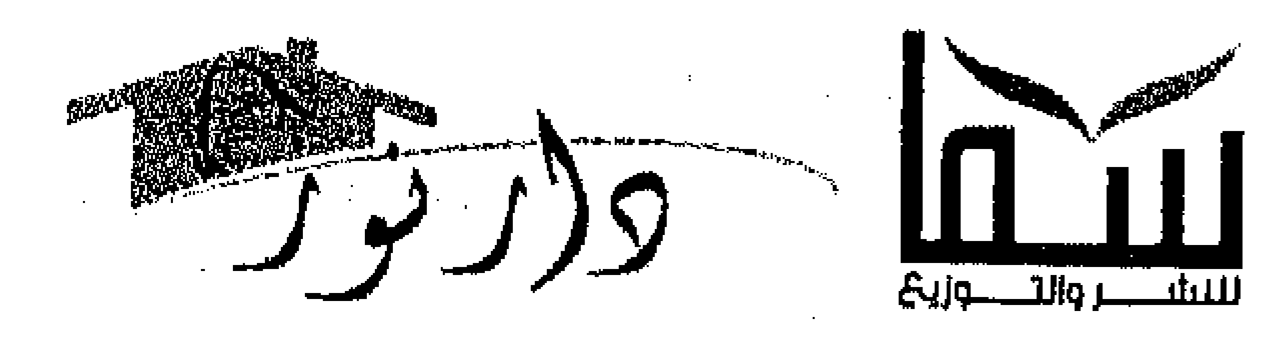
تمّت

إصدارات سابقة

1 - ديوان "وعادت سندريلا حافية القدمين"	دار نور
2 - رواية "الحرمان الكبير"	الدار المصرية اللبنانية
3 - رواية "نساء ولكن"	دار نور
4 - رواية "رغم الفراق"	دار نور
5 - رواية "أريد رجلا"	دار الساقى
6 - رواية " أحلام ممنوعة"	الدار المصرية اللبنانية
7 - رواية من جزئين	الدار المصرية اللبنانية
- "أنا شهيرة"	
- "أنا الخائن"	
9 - رواية "صولو"	دار الساقى
10 - رواية "ذكريات محرمة"	دار نور

للتواصل:

Web-site: www.noorabdulmajeed.com
Facebook:www.noor-abdulmajeed.com
Twitter: @noorabdulmajeed


سما
للنشر والتوزيع

دار نور

عندما يرسم لك أحد من تحبهم طريقك

لا تتبعه..

هو يريد أن يرى نفسه فيك!!

العرفان و الاستسلام لا يصنعان

صروحاً كبيرة!

بداخِلك شيء يختلف..

شيء يستحق ان تأخذ بيده

لأنه خُلق لَكَ وحْدك

وله وحْده أنتَ خُلقت!!



نور عبد المجيد



أديبة و روائية صدر لها عشر روايات منها "نساء و لكن"، "صولو" و رواية "أريد رجلا" التي تم تحويلها الى عمل درامي لاقى نجاحاً كبيراً. لها ايضاً رواية من جزئين "انا شهيرة" و "انا الخائن" التي اثارت جدلاً كبيراً في الأوساط الثقافية و الاجتماعية رغم كونها قصة واقعية، لأهمية و جرأة القضية التي تناقشها في العالم العربي. جارٍ تحويل روايتي "ذكريات محرمة" و "رغم الفراق" إلى أعمال درامية لعرضها على الشاشة.



